العتبة العلوية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
(٧٥)

الإمام موسى بن جعفر عليه السلام

ضحية الإرهاب السياسي

الدكتور محمد حسين علي الصغير
الأستاذ الأول المتمرس في جامعة الكوفة

النجف الأشرف عاصمة الثقافة الإسلامية
عام ٢٠١٢

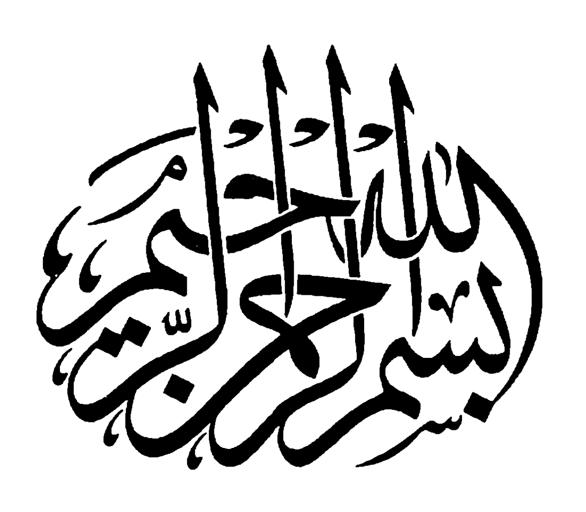
مؤسسة البلاغ





شبكة الفكر
alfeker.net


الإمام موسى بن جعفر عليه السلام
ضحية الإرهاب السياسي


بسم الله الرحمن الرحيم





الدكتور محمد حسين علي الصغير

الأستاذ الأول المتمرس في جامعة الكوفة

النجف الأشرف عاصمة الثقافة الإسلامية

عام ٢٠١٢

مؤسسة البلاغ



www.imamali-a.net
info@imamali-a.net



المؤلف: الدكتور محمد حسين علي الصغير

الناشر: العتبة العلوية المقدسة - قسم الشؤون الفكرية والثقافية

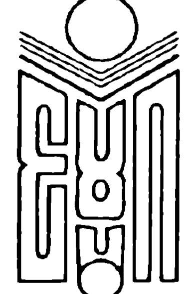
الإخراج الفني: محسن اليوسفي

الطبعة الأولى

تاريخ الطبع: ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

التنفيذ الطباعي

مؤسسة البلاغ
للطباعة والنشر والتوزيع



لبنان - بيروت - بئر العبد - قرب مركز التعاون الاسلامي - بناية حطيط
ص.ب: ١١-٧٩٥٢ بيروت ٢٢٥٠-١١٠٧ - هاتف: (٠٢/٥١٤٩٠٥) - تلفاكس: ٠١/٥٥٢١١٩ لبنان
الموقع الإلكتروني : www.albalagh-est.com
E-mail: Albalagh-est@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الأول قبل كل أول، والآخر بعد كل آخر، واشهد إن لا اله إلا الله شهادة يوافق فيها السر الإعلان، والقلب اللسان، وصلى الله على رسوله محمد الذي بعثه رحمة للعالمين وعلى آله الغر الميامين الذين من سبقهم ضلّ ومن تأخر عنهم هلك، لاسيما وصيه ووزيره أمير المؤمنين عليه السلام.

ما اعتادت الدنيا ان ترى الأفذاذ في كل أدوارها.. لذا كان ظهورهم فيها حدثا خطيرا وامرا جسيما، ومن أولئك الأفذاذ المصلحين: خاتم الانبياء محمد وعترته الطيبين الطاهرين.

وقد يصعب على الإنسان الخوض في هذه الشخصيات الإسلامية الفذة والفريدة التي تمثلت فيها جميع المثل الإنسانية العليا، لما لها من منزلة سامية ومكانة محفوفة برضوان خالقها وموجدها، فهم اختصوا بمعرفة الله تعالى التامة دون سواهم، ونالوا رتبا عالية رفعتهم عن سائر المخلوقين، حتى روي عن الرسول الأعظم صلى الله عليه واله انه قال: (يا علي لا يعرف الله إلا أنا وأنت، ولا يعرفني إلا الله وأنت ولا يعرفك إلا الله وانا) فكيف ترتقي لوصفهم الأقلام، وتصف أسرار تلك النفوس الزكية.

لقد كان في كل صفة من صفاتهم معجزة.. فأهل البيت صلوات الله عليهم أجمعين آية من آيات الله العظمى، فهم اصل الدين وفرعه

ومعدنه ومنتهاه، بهم بدأ الله وبهم يختم.

وهذه الموسوعة الإسلامية الخاصة بآل البيت عليهم السلام لمؤلفها الاستاذ الأول المتمرس الدكتور محمد حسين بن الشيخ علي الصغير ما هي الا نفحة من النفحات العطرة عن هذا البيت النبوي الطاهر، وعرفانا من العتبة العلوية المقدسة لهذه الجهود الكبيرة في تأليف هذه الموسوعة، قامت الأمانة العامة للعتبة العلوية المقدسة باعادة طباعة هذه الموسوعة ونشرها للقراء الكرام اثراء للمكتبة الإسلامية في نشر فكر وتراث اهل البيت صلوات الله عليهم اجمعين.. والله من وراء القصد.

قسم الشؤون الفكرية والثقافية
النجف الأشرف

المقدمة



في حياة الإيمان المشرق ألقٌ وصفاء يخترق ضمير الكائن الإنساني، فيمنحه الدفء والحرارة، ويمدّه بالنبض والحركة، ويدفع به شوطاً بعيداً في مضمار التكامل الاجتماعي. فإذا اقترن ذلك الإيمان الخالص بالإنابة المطلقة والإخبات المتصاعد، التقى الهدف الأخلاقي الأمثل بالهدف الديني السليم، وفي ضوء هذا الإغناء الفسيح تكون الثمار الإيجابية مزدوجة العطاء، وتعود الأطروحة واضحة الأبعاد، فإذا أضفت لهذا وذاك: الثبات في المبدأ، والصلابة في الحقّ، والصبر على المحن والشدائد، خرجت بحصيلة أخلاقية وارفة الظلال، تتفيأ المناخ الإنساني المزدهر في رحاب العقيدة الراسخة، وتستبق الوعي الحضاري بخطوات واثقة، وتحتضن مدارج النضال المبدئي بقوةٍ وروعة.

وهكذا كانت الأجواء التي عاشها هذا الإمام العظيم موسى بن جعفر عليه السلام، وهو ينهض برسالة السماء، ويحيا مأساة الإنسان، ويعيش مظاهر الإرهاب السياسي، ويقارع جور الطواغيت اضطهاداً لا تحدّه حدود،

وتمييزاً طبقياً لا يعرفه الإسلام، ورقابة ملتوية الأساليب، ورصداً بعيد المرامي، وأثرة لا مثيل لها في اقتطاع المناصب واحتجان الأموال ومصادرة الحريات؛ والشعب المسلم في بؤس وشقاء وحرمان، وطوابير الجياع يلتهمها الفقر والضياع، وقصور السلاطين تموج بالترف والبذخ والإسراف، ولا سلطان لأحد في الإنكار والتغيير، والناس كل الناس بين خليفة لاهٍ، ومسؤول ساهٍ، وسياط تلهب الظهور.

هذا غيض من فيض لتلك الصورة المأساوية التي دوّنها التأريخ في الحنايا لا في الصفحات الأولى؛ وينفجر الموقف عن اتجاهات ثورية، فتسيل الدماء، وتزهق الأرواح، وتتكاثف أعداد الأسرى، وينفجر الموقف أيضاً عن هلع وفزع وقلق فيتجرّع الناس مرارة الخوف وسيل الأزمات النفسية.

وكان الحكم العباسي دون مغالاة: عبارة عن مخلوق دموي عنيف، ينام ويستيقظ على الإرهاب والفكر المتعثّر، فلا يحلم إلاّ بالدمار الشامل للرافضين، ولا يستمع لأنّات هذا الشعب الضائع، ولا يفكّر بمصير الأمة المتداعي، وكلّ ما يصدر عنه إزاء ذلك كله هو تفجير طاقات العنف والانفعال للقضاء على المعارضين أو الناصحين، ولا يكاد يصحو من جرائمه إطلاقاً ولا يفكّر لحظة زمنية في يقظة الضمير التي قد تغتاب الطغاة حيناً، فيرتدّ عن تصرّفاته الشاذة، ويعي أنّ الإنسان كائن ذو أهمية خاصة وله نقطته المركزية في الكون، وإنما هو الاندفاع بأعمال القهر والقسر، والإغراق في العمى المطبق، وكأنّ تصرّفاته السلوكية هذه انعكاس للبركان الحاقد المتواجد في نفوس الحاكمين.

وكان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في الاتجاه المعاكس لهذا التخلّف العريض، وكان التماعه الذهني المتوقّد دقيقاً في رصد العواطف المرهفة

عند الإنسان، وكان الوعي الرسالي لديه حريصاً على كشف القدرات الكامنة في الذات الإنسانية، فهو يريد لها الازدهار والانبعاث لتكون كياناً مجسّداً يتصرّف ويعي ويدرك، لا آلة تستخدم وتشترى وتعار، وهو بذلك صريح دون رموز وألغاز، وإنما هو الوعي المتدافع الذي يعصف بكيان التعسّف والانحدار الخلقي.

ومن هنا تدرك مدى الهلع الذي يقض مضاجع السلطان، من الإمام موسى بن جعفر عليه السلام باعتباره العاصفة التي تقتلع مفاهيم الاستعباد الجماعي، وتخترق حواجز الاستبداد الفردي، فتنهار الأعراف السلطوية التي تعمل على صنمية المجتمع وتخديره، وتنتقل به من النمط التقليدي في الإذعان والإذلال إلى سياق تحرّري جديد من الحيوية والإدراك.

فالإمام يشجب كل مظاهر القهر والإكراه، ويدعو إلى الموقف الحاسم، ويصدع بالصوت الجريء النافذ فيهزّ الأنظمة الهزيلة بقدرة فائقة تفوق قدرة السلاح، ولكنه النضال السلبيّ الموجّه، أو المواجهة الرافضة المنظّمة، فلا موادعة مع الظالمين والقتلة، فكان ضحية الإرهاب السياسي، نتيجة هذا الطرح الرائد.

بيد أنّ رسالة السماء التي نهد الإمام برفع لوائها، بدأت في اتّساقها وشموخها تنشر الهدى وتفيض المعرفة، فكان للنضال موقع في كسر القيود والأغلال، وكان لصوت العلم موقع ودويّ في الآفاق، وكان هذا التلاحم في كشف الظلم ونشر العلم يعني انتصار مدرسة أهل البيت في هذين الخطّين المتوازيين.

وكانت حياة الإمام عليه السلام تقتسمها المظالم والمعارف، مظالم الطواغيت، ومعارف الرسالة الإسلامية، وجاء هذا الكتاب لرصد ذلك الزخم الهائل من المعارف، وسبر ذلك السيل المتلاطم من المظالم، وهما موضوع

هذه الرسالة في الكشف الموضوعي والاستقراء العلمي وتحديد الرؤية.

وكانت طبيعة البحث في أصوله وفروعه ومتعلّقاته أن انتظم في ثمانية فصول:

كان الفصل الأول منها بعنوان:

«الإمام في سماته ومميزاته»

وقد اشتمل على قبس من الأضواء الكاشفة عن مسيرة الإمام بإيجاز معبّر في ولادته، ونشأته المباركة، والتأكيد على منزلته العليا ناهضة نابضة دون عواطف، يلي ذلك كشف الإمام من مرآة التأريخ في شخصيته ومواهبه وقدراته، وتسليط الضوء على جزء من نماذج خصائص الإمام بما فيها المنظور المشترك في الخصائص بين الأئمة عليهم السلام، متحدّثاً عن الورع والتقوى في ظاهرة إيجابية، وعن حِلم الإمام وكظمه الغيظ في جبلّة نفسية، متوقفاً عند ظاهرة تتحدّى شح الحاكمين في الكرم والسخاء والمواساة. بما نعتبره دراسة مكثّفة في أبرز خصائص الإمام ومميّزاته.

وكان الفصل الثاني بعنوان:

«الإمام والمسيرة العلمية الرائدة»

وقد تناول بالبحث المعمّق خمسة ظواهر متأصّلة هي:

المدرسة الأولى لأهل البيت في إرساء قواعد العلوم المتطوّرة، وبناء صرح الحضارة الإنسانية.

وكانت الظاهرة الثانية معبّرة عن مصادر علم الإمام الكسبية واللدنية بشواهد شاخصة، وأمثلة بارزة الملامح.

وكان المبحث الثالث متساوقاً عملياً مع ظاهرة السيرورة النادرة، والانتشار الذائع الصيت لعلم الإمام الهادر في الآفاق والأقاليم.

وتبنى المبحث الرابع ظاهرة الدور الريادي لتلامذة الإمام وطلاّبه في نشر

التراث العلمي الأصيل الصادر عن الإمام مشافهة أو تدويناً، في نماذج حيّة ناطقة وقد أكّدتُ فيه على من كان من هؤلاء التلاميذ مؤلفاً وأحصيت بعضاً من مؤلفاتهم.

ونظر المبحث الخامس في ظاهرة متحركة لتعليمات الإمام في دائرة معارفه الموسوعية، وقد بدا سجلاً حافلاً بالأعلاق النفسية، وكنزاً لا يثمن من الذخائر المفجّرة للطاقات البشرية.

وكان الفصل الثالث بعنوان:

«الإمام وظواهر الحياة العقلية المتطوّرة»

وقد ركّز البحث على أربع ظواهر عقلية في حياة الإمام عليه السلام.

كان الأول منها عارضاً أميناً ومحلّلاً للعقل والمناخ العقلي المضطرب في عصر الإمام، ورصد شوارده وأوابده في ضوء المنهج الاستقرائي.

وكان الثاني متحدّثاً بموضوعية عن تعدّد الاتجاهات العقائدية مذهبياً وكلامياً بلمحات بارزة تطرح الفكر الكلامي كما هو على صعيد المناقشة.

وكان الثالث متحدّثاً عن الموجات الجديدة التي أحدثت الانقسام في فرق الشيعة، ومعرّضاً بالانشقاق الداخلي الذي عرض لها، فكان منه ما ولد ميتاً فلم يكتب له بقاء، ومنه ما استمرّ متعثّراً دون أي تأثير على الفكر الإمامي الأصيل، ومنه ما ظلّ حتى اليوم في كيان متزلزل.

وكان الرابع مستوعباً لأفكار الإمام الصادعة في خضم التيار الكلامي، وإثرائه الفكر الإسلامي بالحقائق مجرّدة نظراً وعملاً، وذائقة توحيدية خالصة.

وكان الفصل الرابع بعنوان:

«الإمام وطواغيت عصره»

وقد بدأ برؤية استراتيجية للمبادئ السياسية المتقابلة لدى الإمام وعند

الطواغيت، فأعطت تصوّراً دقيقاً للفروق المميّزة بين فكر الإمام السياسي في البناء والانعتاق، وبين تسلّط الحاكمين في الاضطهاد والاستبداد.

تلت ذلك أربعة مباحث راصدة لمعاناة الإمام الهائلة من أبعاد شتى، لدى استخلاف المنصور، وفي عهد ولده المهدي، وفي أيام موسى الهادي، وفي مملكة هارون الرشيد. وكان فيها مسحٌ تأريخي مركّز لعوالم الإرهاب التي تعرّض لها الإمام، وتصوير للحاجة المأساوية التي مثّلت كابوساً مطبَّقاً على حياة الإمام.

وكان الفصل الخامس بعنوان:

«المناخ الثوري وإجراءات الإرهاب السياسي»

وقد انتظم في خمسة مباحث ناطقة بصدق وأمانة عن: قمع التحرّك الثوري من قبل العباسيين، وثورة الحسين بن علي (صاحب فخّ)، وانتفاضة يحيى بن عبد الله المخض، والتصفية الجسدية للعلويين، وموقف الإمام من العنف الثوري.

وكان هذا الفصل حافلاً بمشاهد الدماء القانية، وتأريخ الثورات العلوية المضطربة، وتصوير الإجراءات الصارمة في الاقتصاص، بما يمثّل موجة الإرهاب السياسي العنيف في معالجاته البدوية المعقّدة، واستخفافه بالدماء والأعراض وقيمة الإنسان.

وعرض لموقف الإمام موسى بن جعفر عليه السلام من هذه الأحداث الحزينة، ولوّح بتوجيهاته بالترقب والنصح الكريم، وأشار لمعارضته هذا المنهج.

وكان الفصل السادس بعنوان:

«البعد الاستراتيجي لسياسة الإمام في مقاومة الانحراف العباسي»

وهو عرض جديد لأبعاد استراتيجية بارزة في سياسة الإمام المنطلقة من صميم رسالته وقيادته للأمة في ضوء تعليمات السماء.

وقد اشتمل على ثلاثة مباحث رئيسية لخّصت سياسة الإمام تجاه عملية التخطيط المكثّفة لعوالم التضليل العباسي بأحداث ماثلة أبرزت الإمام وسياسة النضال السلبي، والإمام واختراق النظام العباسي، والإمام ومجابهة الانحراف والتضليل الديني. وهي عوالم تمثّل عمق الصدق السياسي لدى الإمام في صور دقيقة الآثار.

وكان الفصل السابع بعنوان:

«الإمام في غياهب السجون»

وهو فصل فريد تناول بالبحث العوامل الرئيسية التي أدّت إلى سجن الإمام، وأكّدت تكرار اعتقال الإمام مرة بعد مرة، وعرضت لأماكن سجن الإمام، وأبرزت الجوانب الإيجابية لحياة الإمام في السجن عبادة وعلماً وعملاً. وكان ذلك في أربعة مباحث هي: رؤية مجهرية في أسباب سجن الإمام. إيديولوجية تنقّل الإمام بين عدة سجون. حياة الإمام في طوامير السجون. الإمام يوصي بأمواله ويوقف أراضيه.

وكان الفصل الثامن بعنوان:

«الإمام في مدارج الشهادة»

وقد اشتمل على أربعة مباحث تناولت أواخر حياة الإمام في الاعتقال، واشتملت على بيان دوافع سجن الإمام ومحاولات اغتياله، وعرضت لمشاهد الإِشهاد على وفاة الإمام، وأنهت بمعالم تجهيزه وتشييعه إلى مقرّه الأخير، حيث مرقده الشامخ ـ اليوم ـ في الكاظمية المقدّسة. وهذه المباحث كالآتي: فزع الرشيد من منزلة الإمام، اغتيال الإمام بالسم، الإشهاد على وفاة الإمام، تجهيز الإمام وتشييعه إلى مثواه الأخير.

وكان ما تقدّم من الفصول قد نهض بعنوان هذا الكتاب:

«الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ضحية الإرهاب السياسي»

ولم يكن باستطاعة هذه الدراسة الإلمام بالدور المشرق للإمام في ميادين الحياة الاجتماعية كافة، واكتفت برصد الأحداث في مسيرة الإمام، والإشارة بعمق إلى مخزونه الفكري والتراثي والعقائدي، فمثّل ذلك ألقاً من حياة الإمام، والتمس قبساً من شعاعه الفيّاض، وعرض لنماذج من مميزاته الكبرى، وتناول بعرض جديد وأسلوب جديد ذلك اللمعان المتوهّج في خصائص الإمام، وعلم الإمام، والحياة العقلية للإمام، وسياسة الإمام، واضطهاد الإمام، واستشهاد الإمام.

وكان الرأي الحرّ رائد هذه الدراسة، واستقراء المجهول مهمّتها الأساسية، وتصوير حقائق الأشياء هدفاً موضوعياً.

وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم، عليه توكّلت وإليه أنيب، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

النجف الأشرف

محمد حسين علي الصغير

الفصل الأول

الإمامُ في سماتِهِ ومميزاته

١ ـ الوليد العظيم.

٢ ـ النشأة المباركة.

٣ ـ المنزلة العليا.

٤ ـ الإمام من مرآة التأريخ.

٥ ـ من خصائص الإمام.

أ ـ المنظور المشترك في خصائص الأئمة.

ب ـ الورع والتقوى في ظاهرة إيجابية.

جـ ـ حلم الإمام وكظم الغيظ.

د ـ ظاهرة السخاء والكرم النفسي.



الوليد العظيم

الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام علي زين العابدين بن الإمام الحسين سيد الشهداء بن الإمام علي بن أبي طالب أمير المؤمنين عليهم السلام.

وهو الإمام السابع من أئمة أهل البيت (صلوات الله عليهم). ولد ـ في أشهر الأقوال ـ في السابع من شهر صفر الخير عام ١٢٨ هـ عند سحر يوم الأحد أو الثلاثاء في «الأبواء» أحد منازل الطريق بين مكة والمدينة، وذلك لدى عودة الإمام الصادق من الحج[1]

ولدى ولادته الشريفة أمر الإمام الصادق عليه السلام أحد أصحابه بإطعام الناس ثلاثة أيام ابتهاجاً بهذا الحدث السعيد[2].

وكان وليداً مباركاً، تبوّأ مقعد الإمامة، وتسلّم إرث النبوة، ملئت به القلوب بهجة واغتباطاً، وعمرت به البشائر أفقاً ورحاباً، وسارت الركبان بإطلالته احتفاءً واحتفالاً.

---

(١) ظ: الشيخ المفيد / الإرشاد/ ٣٠٧ + الطوسي / التهذيب/ ٦/ ٨١ + الكنجي الشافعي / كفاية الطالب/ ٣٠٩ + الذهبي / سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٧٠. + الإربلي / كشف الغمة ٣/ ٢ + ابن شهرآشوب / المناقب ٣/ ٤٣٧ + البحار ٤٨/ ٧.

(٢) ظ: المجلسي / بحار الأنوار / ٤٨/ ٤.

أمه: حميدة بنت صاعد الأندلسية، مثال المرأة المسلمة الملتزمة، ورمز النساء الصالحات حتى عرفت بـ«المصفاة» فيما أثر عن الصادق أنّه قال: «حميدة مصفاة من الأدناس كسبيكة الذهب»[١].

وكان في ملامحه العامة: أزهر إلاّ في الغيظ[٢]. أسمر اللون[٣] «حسن الصوت حسن القراءة»[٤] وكان «رابط الجأش»[٥] وتمرّس قراءة القرآن العظيم بخشوع وإمعان «وكان إذا قرأ يحزن ويبكي، ويبكي السامعون لتلاوته»[٦].

وأجمعت مصادر ترجمته المتقدّمة بأنّه لقّب بـ«الكاظم» حتى عاد علماً له، واكتفي به عن اسمه الشريف، واشتهر ذلك شهرة عظيمة، وقد لقّب به لكظمه الغيظ، وتجاوزه عن المسيئين.

وكنيته «أبو الحسن» و«أبو الحسن الأول» و«أبو الحسن الماضي» وعرف بـ«العبد الصالح» لفرط عبادته، و«النفس الزكية» و«الوفي» و«زين المتهجدين» و«الأمين» و«الصابر» و«الزاهر» سمي به لأنه زهر بأخلاقه الشريفة، وكرمه المضيء التام[٧].

وله كنى وألقاب سواها، منها:

«أبو إبراهيم» و«أبو علي» و«أبو إسماعيل» والراجح أنها كنى متأخرة التأريخ، وقد أطلقت عليه بعد ذلك عندما أصبح أباً لهذا أو ذاك من

---

(١) أبو الفرج / مقاتل الطالبيين / ٤٩٩ + الطوسي / التهذيب / ٦/ ٨١ + المفيد / الإرشاد / ٣٠٧ + الكليني / الكافي / ١ / ٤٧٧ + ابن شهرآشوب / المناقب ٣ / ٤٣٧.

(٢) ابن شهرآشوب / المناقب ٣ / ٤٣٧.

(٣) ابن الصباغ / الفصول المهمة / ٢١٤.

(٤) الطبرسي / الاحتجاج / ٢١٥.

(٥) ابن عنبة / عمدة الطالب / ١٨٥.

(٦) الشيخ المفيد / الإرشاد / ٣١٩ + ابن شهرآشوب / المناقب ٣/ ٤٣٧.

(٧) ظ: ابن شهرآشوب / المناقب / ٣/ ٤٣٧ وبقية المصادر.

الأولاد[1].

وقد وجد من ألقابه سبط ابن الجوزي فأضاف إليها: «السيّد» و«الطيّب» و«المأمون»[2].

وهي ألقاب تحكي عظيم منزلته، وكرم أرومته، ومدارج كماله النفسي. وعرف بعد وفاته بـ«باب الحوائج» عند القاصي والداني لاسيما العراقيين بخاصة، حتى قال الشاعر:

باب الحوائج.. ما أتته مروعةٌ
في حاجةٍ.. إلاّ ولبّى حَاجها

وقال الآخر فيه وفي حفيده الإمام محمد الجواد:

لذْ إن دهتك الرزايا
والدهر عيشَك نكّدْ
بكاظم الغيظ «موسى»
وبالجواد «محمدْ»

يقول الإربلي (ت ٦٩٤هـ): «ويعرف في العراق بباب الحوائج إلى الله، لنجح المتوسّلين إلى الله تعالى به...»[3].

---

(١) ظ: محمد حسن آل ياسين / الإمام موسى بن جعفر / ١٦.
(٢) سبط ابن الجوزي / تذكرة الخواص / ٣٥٧.
(٣) الإربلي / كشف العمة ٣/ ٢.

النشأة المباركة

درج الإمام في طفولته وصباه يتفيّأ ظلال النبوّة، ويتغذّى روح الإيمان، وأدرك من حياة أبيه الإمام الصادق عليه السلام عشرين عاماً، ينتهل رافد معارفه، ويغترف من بحر علمه الهادر، وابتهج به أبوه ابتهاجاً عظيماً وهو يافع يحتضن الفكر الناهض، وينطلق إلى الهدف الرائد، حتى قال أبوه: «الحمد لله الذي جعلك خلفاً من الآباء، وسروراً من الأبناء، وعوضاً عن الأصدقاء»[١].

وتمثلت في الإمام الأصالة منذ صغره، وعرف بالشمم والإباء وهو صبيٌّ يافع، وذاع صيته في الآفاق مبكّراً، وسرت هيبته في الأنظار والقلوب، واعتمرت الضمائر بمحبّته حتى قال أبو نواس[٢]:

إذا أبصرتك العينُ من غير ريبةٍ
وعارض فيك الشكُّ أثبتكَ القلبُ
ولو أنّ ركباً أمّموكَ لقادَهم
نسيمكَ حتى يستدلَّ بك الركبُ

---

(١) الصدوق / عيون أخبار الرضا ٢ م١٢٧ + المجلسي / البحار ٤٨/ ٢٤.

(٢) ابن شهرآشوب / المناقب ٣/ ٤٣٢.

جعلتك حسبي في أمـوري كلِّها
وما خابَ من أضحى وأنتَ له حسبُ

والظاهرة الجديرة بالاهتمام أنّ الإمام كان منذ صباه يتمتّع بحياة عقلية نيّرة، يعي المسائل بفكر ثاقب، ويجيب السائل بإدراك متوهّج، حتى كان مثار إعجاب العلماء والفقهاء، وقد تحدّثوا عن ذلك بشكل مدهش ينمّ عن الإعجاب والإكبار.

فقد روى الإربلي عن أبي حنيفة إمام المذهب الحنفي قوله:

«رأيت موسى بن جعفر وهو صغير السنّ في دهليز أبيه، فقلت: أين يحدث الغريب منكم إذا أراد ذلك؟ فنظر إليَّ ثم قال: يتوارى خلف الجدار، ويتوقّى أعين الجار، ويتجنّب شطوط الأنهار ومساقط الثمار، وأفنية الدور والطرق النافذة والمساجد، ولا يستقبل القبلة ولا يستدبرها، ويرفع ويضع بعد ذلك حيث شاء».

قال: فلما سمعت هذا القول نبل في عيني، وعظم في قلبي، فقلت له: ممن المعصية؟ فقال:

«إن المعصية لابدّ أن تكون من العبد، أو من ربّه، أو منهما جميعاً. فإن كانت من الله (تعالى)، فهو أعدل وأنصف من أن يظلم عبده، أو يؤاخذه بما لم يفعله، وإن كانت منهما فهو شريكه. والقويّ أولى بإنصاف الضعيف. وإن كانت من العبد وحده فعليه وقع الأمر، وإليه توجّه النهي، وله حقّ الثواب والعقاب، ووجبت الجنة والنار».

قال أبو حنيفة: فقلت: «ذريةٌ بعضها من بعض»[1].

وهذه الإجابة في شطرها الأول بدا بها الإمام في صباه فقيهاً ناطقاً بالسنّة، وصادعاً بالإفتاء، وفي شطرها الثاني بدا متكلماً نزّه الباري عن

---

(١) ابن شهرآشوب / المناقب ٣ / ٤٢٩.

الظلم والقبح العقلي، ودحض نظرية الجبر والتفويض.

وليس عجيباً أن ينطلق الإمام متهادياً بهذا المستوى الرفيع في سنّ مبكّرة. فللنشأة أثرها في المعرفة والإدراك والتمييز، وللتربية الفذّة ثمارها في الوعي والدراية المتنوّرة، وخصائص الإمام ـ باعتباره معصوماً ـ تبدو متكاملة في ظلّ مواهبه وعصمته، وهي مزيج بين ملكته الراسخة التكوينية وبين عبقرياته المتعدّدة. وبعد هذا فحديثه حديث أبيه، وحديث أبيه حديث جدّه، وحديث جدّه حديث رسول الله ﷺ، ورسول الله هو المشرّع الأعظم، وكفى بذلك شرفاً.

وليس جديداً القول إنّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وريث النبوّة الشرعي، وحامل الرسالة إماماً مفترض الطاعة، وقد حمل بين جنبيه من عوامل الوراثة، وصدور النصّ عليه، ومقوّمات النمو الفكري ما يجعله حجة لله في بلاده وعلى عباده.

عاش الإمام حياته في الصبا والشباب في أكناف مدرسة أبيه، الإمام جعفر الصادق عليه السلام زعيم مدرسة أهل البيت عليهم السلام في موسوعيتها وموضوعيتها، وقد صقلت هذه المدرسة قابلياته وقدراته الخارقة، وهي تستوحي مصادرها من ذلك المخزون الثقافي الحافل بأصناف المعارف الإنسانية التي سيّرها الإمام الصادق في الخافقين، وأشرقت بأشعّتها الملوّنة في الفكر البشري ففاق حدّ الطموح المرتقب إلى الأفق المديد، فإذا أضفنا إلى ذلك الإعداد الكريم الذي حظي به الإمام، والمواهب الراقية التي انفرد بها، والفضائل العامة التي اكتسبها، وما أحياه من مآثر، خلصنا أنّه خلاصة أطروحة أهل البيت في التربية والتأصيل، وزبدة هذا الكون في العبقرية والنبوغ.

ولا أدلّ على هذا من تنويه أبيه به، وإرشاد الناس إليه، ووضعه موضع

القيادة المرتقبة، ذلك كله مع وجود الإمام الصادق عليه السلام. فقد كانت الخطّابية في غلوّها قد استشرى داؤها وبلاؤها في عهد الإمام الصادق عليه السلام على يد محمد بن مقلاص الأسدي المعروف بأبي الخطّاب، وكان من أعنف الغلاة وأشدهم انحرافاً، وقد تبرّأ منه الأئمة مدى التأريخ، وحذّروا شيعتهم، وفنّدوا آراءه الغالية جملة وتفصيلاً. وقد التجأ عيسى الشلقاني إلى الإمام الصادق عليه السلام مستجيراً من هذه الظاهرة، طالباً القول الفصل فيها، فقال له الإمام الصادق عليه السلام: «يا عيسى: ما منعك أن تلقى ابني ـ يعني الإمام الكاظم ـ فتسأله عن جميع ما تريد؟».

فاتّجه عيسى صوب الإمام الكاظم، وكان صبياً في المكتب ـ كما تقول الرواية ـ فلما رآه الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بدره بالقول: «يا عيسى؛ إنّ الله (تبارك وتعالى) أخذ ميثاق النبيين على النبوّة فلم يتحوّلوا عنها أبداً، وأخذ ميثاق الوصيين على الوصيّة فلم يتحوّلوا عنها أبداً، وأعار قوماً الإيمان زماناً ثم سلبهم إياه، وإنّ أبا الخطّاب ممن أعير الإيمان، ثم سلبه إياه».

فقلت: «ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم»[1].

ونخلص من هذا الحديث إلى أمور:

الأول: أنّ الإمام الصادق عليه السلام قد أراد الإشادة العملية بولده، وأمر شيعته بالتوجّه نحوه، عالماً بقدرته على الإجابة، ليوحي بذلك أنّه الإمام المفترض الطاعة.

الثاني: أنّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قد بادر بالإجابة عما يختلج في ضمير السائل قبل سؤاله، مما يشكّل بعداً محورياً في القول بالعلم اللّدنّي والموهبي لدى الإمام كما سلف لنا فيه القول ببحث سابق.

---

(١) ابن شهرآشوب / المناقب ٣/ ٤١١.

الثالث: الاستعداد الفطري لدى الإمام موسى بن جعفر في استقبال ما يطرح عليه من المعضلات وهو في سنّ الصبا، مما يعني تأثير النشأة المباركة في مسلكيته العلمية النادرة.

يقول الأستاذ محمد حسن آل ياسين:

«هكذا نشأ موسى بن جعفر في هذه البيئة المباركة الناصعة النقاء، وفي تلك البيوت التي يعلو فيها ذكر الله أطراف الليل وآناء النهار، وتتردّد في جنباتها همسات التسبيح والتهليل، وأصداء الابتهال والترتيل، وينتشر منها على الناس فيوض العلم النافع، ودروس العمل الصالح، وأمثولة الخلق الرفيع. وسرعان ما اكتملت خطوط رجولته الناطقة، ومعالم شبابه الندي، واتّضحت للعيان صفاته الخَلقية ومواهبه الخُلقية وملكاته الذاتية على نحو ممتاز لافت للنظر»(١).

حتى إذا انتقل الإمام الصادق عليه السلام إلى الرفيق الأعلى عام (١٤٨هـ) استقلّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بالإمامة، ونهد بأعباء القيادة، فكان بطلها المجرَّب، وعملاقها العظيم، ورائد التحرّر الاجتماعي، ورافض الاستعباد الجماعي، وناشر الفكر الإنساني.

وكانت تطلّعات الإمام الرائدة تتقوّم بعناصر حيّة تسعى إلى إقامة المجتمع المتكامل بأساليب دفع ناهضة، تبعثه من رقدة الجفاف والانكماش والتخدير إلى صحوة الوعي والحرية، وتطلُّ به على آفاق الأنشطة المتعدّدة في الموقف والتفكير، وهو يتفجّر بأنماط الحياة العاملة على الإيمان بقضية الإنسان، باعتباره نقطة الانطلاق في الكون.

---

(١) محمد حسن آل ياسين / الإمام موسى بن جعفر / ٢٠.

المنزلة العليا

لم يكن حبّ الإمـام الصادق عليه السلام لولده الإمام الكاظم عليه السلام عاطفياً، ولا تقييمه لمكانته أبوياً، والتأكيد عليه اعتباطياً، وإن كانت العاطفة والأبوّة أمراً طبيعياً، ولكن الإمام لا يصدر عنهما في النصّ أو الإشادة أو التقييم، وإنما ينطلق فيما يفيض به من خلال التكليف الشرعي والأداء الإلهي ليس غير.

وهذه الظاهرة في السلوك لدى الإمام الصادق إيديولوجية رسالية لا يحيد عنها في قول أو عمل أو إقرار، فهو حينما يصرّح باستيلاء حبّ ولده الكاظم عليه بقوله:

«وددت أن ليس لي ولد غيره لئلا يشركه في حبّه أحد..»[1].

إنما يعبّر عن هدف آخر هو الإعلان بأنّه الإمام من بعده، والقائم بالأمر في الناس، والحجّة على الخلائق، بدليل قوله لأوليائه: «قد وهب الله لي غلاماً، وهو خير من برأ الله..» وقال لهم: «فدونكم، فوالله هو صاحبكم»[2].

وروى المفيد أنّ الإمام الصادق دعا ولده الإمام الكاظم، وقال لمن عنده:

---

(١) الشبراوي الشافعي / الإتحاف بحب الأشراف / ٥٤.

(٢) الشيخ المفيد / الإرشاد / ٣٢٥.

«عليكم بهذا بعدي، فهو والله صاحبكم بعدي»[١].

وهناك ما هو أكثر تفصيلاً، وأقدم رواية، فعن علي بن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام يقول: سمعت أبي جعفر بن محمد عليه السلام يقول لجماعة من خاصّته وأصحابه: «استوصوا بابني موسى عليه السلام خيراً، فإنّه أفضل ولدي، ومن أخلف بعدي، وهو القائم مقامي، والحجّة لله(تعالى) على كافة خلقه من بعدي»[٢].

وهذه الإبانة من الإمام الصادق بحقّ ولده الإمام إنما تعني النصّ عليه، وإشهاد من يسمع على ذلك، وتبليغ أوليائه به، وقد جمع الإمام الصادق ولده، وقال لهم: «هذا وصي الأوصياء، وعالم علم العلماء، وشهيد على الأموات والأحياء»، ثم قال: يا يزيد «ستكتب شهادتهم ويسألون»[٣].

وقول الإمام للفيض بن المختار مشهور، وقد سأله عن الإمام فأشار إلى موسى بن جعفر وقال: «هذا صاحبكم فتمسّك به»[٤].

ولقد روى النصّ على إمامته جماعة من أعيان أصحاب أبيه، منهم: أخوه علي بن جعفر، وإسحاق بن جعفر، والمفضل بن عمر الجعفي، ومعاذ بن كثير، وعبد الرحمن بن الحجاج، والفيض بن المختار، ويعقوب السراج، وسليمان بن خالد، وصفوان بن مهران الجمّال، وحمران بن أعين، وأبو بصير، وداود الرقي، ويزيد بن سليط، ويونس بن ظبيان[٥]..

وهذا التواتر مما أجمع عليه الإمامية، ونضيف إلى هؤلاء: منصور بن

---

(١) المجلسي / بحار الأنوار ٤٨/ .
(٢) المفيد / الإرشاد / ٣٢٦.
(٣) المجلسي / البحار / ٤٨ / ٢١.
(٤) الإربلي / كشف الغمة / ٣ / ١١.
(٥) ظ: ابن شهرآشوب / المناقب ٣ / ٤٣٦.

حازم، وإبراهيم الكرخي، ويزيد بن أسباط، وسلمة بن محمد[١] وسوى هؤلاء من الأعلام، مما استقرت عليه الإمامية. وكان المجلسي قد أوفى بأكثرها[٢].

وهي متوافرة في كل من عيون أخبار الرضا، والكافي، وبصائر الدرجات، وإعلام الورى، وكمال الدين، وقرب الأسناد، وإرشاد المفيد، والاختصاص، وغيبة النعماني، والمناقب، ورجال الكشّي، وكشف الغمّة، والفصول المهمّة، وسواها من كتب السير والتواريخ.

وكان ترشيح الإمام له مدعاة اعتزاز أتباع أهل البيت من العلماء والفقهاء والمتكلّمين وشرائح المجتمع كافة، لأنه صادر عن صادق القول، وكان جماع قوله في حقّ ولده على وجه الإجمال ما تحدّث به الصادق عليه السلام إلى عيسى بن شلقان:

«يا عيسى إنّ ابني هذا الذي رأيت، لو سألته عما بين دفّتي المصحف لأجابك فيه بعلم، ثم أخرجه ذلك اليوم بكتاب»[٣].

ومع كل هذا فقد اختلف سواد الناس بعد الإمام الصادق عليه السلام، ورجع قسم منهم إلى ولده عبد الله دون دليل نصّي أو استقرائي أو شرعي.

وقد اختبر جماعة من أصحاب الصادق عليه السلام فيهم هشام بن سالم، ومحمد بن النعمان حال عبد الله فلم يجدوه شيئاً، طبق المواصفات الدقيقة للإمام، فقالوا في بعض أزقّة المدينة بعد خيبتهم: إلى أين نتوجّه؟ إلى المرجئة؟ إلى القدرية؟ إلى المعتزلة؟ إلى الزيدية؟ وإذا بمن يشير على هشام باتباعه، فيوقفه عند منزل الإمام الكاظم عليه السلام، ويشير عليه بالدخول، فيدخل، ويقول: «فدخلت فإذا أبو الحسن موسى عليه السلام، فقال لي ابتداءً:

(١) ظ: الكليني / الكافي ١ / ٣٠٩ + المجلسي / البحار / ٤٨/ ١٢-٢٨.
(٢) ظ: المجلسي / البحار ٤٨ / ١٢ - ٢٨.
(٣) المصدر نفسه ٤٨ / ٢٤ وانظر مصادره.

إليَّ إليَّ، لا إلى المرجئة ولا إلى القدرية ولا إلى المعتزلة ولا إلى الزيدية، ولا إلى الخوارج.

قلت: جعلت فداك. مضى أبوك؟ قال: نعم؛ قلت: مضى موتاً؟ قال نعم؛ فقلت: فمن لنا بعده؟ قال: إن شاء الله أن يهديك هداك.

قلت: جعلت فداك، إنّ أخاك عبد الله يزعم أنّه الإمام بعد أبيه!!

فقال: عبد الله يريد أن لا يعبد الله.

قلت: جعلت فداك، فمن لنا من بعده؟ فقال: إن شاء الله أن يهديك هداك.

قلت: جعلت فداك، فأنتَ هو؟ قال: لا أقول ذلك.

فقلت في نفسي: إنّي لم أصب طريق المسألة.

ثم قلت له: جعلت فداك؛ أعليك إمام؟ قال: لا.

قال هشام: فدخلني شيء لا يعلمه إلا الله (تعالى) إعظاماً له وهيبة.

ثم قلت له: جعلت فداك؛ أسألك كما كنت أسأل أباك؟

قال: سلْ تخبر، ولا تذع، فإن أذعت فهو الذبح.

قال هشام: فسألته، فإذا هو بحر لا ينزف.

قلت: جعلت فداك؟ شيعة أبيك ضلال، فألقي إليهم هذا الأمر؟ وأدعوهم إليك؟ فقد أخذت عليَّ الكتمان.

قال عليه السلام: من آنست منه رشداً، فألقِ إليه، وخذ عليه الكتمان، فإن أذاع فهو الذبح، وأشار بيده إلى حلقه.

قال هشام: فخرجت من عنده فلقيت أبا جعفر الأحول. فقال لي: ما وراءك؟ قلت: الهدى، وحدّثته بالقصة.

قال: ثم لقينا زرارة وأبا بصير، فدخلا عليه، وسمعا كلامه، وسايلاه،

وقطعا عليه، ثم لقينا الناس أفواجاً، فكلٌّ من دخل عليه قطع بالإمامة...»[١].

وكان لا مناص للمسيرة الإسلامية - كما ألزم قائدها الرسول الأعظم ﷺ - من وجود إمام مفترض الطاعة في كل عصر وزمان حتى قيام الساعة، يكون هو الحجّة على الخلق، ويقتدي الناس به ويهتدون بهديه، ويستضيئون بنور عِلْمه، ويتقرّبون إلى الله بمعرفته المطلقة.

وتلفت المسلمون الملتزمون بأحكام دينهم - يميناً ويساراً - بحثاً عن الإمام الجامع الشرائط الشرعية المقرّرة في مواصفات الإمامة وضوابطها العامة والخاصة، فلم يجدوا من تجتمع فيه تلك الضوابط والمواصفات إلاّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بل لم يكن من هو أهل لها غيره على وجه الحصر والتعيين..»[٢].

وهذا الحصر وذلك التعيين قد نبّه إليه الإمام الصادق عليه السلام كما رأيت، فهو الحجّة على أهل الأرض، بما انضمت عليه جوانحه من مآثر ومعارف أشار إليها الإمام الصادق بقوله:

«فيه علم الحكم، والفهم، والسخاء، والمعرفة بما يحتاج الناس إليه فيما اختلفوا فيه من أمر دينهم، وفيه حسن الخلق، وحسن الجوار، وهو باب من أبواب الله عزّ وجلّ ...»[٣].

وهذ جماع ما عليه اشتراط الإمام من سمات ومميّزات.

وقد أجمع أصحاب السنن والصحاح على افتراض وجود إمام باللازم من هذا الحديث الشريف: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية».

وقد قامت الدلائل على إمامة موسى بن جعفر من مصادرها كافة، ولم تكن مقتصرة على أولياء أهل البيت، وإنما نصّ عليه المعتدلون كافة.

---

(١) الإربلي / كشف الغمة ٣/ ١٤.

(٢) محمد حسن آل ياسين / الإمام موسى بن جعفر / ٢٩ - ٣٠ / بتصرف جزئي.

(٣) المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ١٢ وانظر مصدره.

فقد روى القندوزي ـ على سبيل المثال ـ أنّ النبي ﷺ قد نصَّ في تسميته للأئمة، وفيهم موسى بن جعفر، وما نصَّ عليه من الأوصياء من بعده، ومنهم موسى بن جعفر الذي يدعى بالكاظم[1].

هذا بالإضافة إلى عشرات الأحاديث المستفيضة في النصوص المتوافرة على تعيين أئمة أهل البيت حصراً، وما سارت به الركبان من بشارته بذلك، ومنها ما أخرجه الحافظ أبو نعيم بسنده عن النبي ﷺ: «من سرّه أن يحيا حياتي، ويموت مماتي، ويسكن جنّة عدن غرسها ربي، فليوالِ علياً من بعدي، وليوالِ وليّه، وليقتدِ بالأئمة من بعدي، فإنهم عترتي، خلقوا من طِينتي، ورزقوا فهماً وعلماً، وويل للمكذّبين بفضلهم من أمتي، للقاطعين صلتي، لا أنالهم الله شفاعتي»[2].

وهذه اللمحات العابرة تكفي للاستدلال على ما نحن بصدده. أمّا التوسع في موضوع الإمامة كلامياً، وموقعها من النظام الإسلامي، فقد تكفّلت به بحوث سابقة أوردنا فيها رأي المسلمين[3].

أمّا الإمام موسى بن جعفر نفسه فقد قال لعلي بن صالح:

«إنّ الله لا يخلي أرضه من حجة طرفة عين أبداً، إمّا باطن وإمّا ظاهر، أنا حجّة الله وحجّته الباطنة... أنا المؤدّي الناطق عن الرسول... أنا موسى بن جعفر»[4].

ومهما يكن من أمر، فقد تسلّم الإمام قيادة الأمة، وهي قدره الإلهي من الله (تعالى)، في ظروف سياسية غائمة، وحياة عقلية مضطربة،

---

(١) القندوزي / ينابيع المودّة / ٤٤١ - ٤٤٣.

(٢) أبو نعيم / حلية الأولياء ١/ ٨٦.

(٣) ظ: المؤلف / موسوعة أهل البيت الحضارية / المجلد الخامس + الفكر الإمامي من النص حتى المرجعية.

(٤) ابن شهرآشوب / المناقب ٣/ ٤١٩.

تمثّل التقلّب السياسي والعقائدي المرير، فقد انقسمت الأمة على نفسها فئوياً ومذهبياً نتيجة التخطيط السياسي الحاكم، وانقسم أتباع أهل البيت أنفسهم، فكان الأمر يدور بين الإفراط والتفريط. وانقسم الحكّام أنفسهم فيما بينهم، فبين قائل بإبادة الأئمة واستئصالهم علناً، وبين من مهّد لذلك بالسجن والاستدعاء، وبين من فرض حدود الرقابة الصارمة، فكمت الأفواه، وخمدت الأنفاس، إلا أنّ الثورات الدموية من هنا وهناك بددت مناخ الصمت حيناً، واستبدلته بقعقعة اللجم واحتكاك الأسنة حيناً آخر، فنتج عن هذا وذاك ضبط وشماس، أدّى إلى الانكماش الاجتماعي من جهة، وإلى الانهيار النفسي من جهة أخرى. وعاش الإمام بين ذلك في رقابة ورصد واعتقال، ولكن صفحته هي البيضاء في نظر التأريخ، وقد انجلت عن واقع مؤثّر في الأحداث، فرغم المنظور الضيّق في التفكير والإرادة والتنفيذ لدى الطبقة الحاكمة، نجد الإمام منفتحاً في نظرته الشمولية إلى الأمة، والأمة في مناخ مرير لا تحسد عليه في البؤس والحزن والشقاء، حتى ليغيب الأمل المرتقب عن الميدان، وإذا بالإمام يتقدّم في خطواته المضادّة للاتجاه السلطوي، فينقذ الأمة من التدهور والضياع، ويرتفع بها تدريجياً إلى مستوى الحياة المليئة بالأمل والتفاؤل، فيقضي على التيّار التشاؤمي العارم لدى كثير من الأحاسيس والعواطف المغالية بالانكماش والكآبة، وهما داء قد استشرى في عصر الإمام حتى عاد داء العصر نتيجة إفرازات مغرقة في الحيف والعسف والاستبداد، فأدّى إلى التمزّق الداخلي في صفوف الأمة، فتداركه الإمام بقدراته الفائقة على التغيير، فأعاد للأمة الاستقرار النفسي المفقود بإذكائه الجذوة الكامنة في قرارة النفس الإنسانية، فأفاقت مستيقظة على هدير هذا الانبعاث الجديد الذي انتشلها من ذلك المستنقع الغارق بالتشاؤم والخمول والحزن السرمدي.

الإمام في مرآة التأريخ

كان اللمعان الفكري المتألّق في ذهنية الإمام موسى بن جعفر عليه السلام يضفي بأشعّته الغامرة في نقلةٍ للإنسانية عبر مواصفات مثالية في السلوك والأخـلاق والحياة والاجتماع، ولم تكن أفكار الإمـام في هذا المنحنى الفسيح غارقة في دنيا من المآثر الخارقة على سبيل التحدّي، وإنما هي امتداد موضوعي للعقل المفكّر الواهب، وثمرة فعلية للحسّ العملي الذي نهد به الفكر الإمامي من عهد أمير المؤمنين عليه السلام حتى قيادة موسى بن جعفر نفسه.

وكان هذا التخطيط المنهجي في ذلك المناخ المتفجّر الرهيب، قد أعطى نتائج مدهشة في الثبات الذي كاد أن يتلاشى ويذهب ضوؤه الخافت من الأعماق، وكان هذا الثبات مرتكزاً في الاتكاء على قاعدة صلبة تعنى بعودة الاستقرار النفسي بعد أن مني بالقلق والتمزّق والانفراط، وبذلك تحوّل المجتمع ـ رغم كل المعوّقات ـ إلى صورته الجديدة في الاعتداد بالشخصية بعد فقدان الأمل بالإصلاح والتوازن.

لقد كان الشعب المسلم يعاني من الغربة القاتلة في ظلّ الحكم العباسي

الجاثم بثقله على النفوس، وقد ينتابه شعور عارم رقيق أو كثيف بالكآبة المطبقة لما يشاهده من التدارك السفلي في القيم والاعتبارات والتعامل العام، وهي صفحات تحكي عن اللون القاتم المميّز للعصر بما أبقته لنا الوثائق المعتمدة، وما أملته النصوص التأريخية المفعمة بالمآسي كصورة حقيقية تتحدّث عن انحلال وانحطاط تلك الحقبة من الزمن الصعب، حتى لم يعد مسلم متحفّز جادّ ليتذوّق طعم الحياة.

وبالرغم من أنّ التأريخ ـ وهو يكتب بلغة رسمية ـ قد ناصب العداء لأئمة أهل البيت عن قصد وعمد، لأنّه بسبيل من إرضاء شهوة خلفاء الجور وولاة السوء الذين يضطربون اضطراباً عنيفاً لأية بادرة تؤكّد التماع ذلك الأفق الرفيع في حياة أئمة أهل البيت، إلا أنّ النصاعة لهذه الحياة في السيرة والسمت والعطاء قد أرغمت التأريخ على الإقرار بالنتائج المذهلة التي حقّقتها في الميدان الاجتماعي حين فضحت أساليب الزيف والدجل السياسي، وحين عصفت بتلك الكيانات الهزيلة وكشفت الأقنعة عن تلك الممارسات اللاإنسانية، وظهر من بين هذين ذلك الوجه المشرق للإمام موسى بن جعفر عليه السلام وهو يتزعّم تلك المهمّة الصعبة، في حين تمتنع مصادر الهوس الديني من التفوّه باسمه، فقد جذت الألسن عن الحديث حوله أو الإشارة إليه، فذلك من المحظور الذي لا يباح، ورغم هذه الضبابية وذلك التعتيم، رأينا الإمام موسى ابن جعفر عليه السلام يمثّل الألق الهادي لسنن الطريق، فكان النجم المتألّق شعاعاً ونوراً وقد عصف بالشبهات والانحرافات، في صراع مرير.

وكانت ألسنة الخطف هي أقلام الحقّ فيما وصف به الإمام، وكان التأريخ مع تجهّمه العابس للإمام قد أفلت منه كثير من الاعتراف والإقرار بالواقع المشهود، وتلك سمة خاصة بأئمة أهل البيت، فهم وإن كتم التأريخ

جلّ فضائلهم ومآثرهم، إلا أنّه ما استطاع أن يلوّح بمنقصة واحدة في أي معلم من معالم أي إمام، وما ذاك إلا لقرب الصلة مع الله (تعالى)، دون الاغترار بملحظ الرضا والغضب في المشاعر القابلة لخيانة الذمم واتّباع العاطفة أو المصلحة في كتابة التأريخ.

وتأسيساً على ما تقدّم، فقد وجدنا العزل السياسي للإمام موسى بن جعفر عليه السلام متقاطعاً مع الأضواء المتلألئة ليقظة التأريخ في التحدّث عنه، وهذا ما يفسّر تلك الإشارات الرائعة عن شخصية الإمام في سجلّ الخالدين، مما يعني أنّ التخطيط المتواصل لإقصاء أهل البيت سياسياً، لم يوفّق لاقصائهم فكراً، وأنّ البعد عن السلطة والحكم لم ينسحب طرداً ليعزلهم عن القيادة والتشريع، وأنّ السلطان الدنيوي لم يستطع ان يطوح بالسلطان الديني الماثل.

ولقد كان ما منح به التأريخ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام من السمات في المستوى الفكري والعلمي والعقلي والمعرفي والنفسي يفوق في مفرداته ما وصف به أساطين الإسلام وقادة الأمة، ومعنى هذا أنّ الإمام قد اقتطع هذا المنح اقتطاعاً عن ذمّة التأريخ بين كل الدواعي القاضية بإقصاء شبح الإمام عن الأفق سياسياً ومذهبياً.

لقد قال التأريخ بملء فيه أنّ الإمام عليه السلام:

«كان أجلّ الناس شأناً، وأعلاهم في الدين مكاناً، وأسخاهم بناناً، وأفصحهم لساناً، وأشجعهم جَناناً، قد خصّ بشرف الولاية، وحاز إرث النبوّة، وبوّأ محلّ الخلافة، سليل النبوّة، وعقيد الخلافة»[1].

والنظرة التحليلية لهذا النصّ تقضي باختفاء الأجواء الضبابية المحيطة بتأريخ الإمام، فهي تنتزع الصورة الحقيقية للإمام انتزاعاً، وهي تعنى

---

(١) ابن شهرآشوب / المناقب ٣/ ٤٣٧.

بالمنظور الصادق في الأداء والتعبير.

وليس بالإمكان التفرّغ لتدوين ما كتبه التأريخ عن الإمام بهذا الملحظ، فهو كثير جداً، وسبق إليه من تناول الموضوع، ولكنّي أقف منه موقفاً وسطاً، لا أتغافله ولا أستوعبه، وإنما هو شيء بين ذلك.

فقد قال ابن الصباغ أنّه: «الإمام الكبير القدر، والأوحد الحجّة الحبر»[1] وقال أيضاً: «وأما مناقبه وكراماته الظاهرة، وفضائله وصفاته الباهرة، فتشهد له بأنّه: افترع قبة الشرف وعلاها، وسما إلى أوج المزايا فبلغ أعلاها، وذللت له كواهل السيادة فامتطاها، وحكّم في غنائم المجد فاختار صفاياها، فاصطفاها»[2].

وقال أبو حاتم ـ واصفاً الإمام ـ بأنّه: «ثقة أمين صدوق»[3] وأضاف ابن تغري بردي أنّه: «كان سيداً، عالماً، فاضلاً، سنياً، جواداً، ممدحاً، مجاب الدعوة»[4].

وقال ابن تيمية: «موسى بن جعفر مشهور بالعبادة والنسك»[5].

وقال الشيخ المفيد: «وكان أبو الحسن موسى عليه السلام أعبد أهل زمانه، وأفقههم، وأسخاهم كفاً، وأكرمهم نفساً»[6].

ووصفه ابن طلحة الشافعي بأنّه: «الإمام الكبير القدر العظيم الشأن، المشهور بالكرامات»[7]. أمّا الذهبي فقد أجمل القول ـ تارة ـ بأنّه «الإمام

---

(١) ابن الصباغ المالكي / الفصول المهمة / ٢١٣.
(٢) المصدر نفسه / ٢١٤.
(٣) الذهبي / سير أعلام النبلاء ٦ / ٢٧٠.
(٤) ابن تغري بردي / النجوم الزاهرة ٢/ ١١٢.
(٥) ابن تيمية / منهاج السنّة ٢/ ١٢٤.
(٦) الشيخ المفيد / الإرشاد / ٣٣٢.
(٧) ابن طلحة / مطالب السؤول ٢/ ٦١.

القدوة»[1] وفصّل القول شيئاً ما بقوله: «كان موسى بن جعفر من أجواد الحكماء، ومن العبّاد الأتقياء، وله مشهد معروف ببغداد»[2].

وهنالك عشرات الشهادات في حقّ الإمام عليه السلام، سردها الأستاذ باقر شريف القرشي، وتطلب من مظانها للباحثين عن المزيد[3].

والتأريخ حينما يصوّر هذه اللقطات، فإنما ينزع إلى الموضوعية المحدودة بأقلام هؤلاء العلماء، وإلاّ ففضائله أسمى رفعةً، وأكثر عائدية، وأجلّ منزلة مما دوّنوه وأفادوه.

والذي بهرني حقاً أن أجد هارون الرشيد يغتصب نفسه اغتصاباً، فيدلي برأيه في الإمام ـ مضطرّاً ـ لولده المأمون، وقد دهش المأمون من احترام الرشيد للإمام وتقديمه وتعظيمه، قال هارون: «يا بني: هذا إمام الناس وحجّة الله على خلقه، وخليفته في عباده، أنا إمام الجماعة في الظاهر والغلبة والقهر، وإنّه والله لأحقّ بمقام رسول الله صلى الله عليه وآله منّي ومن الخلق جميعاً، والله لو نازعني في هذا الأمر لأخذت الذي فيه عيناه، فإن الملك عقيم...

يا بني: هذا وارث علم النبيين، هذا موسى بن جعفر، إن أردت العلم الصحيح تجده عند هذا»[4].

ولئن ذكر القدامى جزءاً يسيراً من ملامح الإمام القيادية والمرجعية. فقد أورد المحدثون شيئاً من ذلك. وقد أورده أغلبهم اقتضاباً، ومهما يكن من أمر، فإنّ ما ذكره القدامى والمحدثون يعتبر تبلوراً محدوداً التصق بمرآة التأريخ فحكى توهّجاً لامعاً في سيرة الإمام وآثاره.

قال الدكتور زكي مبارك من روّاد النهضة الحديثة في مصر: «كان موسى

---

(١) الذهبي / سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٧٠.

(٢) الذهبي / ميزان الاعتدال ٣/ ٢٠٩.

(٣) باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر ١/ ١٦٥ - ١٧٦.

(٤) القندوزي / ينابيع المودّة ٣/ ٣٢.

بن جعفر سيداً من سادات بني هاشم، وإماماً مقدّماً في العلم والدين»[١].

وقال الأستاذ خير الدين الزركلي: «موسى بن جعفر الصادق بن الباقر، أبو الحسن، سابع الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، كان من سادات بني هاشم، ومن أعبد أهل زمانه، وأحد كبار العلماء الأجواد»[٢].

وقال الدكتور عبد الجبّار الجومرد وزير الخارجية العراقية الأسبق:

«الإمام الكاظم... كان ذا تأريخ حافل بالزهد والورع والكرم ودماثة الخلق، وقد لقب بالكاظم لأنّه كان يحسن إلى من يسيء إليه»[٣].

وقال العلامة محمد أمين السويدي البغدادي:

«موسى الكاظم هو الإمام الكبير القدر، الكثير الخير، كان يقوم ليله ويصوم نهاره، وسمّي الكاظم لكثرة تجاوزه عن المعتدين»[٤].

وقال سيدنا الأستاذ السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي:

«موسى بن جعفر بن محمد: هو الإمام السابع المنصوص على إمامته من قبل أبيه وأجداده الطاهرين، سلام الله عليهم أجمعين»[٥].

وقال السيد محسن الأمين الحسيني العاملي:

«الإمام موسى الكاظم: روى عنه العلماء في فنون العلم من علم الدين وغيره، حاملاً بطون الدفاتر، وألفوا في ذلك المؤلفات الكثيرة المروية عنه بالأسانيد المتصلة: وكان يعرف بين الرواة بالعالم»[٦].

وقال السيد هاشم معروف الحسني:

---

(١) زكي مبارك / شرح زهر الآداب ١/ ١٣٢.

(٢) خير الدين الزركلي / الأعلام ٣/ ١٠٨.

(٣) عبد الجبار الجومرد / هارون الرشيد ١/ ١٧٧.

(٤) السويدي / سبائك الذهب / ٧٣.

(٥) السيد الخوئي / معجم رجال الحديث ١٩/ ٤٤.

(٦) الأمين الحسيني العاملي / أعيان الشيعة ٤/ ق ٣/ ٣٧.

«كان أبو الحسن موسى بن جعفر يتابع رسالة آبائه في نشر العلم والحديث والأخلاق والدفاع عن الإسلام، وروى عنه أصحابه آلاف الأحاديث في مختلف المواضيع... وقد روى عنه المحدّثون في مختلف أبواب الفقه وغيره من المواضيع الإسلامية أكثر مما رووه عن غيره ممن جاء بعده من أئمة أهل البيت»[١].

وقال الشيخ باقر شريف القرشي:

«الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، فذّ من أفذاذ العقل الإنساني، ومن كبار أئمة المسلمين، وأحد شموع ذلك الثقل الأكبر الذي أضاء الحياة الفكرية في الإسلام»[٢].

وقال الشيخ محمد حسن آل ياسين:

«نشأ الإمام موسى بن جعفر في حجر هذا الأب العظيم (الإمام الصادق) متفيّئاً ظلال شجرة النبوة ودوحة الإمامة، حيث اختار الله موضع الرسالة ومختلف الملائكة ومهبط الوحي، وحيث استقرّ ملتقى رافدي السماء والأرض، واجتمع الثقلان اللذان لن يفترقا حتى يردا الحوض: كتاب الله وعترة الرسول. فكانت نشأة متميّزة فذّة لا يتسنّى مثلها إلا لنظرائه من ذريّة النبيين وسلالة المرسلين، فإذا هو منذ صباه: بحرٌ موّاجٌ بالعلم، دفّاق بالمعرفة، زخّار بفقه الكتاب وحقائق الدين وأسرار الشريعة»[٣].

وبعد هذه الإضمامة من الأقوال العطرة الندية، أحسبني في غنى عن القول: إنّ الإمام موسى بن جعفر، أحد عمالقة الفكر الإنساني، والنموذج الأرقى لحضارة العقل البشري، شأنه بذلك شأن الأئمة المعصومين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

---

(١) هاشم معروف / سيرة الأئمة الاثني عشر ٢/ ٣٢٣.

(٢) باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر ١/ ٢٨.

(٣) محمد حسن آل ياسين / الإمام موسى بن جعفر / ١٨ - ١٩.

من خصائص الإمام

أ. المنظور المشترك في خصائص الأئمة

هنالك ملحظ جدير بالأهمية أنّ الأئمة عليهم السلام يشتركون بمميّزات فريدة، فلا يعني التأكيد على خصائص إمام منهم، نفي تلك الخصائص عن الآخرين، لأنّهم يصدرون عن نبع واحد، ويصبّون في روافد متقاربة المصادر، وكلها تتجاذب أطرافها من ذلك المورد الثر الذي أسال فيضه اللامتناهي جدّهم الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله. إلاّ أن لكل إمام سمات بارزة تلوح وكأنها من مآثره بخاصة. وما ذاك إلا نتيجة الظروف الموضوعية لشتّى الأحداث التي يحياها الإمام بكل تداعياتها وملابساتها، فيتّجه الإمام مبادراً للردّ العملي على الظواهر السلبية بظواهر إيجابية، وعلى التناقضات بالقصد والاعتدال. فحينما نرى الغضب والطيش والانتقام ضارباً أطنابه في المجتمع المسلم من قبل الطغاة، نجد الإمام يقابل ذلك بالحلم والأناة ورحابة الصدر، وحينما تكون أموال المسلمين مبذرة بالعبث والإسراف، وموارد الحياة مصادرة لترفيه الحاكمين والولاة، نجد الإمام مشاركاً للشعب المضطهد في رزقه وعيشه، فيناهض ذلك الاحتكار والاختلاس بظاهرة الكرم والسخاء تلبيةً للضروريات الملحّة في الإغاثة والإنقاذ، وحينما تكون

أوضار الجهل والضياع والتسيّب متفشيّة في المناخ الاجتماعي، نجد الإمام مشمّراً عن ساعديه في نشر العلم، وإذاعة المعارف، وبثّ الدعاة والمبلّغين للقضاء على مظاهر الأمية وحياة التخلّف.

وهكذا الأمر في بقية الظواهر المتجدّدة على الشعوب المغلوبة وهي تساس بالإرهاب والتسلّط الغاشم، فنجد الإمام ـ أيّ إمام لا على التعيين ـ ينهد بمسؤوليته القيادية لصدّ الاعتداء المتلاحق الأثيم على الحريات والحرمات والذمم؛ ومن هنا تبرز خصائص كل إمام قائمة بذاتها، تعبيراً عن الحالة المضادّة التي يعنى بمقاومتها، وإلاّ فالأئمة عليهم السلام في ميزان واحد راجح بالعطاء والبرّ والتقوى والعلم والمجاهدة والنضال، وينبغي لفت النظر بجدّية معمّقة إلى أنّ الظرف الاجتماعي في كثير من الأحيان قد يملي التكليف الشرعي على الإمام، فيؤدّي رسالته تبعاً لمسؤوليته، على الوجه الأتمّ.

ومن هنا رأينا أمير المؤمنين علياً عليه السلام: محارباً ومجاهداً، وزاهداً ومعرضاً عن السلطان، حتى جاءه الأمر يسعى إليه دون العمل من أجله، فنهض بمسؤوليته الشرعية لا تأخذه في الله لومة لائم، فكان النموذج الأرقى للخليفة الحاكم بأمر الله (تعالى). بينما نجد الإمام الحسن بن علي عليه السلام صابراً محتسباً مترصّداً، لأنّه رأى الغدر والخيانة تفتك بجيشه غير المقاتل، ونظر إلى الذمم وهي تشترى، وإلى الضمائر وهي تباع، فأعرض عن الحكم لتفاقم هذه الظواهر المعقّدة، وقد شكّلت خطراً متفاقماً، كاد أن يعصف بكيان الإسلام، فبادر إلى الصلح المشروط الذي ما وفى به عدوّه على رؤوس الأشهاد، وبذلك سجّل الإمام الحسن نصراً فعلياً على معاوية، بأنّه يغدر ويفجِر، وبأن من كان كذلك ليس أهلاً للإمامة الشرعية. في حين نلحظ الإمام الحسين بن علي سيد الشهداء عليه السلام يتّجه إلى الكفاح المسلّح

حينما رأى مسؤوليته تقتضي هذا الموقف. فأعلنها ثورة عارمة ضدَّ الظلم والاستبداد والانحراف العقائدي، فضحّى بنفسه وآله وصحابته، فكان مضرب المثل في الإباء والشمم والفداء والتضحية، وذهب شهيد عظمته على مذبح الحرية والوعي الديني، وهو وإن لم يحقق نصراً فعلياً في معركة الطفّ، ولكنه حقّق نصراً مستقبلياً قوّض فيه أركان الحكم الأموي، وأبقى جذوة النضال الديني متقدّة مع الأجيال، وظلّ رمزاً شاخصاً لكل عمل ثوري في تأريخ الإسلام. بينما نجد ولده الإمام زين العابدين عليه السلام وقد عاش مأساة الطفّ بكل مشاهدها الدامية، كان قد ادّرع الصبر لباساً، وأحيا ثبات الأبطال قائداً، وجدّد عهد الرسول الأعظم داعياً، وأعلن حقوق الإنسان مشرعاً، فعاد ما أثر عنه يفوق مقرّرات الأمم المتحدة، ومنظّمات حقوق الإنسان الدولية.

وكان الإمام محمد الباقر عليه السلام مؤسّساً لمدرسة أهل البيت في فروعها العلمية المتعدّدة، ومجدّداً للحضارة الإسلامية على رأس القرن الثاني من الهجرة، حينما كان الجهل مسيطراً على الحياة الاجتماعية، وحينما كانت الدعوات منحرفة عن النهج السوي، ونزغات النزق واللهو متحكّمة في ضمير الجيل الناشئ، فكانت ظاهرة العلم الرفيع الهادف يتزعّمها الإمام الباقر عليه السلام، مبتعداً عن مظاهر الزيف المعقّدة في الجهل والغرور والدجل السياسي، متحفّزاً لخلق جيل تتكافأ فرصه الثقافية بما يتناسب مع حمل الإسلام نظاماً وعقيدةً وحياة، فكان له ذلك.

وحينما تسلّم الإمام الصادق عليه السلام قيادة الأمة، بعد وفاة أبيه، عام (١١٤هـ)، اتّجه بالركب الحضاري ـ وقد رسخت أصوله ـ إلى مبدأ جديد من القيم العليا، في حين تتصارع الأحزاب ورجال المؤامرات في الساحة على استصفاء الملك والسلطان، إلا أنّ تجربة الإمام الصادق في السياسة

والحياة والاجتماع، حدّدت له في ضوء مسؤوليته الرسالية التكليف الشرعي في بناء صرح الإسلام على أسس رصينة لدى تنازع الأهواء، وتعدّد النِّحَل والمذاهب.

أما حين يلتمع في الأفق بريق السلاح، ويلتهب المناخ بالثورة إثر الثورة، ويقرع الحديد بالحديد، وتسفك الدماء بين أبناء الدين الواحد دون جدوى ودون أثر، وإذا بوريث النبوّة يحتفظ بالبقية الباقية من حَمَلَة الإسلام، ويشمر ساعديه لإعادة الدين غضّاً طرياً ندياً في مبادئه، فتلتفّ حوله الأطراف كافة، كما يلتف الورق حول الشجرة النضرة، فكان زعيم الجماعة الإسلامية علماً وعملاً وكياسة، كما كان زعيم مدرسة أهل البيت إصالة وموضوعية وازدهاراً.

حتى إذا تسلّم منصب الإمامة سيدنا ومولانا الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عند وفاة أبيه الصادق عام (١٤٨ هـ) وهو في العشرينات من العمر في ظلّ حكم إرهابي صارم، وسيف دموي قاطع عالج الأمر برويّة فائقة، وبظواهر مضادّة لتلك الممارسات اللاإنسانية، فضاقت به السلطات ذرعاً، وارتهن مغيّباً بين أطباق السجون وأقبية المعتقلات، ولم يمنعه ذلك من إرسال أشعّته النافذة إلى القلوب من خلال تلك الظواهر التي سنتحدث عنها إجمالاً.

ب. الورع والتقوى في ظاهرة إيجابية

وهي ميزة انفرد بها أئمة أهل البيت بأدقّ معانيها الهادئة، وتجلّت بنضائد تلك السيرة الزكية لأولئك الميامين الأبرار، والإمام موسى بن جعفر عليه السلام أحد النماذج الفضلى لهذا المنهج الدقيق، والورع لديه ظاهرة إيجابية وليست انهزامية، والتقوى لديه حقيقة ائتلافية وليست سلبية،

والتعامل مع الورع والتقوى منظور متطوّر لا يوازيه ذلك التهرّب من الواقع، ولا التخفّف من أعباء الحياة، وهما يمثّلان لدى الإمام حقيقة تأريخية في الاجتماع والاندماج مع الناس، ولأنهما مفهومان من مفاهيم الإسلام فهما يتأطّران بالصلاح والإصلاح ورباطة الجأش، وينزعان إلى الصلابة والإيثار والإيمان المطلق، نعم هما مرتبطان بذلك الوثاق النزيه الطاهر: خشية الله في السّر والعلن، والخوف منه في الشدّة والرخاء، وهما مظهران للعبودية الخالصة المطمئنة، ومن هذا الخلال وصف الإمام بأنّه أعبد أهل زمانه وأفقههم، وكان يصلّي نوافل الليل فيصلها بصلاة الصبح، فإذا طلعت الشمس خرّ ساجداً لله، ويقول في دعائه:

«اللهم إنّي أسألك الراحة عند الموت، والعفو عند الحساب».

ومن دعائه: «عظم الذنب من عبدك، فليحسن العفو من عندك».

وكان يبكي من خشية الله حتى تخضل لحيته بالدموع، وكان أوصل الناس لأهله ورحمه[١].

وكان يجازي المسيء بإحسانه إليه، ويقابل الجاني بعفوه عنه[٢]. وهذه ظواهر إيمانية إيجابية تمثّل الورع والتقوى في صور متعدّدة، وكان عمله يكشف عن هذه الحقيقة في ملامح من رياضة السلوك، تحتضن الزهد والتقشّف والدربة كما حدّث أخوه علي بن جعفر، قال: «خرجنا مع أخي موسى بن جعفر عليه السلام في أربع عُمَر يمشي فيها إلى مكة بعياله وأهله، واحدة منهنّ مشى فيها ستة وعشرين يوماً!! وأخرى خمسة وعشرين يوماً، وأخرى أربعة وعشرين يوماً!! وأخرى أحد عشر يوماً»[٣].

وفي هذا المسلك توطين للنفس على الشدائد، ورغبة ملحّة في

(١) ظ: الشيخ المفيد / الإرشاد / ٣٣٢.

(٢) ابن طلحة الشافعي / مطالب السؤول ٢/ ٦١.

(٣) المجلسي / بحار الأنوار ٤٨/ ١٠٠ وانظر مصدره.

تحصيل منازل الأولياء، وهو يسير على قدميه في طريقه إلى حرم الله تعالى.

أما إذ لحظت حياته الخاصة، فكان يقنع بالجشب من الطعام والخشن من الثياب، والإقلال من الأكل، والانشغال بالسنن والفروض.

وكان مع هذا العيش البسيط يلبّي نداء الاحتياج، ويقف مع الناس في الفرح والحزن، ويشاطرهم الأسى في البؤس والفقر، ويدفع بهم شوطاً كبيراً نحو الألفة والتوادد وحسن العشرة، وهو فيما بينهم كأحدهم في إصلاح ذات البين، وقضاء الحقوق، وحلّ الإشكال الاجتماعي.

جـ . حلم الإمام وكظمه للغيظ

وهذه مميزة أخرى اتّسم بها الإمام، وهي مرتبة في ترويض النفس لا ينالها إلا ذو حظّ عظيم، وقد كان حظّ الإمام منها الأوفر، ألا وهي الحلم وكظم الغيظ، وليس هذا شيئاً جديداً على الإمام فقد عرف به في أدوار حياته كلها، حتى أصبح ذلك شعاراً لاصقاً به، ولقباً يتسابق مع اسمه الشريف في العَلَمية عليه، حتى قال ابن أبي الحديد عنه «موسى بن جعفر بن محمد، هو العبد الصالح، جمع بين الفقه والدين والنسك والحلم والصبر»[١].

وللإمام في المشهد شواهد وأمثال وأحداث، ذكرها التأريخ في طيّاته، حتى عرف عنه أنّه يحسن لمن يسيء إليه، فقد ذكر السيد الأمين عن الخطيب البغدادي: «أنّ الإمام موسى بن جعفر كان يبلغه عن الرجل أنّه يؤذيه فيبعث إليه بصرّة فيها ألف دينار»[٢].

وحديث صرره في هذا الملحظ متواترة، حتى روى أبو الفرج بسنده عن يحيى بن الحسن، قال: (كان موسى بن جعفر إذا بلغه عن الرجل ما

---

(١) ابن أبي الحديد / شرح نهج البلاغة ٥/ ٢٩١.

(٢) الأمين الحسيني العاملي / أعيان الشيعة ٤/ ق ٣/ ٣٩.

يكره، بعث إليه بصرّة دنانير، وكانت صراره ما بين الثلاثمئة إلى المائتين إلى المائة دينار، وكانت صرار موسى مثلاً»[1].

والإمامعليه السلام يكظم غيظه عن أعدائه حتى يعودوا أولياءهُ، وعن مبغضيه حتى يكونوا أحبّاءه، وله في ذلك أخبار حسان.

قال الشيخ المفيد بسنده، وكذلك الخطيب البغدادي عن جدّه عن أصحابه: «أنّ رجلاً من ولد عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان بالمدينة يؤذي أبا الحسن موسى بن جعفرعليه السلام، ويسبّه إذا رآه، ويشتم علياًعليه السلام، فقال للإمام بعض جلسائه: دعنا نقتله، فنهاهم عن ذلك أشدّ النهي، وزجرهم أشدّ الزجر، وسأل عن العمري، فذكر له أنّه يزرع بناحية من نواحي المدينة. فركب إليه في مزرعته فوجده فيها، فدخل المزرعة بحماره... ونزل فجلس عنده، وضاحكه وقال له:

كم غرمت في زرعك هذا؟

قال: مائة دينار.

قال الإمام: فكم ترجو أن تصيب؟

قال: أنا لا أعلم الغيب.

قال الإمام: إنما قلت لك كم ترجو أن يجيئك فيه؟

قال: أرجو أن يجيئني مائتا دينار.

فأعطاه الإمام ثلاثمائة دينار، وقال: هذا زرعك على حاله، فقام العمري فقبّل رأسه، وسأله أن يصفح عن فارطه، فتبسّم إليه أبو الحسنعليه السلام وانصرف.

وذهب الإمام الكاظم إلى المسجد فوجد العمري جالساً، فلما نظر إلى الإمام، قال: «الله أعلم حيث يجعل رسالته».

---

(١) الأصبهاني / مقاتل الطالبيين / ٤٩٩.

فوثب أصحابه فقالوا له: ما قصّتك؟ قد كنت تقول خلاف هذا، قال: فخاصمهم وشاتمهم، وجعل يدعو لأبي الحسن موسى كلما دخل وخرج»[١].

ومن برامج حلم الإمام وكظمه للغيظ: مداراته للناس، وذلك ما يحتاج إلى رحابة صدر، وسعة أفق، وانفتاح نفس، وله في ذلك أمثلة نابضة، ولعلّ من أطرفها: «أنّه اجتاز بشرذمة وفيهم ابن هياج فأمر بعض أتباعه أن يتعلّق بلجام بغلة الإمام ويدّعيها، فمضى الرجل إلى الإمام، وتعلّق بلجام بغلته وادّعاها، فعرف الإمام غايته، فنزل عن بغلته، وأعطاها له[٢].

ومن أمثلة حلمه الرائعة ضمّ الحلم إلى الكرم، والتجاوز عن أصحاب السيئات، وقد روى الكليني عن معتب قال:

«كان أبو الحسن موسى عليه السلام في حائط له يصرم، فنظرت إلى غلام له قد أخذ كارة من تمر فرمى بها وراء الحائط، فأتيته فأخذته وذهبت به إليه، فقلت: جعلت فداك؛ إنّي وجدت هذا وهذه الكارة، فقال للغلام: فلان، قال: لبيّك، قال: أتجوع؟ قال: لا يا سيدي، قال: فتعرى؟ قال: لا يا سيدي، قال: فلأي شيء أخذت هذه؟ قال: اشتهيت ذلك. قال: اذهب فهي لك، وقال: خلّوا عنه»[٣].

وقد يكون الحلم وكرم الأخلاق عسيراً في اللحظات الحاسمة، وقد يخرج المرء عن طوره في الاتزان عند الحرج، ولكن الإمام في مثل هذا الموقع كان سيد الموقف، فقد روى ابن أبي الحديد المعتزلي:

«أنّ عبداً لموسى بن جعفر عليه السلام قدّم له صحفة فيها طعام حارٌ، فعجل فصبّها على رأسه ووجهه، فغضب فقال له:

(١) المفيد / الإرشاد / ٣٣٣ + الخطيب البغدادي / تأريخ بغداد ١٣ / ٢٨.
(٢) ظ: المجلسي / بحار الأنوار ٤٨/ .
(٣) الكليني / الكافي ٢ / ١٠٨.

﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ قال الإمام: قد كظمت.

قال: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ قال: قد عفوت.

قال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال: «أنت حرٌّ لوجه الله، وقد نحلتك ضيعتي الفلانية»[1].

وأنت ترى الإمام في هذه الشواهد يصدر عن نفس مندمجة في معايير جديدة من الحلم والكظم، فهو لا يكظم الغيظ فحسب، بل يتفضّل ويعفو ويجود، فيخلق جوّاً ندياً من المحبّة والألفة والسلام.

والإمام يقصد عامداً إلى هذا المنهج، فقد جمع أولاده وأوصاهم:

«يا بني؛ إنّي أوصيكم بوصية من حفظها انفتح بها، إذا أتاكم آتٍ، فأسمع أحدكم في الأذن اليمنى مكروهاً، ثم تحوّل إلى اليسرى فاعتذر لكم، وقال: إنّي لم أقل شيئاً فاقبلوا منه»[2].

والإمام في هذا كله ينطلق من مفهوم قرآني بعيد النظر، قوي الأسر، وهو يطبّقه فعلاً، ليدعم القول بالعمل.

قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[4].

ومن أولى من عدل القرآن بتطبيق مبادئ القرآن.

يضاف إلى هذا كله؛ أنّ الإمام يزيّن حلمه بالتواضع، وسيرته هذه بمكارم الأخلاق، وذلك مسلك عرفاني له شواهده عند الإمام.

أورد السيد الأمين عن تحف العقول: إنّ الإمام مرّ برجل من أهل

---

(١) محمد حسن آل ياسين / الإمام موسى بن جعفر / ٤٨ عن شرح النهج ١٨ / ٤٦.

(٢) ابن الصباغ / الفصول المهمة/ ٢٢٠، وقريب منه في كشف الغمة للإربلي ٣/ ٩.

(٣) سورة الأعراف / ١٩٩.

(٤) سورة فصلت / ٣٤.

السواد، دميم المنظر، فسلّم عليه ونزل عنده، وحادثه طويلاً، ثم عرض عليه نفسه في القيام بحاجته... فقيل للإمام: يا بن رسول الله، أتنزل إلى هذا؟ ثمّ تسأله عن حوائجه، وهو أحوج إليك؟

فقال: «عبد من عبيد الله، وأخ في كتاب الله، وجار في بلاد الله، يجمعنا وإيّاه خير الآباء آدم، وأفضل الأديان الإسلام، ولعلّ الدهر يرد من حاجتنا إليه، فيرانا بعد الزهو عليه متواضعين بين يديه»[1].

وهذا النحو من التواضع فيه نظرة فاحصة لأصول الأخوّة البشرية في ضوء إنسانية الإسلام، وفيه تلويح بأنّ بقاء الحال من المحال، فهذا الرجل المحتاج اليوم، قد يضطّر الآخرون لاحتياجه يوماً ما، وتلك نظرات قلّ من يدقّق فيها منفتحاً عليها كما صنع الإمام عليه السلام.

د. ظاهرة السخاء والكرم النفسي

نظر الإمام إلى سرف أبي جعفر المنصور، وسرف ولده المهدي، وتبذير موسى الهادي، ومجون هارون الرشيد، وهم يتناوبون على احتجان أموال المسلمين، ويمعنون بمصادرة أملاكهم، وحقوق الناس بأيدي الطغمة الحاكمة تدار بها الكؤوس وموائد القمار، ومجالس العبث واللهو، فكان الإمام بظاهرة سخائه يمثّل ردّة فعل لاستبداد العباسيين في بخلهم على الآخرين، وجشعهم المفرط في الاستيلاء على مصادر الغنى والثروة، فعمد إلى إنعاش الضعفاء، وإرفاد المحرومين، وإجراء الرزق على أهل الفاقة، فسارت الركبان بأنباء كرمه الفيّاض، وتحدّث الشعب المسلم عن أفضال هذا السخاء والعطاء. قال الشيخ المفيد: «وكان أوصل الناس لأهله ورحمه، وكان يتفقّد فقراء المدينة في الليل، فيحمل إليهم الزنبيل فيه العين والورق،

---

(١) محسن الأمين الحسيني العاملي / أعيان الشيعة ٤/ ق٣/ ٤١.

والأدقّة والتمور، فيوصل ذلك، ولا يعلمون من أي جهة هذا»[١].

وهذا منهج جديد في الإسرار بهذه الأعطيات، لتكون خالصة لوجهه الكريم، ولئلا يزري بالفقير فقره، وقد كفاه الإمام ذلك. ولم تكن بين الإمام والفقراء أية وساطة، وإنما هو معهم في قضاء حوائجهم وجهاً لوجه. فقد أورد الأستاذ باقر شريف القرشي: إنّ بعض الفقراء دخل على الإمام يسأله العطاء، فقال له الإمام: لو جعل لك التمني في الدنيا، ما كنت تتمنّى؟

قال: كنت أتمنّى أن أرزق التقيّة في ديني، وقضاء حقوق إخواني، فاستحسن الإمام جوابه، وأمر أن يعطى ألف دينار[٢].

وكان الإمام في كرمه يقابل الألطاف بالإحسان، والهدية بالعطاء الوفير، فقد أهدى إليه أحد العبيد في بعض أسفاره شيئاً من الألطاف فقبلها الإمام بقبول حسن، وسأل عن اسم العبد ومولاه، فوقف عليه.

فقال الإمام لمولاه: «غلامك فلان تبيعه؟ قال له: جعلت فداك؛ الغلام لك والضيعة، فاشترى أبو الحسن الضيعة والرقيق بألف دينار، وأعتق العبد، ووهب له الضيعة...»[٣].

وأمثلة كرم الإمام عديدة، وهدفها البرّ والإحسان، وطبيعتها إغاثة الملهوف، وإمدادها ذلك الحلال الخالص الذي ينتقيه الإمام من طيّب ماله وغلاّت مزارعه، وأراضيه الموروثة، وتلك موارد سليمة الأصل، وربما افتقرت أن يعمل الإمام بنفسه على إنمائها، وأن يتفقّدها بذاته من أجل إعمارها؛ وقد يستغرب هذا من الإمام مع توفّر مساعديه وغلمانه من جهة، ومع جلالة قدره وعظيم منزلته من جهة أخرى، ولكنه العمل الذي يوجّهنا

---

(١) الشيخ المفيد / الإرشاد / ٣٣٣.

(٢) باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر ١ / ١٥٤ وانظر مصدره.

(٣) ظ: الخطيب البغدادي / تأريخ بغداد / ١٣ / ٢٩-٣٠+ محمد حسن آل ياسين / الإمام موسى بن جعفر / ٥١.

نحوه، وليكون به قدوة تحتذى لأتباعه وأوليائه، فالعمل شرف لا يدانيه شرف. وعمل الإمام لا يقلّل من قيمته القيادية على الإطلاق، بل يقرّبه من النفوس الوادعة المطمئنة، ويعلي منزلته في أنظار ذوي الهمم العالية.

روى علي بن حمزة قال:

«رأيت أبا الحسن عليه السلام يعمل في أرض له، قد استنقعت قدماه في العرق، فقلت: جعلت فداك؛ أين الرجال؟

قال عليه السلام: يا علي؛ قد عمل باليد من خير منّي في أرضه.

فقلت: ومن هو؟

فقال عليه السلام: رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام وآبائي كلهم كانوا قد عملوا بأيديهم، وهو من عمل النبيين والمرسلين والأوصياء والصالحين»[(١)].

فإذا علمنا أنّ للإمام ضياعاً موروثة، وأنّ بعض المزارع كانت بحيازته بالإحياء لأراضيها، وأنّ قسماً منها تملّكها بالشراء، علمنا مصدر هذا الكرم، ومورد هذا السخاء الرهيف[(٢)].

يقول الأستاذ الشيخ محمد حسن آل ياسين:

«وكلمة يجب أن تسجّل هنا... تلك هي أنّ هذا الكرم الواسع الذي أصبحت صرره مضرب المثل، لم يكن بفضل ما يصل الإمام من الأموال الشرعية من أتباعه وشيعته في شرق الأرض وغربها، لأنّ إيصال تلك الأموال لمستحقّيها لا يعد كرماً وجوداً. وإنما تجسّد ذلك السخاء الثرّ والعطاء المغدق بسبب ما كان يصله من حاصل ضياعه ومزارعه التي دخلت في ملكه شراءً أو إرثاً من أسلافه»[(٣)].

وهنا نسجّل ظاهرة يردّدها المعنيون بسيرة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام

---

(١) الكليني / الكافي ٥/ ٧٥ + المجلسي / البحار ٤٨/ ١١٥.

(٢) ظ: الخطيب البغدادي / تأريخ بغداد ١٣/ ٢٨ + ياقوت / معجم البلدان ٥/ ٢٣.

(٣) محمد حسن آل ياسين / الإمام موسى بن جعفر / ٥١.

وهي ظاهرة صراره التي يضرب بها المثل حتى قيل:

«عجباً لمن جاءته صرّة موسى فشكا القلّة»[1].

ومعنى هذا أنّ في صراره الغنى والإغناء، وفي صلاته بها الكفاية والثراء، وإذا دقّقنا النظر في قيمة الدينار الذهبي في عصره عرفنا مدى قيمة صراره بالصلات بالمائة والمائتين والثلاث والأربع حتى الألف من الدنانير، فهي تسبّب لمن تصل إليه الغنى بحدود معينة، وللإمام في ذلك أخبار طريفة تقدّم بعضها في موقعها من الرسالة شاهداً أو نموذجاً.

قال الإربلي: «وذكر جماعة من أهل العلم أنّ أبا الحسن عليه السلام كان يصل بالمائتي دينار إلى الثلاثمائة دينار، وكانت صرار موسى عليه السلام مثلاً»[2].

ورُويَ عن محمد بن عبد الله البكري قال: «قدمت إلى المدينة أطلب ديناً فأعياني، فقلت: لو ذهبت إلى أبي الحسن عليه السلام فشكوت إليه، فأتيته... وسألني عن حاجتي فذكرت له قصّتي، فدخل ولم يقم إلا يسيراً حتى خرج إلي، فقال لغلامه: اذهب، ثم مدّ يده إليَّ فدفع إليَّ صرّة فيها ثلاثمائة دينار..»[3]

فإذا علمنا أنّ ثمن الدار في عصر الإمام أربعون ديناراً كما يقول المؤرّخون، عرفنا أنّ هذا المبلغ ضخم في حينه.

ومن النماذج الراقية لكرمه الفيّاض ما حدّث به عيسى بن محمد بن مغيث القرظي ـ وكان قد بلغ تسعين سنة حينما حدّث بهذا الحديث ـ قال: «زرعت بطيخاً وقُثاءً وقرعاً في موضعٍ بالجوانية على بئر يقال لها: «أم عظام» فلما بلغ الخير واستوى الزرع، بغتني الجراد فأتى على الزرع كله، وكنتُ قد غرمت على الزرع وفي ثمن جملين: مائة وعشرين ديناراً. فبينما أنا

(١) ظ: المجلسي / بحار الأنوار / ٤٨/ ١٠٤ و١٠٨.

(٢) الإربلي / كشف الغمة ٣/ ٢١.

(٣) المصدر نفسه ٣/ ٢٠.

جالس طلع موسى بن جعفر بن محمد، فسلّم ثم قال: إيش حالك؟ فقلتُ أصبحت كالصريم، بغتني الجراد فأكل زرعي، قال: وكم غرمت فيه؟ قلت: مائة وعشرين ديناراً مع ثمن الجملين، فقال: ياعرفة؛ زِنْ لأبي المغيث مائة وخمسين ديناراً...

فقلت: يا مبارك، ادخلْ وادعُ لي فيها، فدخل ودعا...

ثم علفت عليه الجملين وشيعته، فجعل الله فيها البركة، زكت فبعث منها بعشرة آلاف»[1].

وكان الإمام عليه السلام يتصدق بالمزارع والضياع والبساتين، ويوقف بعضها على ذريته من بعده، وقد جمع روايات ذلك وأشار إليه الأستاذ محمد حسن آل ياسين[2].

وهذا أيضاً يضاف إلى قاموس كرم الإمام وفيضه الزاخر. ولنا أن نتساءل عن هذه النفس الكريمة في العطاء والإيثار، كيف اندفعت هذا الاندفاع لإحياء النفوس، وبعث الأمل في القلوب البائسة والمنكوبة؟ والإجابة عن هذا لا تحتاج كثير تأمل أو طول تفكير، فما يصدر عن الإمام في هذا الصدد نابع من مفاهيم إنسانية عليا سبق لها آباؤه وأجداده، ولا حاجة بنا أن نذكر أن الإمام الحسن بن على أمير المؤمنين عليه السلام كان يوصف بأنه (كريم أهل البيت) وهذا أشهر من أن يذكر، ولا كبير جهد لدينا أن نعتبر هذا الجود الغامر من صميم المفردات الإنسانية التي طرحها الإمام بحيث اعتبر ذلك مثالاً لشجرة في الجنة فقال: (السخاء شجرة في الجنة، وأغصانها في الدنيا، فمن تعلق بغصين منها أدّته إلى الجنة. والبخل شجرة في النار، وأغصانها في الدنيا، من تعلق بغصن منها أدّته إلى النار)[3].

---

(١) الخطيب البغدادي / تأريخ بغداد ١٣ / ٢٩ + الذهبي / سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٧٢.

(٢) ظ: محمد حسن آل ياسين / الإمام موسى بن جعفر / ٥١ - ٥٢.

(٣) الشيخ المفيد / الاختصاص / ٢٥٢ - ٢٥٣.

الفصل الثاني

الإمام والمسيرة العلمية الرائدة

١ـ المدرسة الأولى.

٢ـ مصادر علم الإمام عليه السلام.

٣ـ سيرورة علم الإمام عليه السلام.

٤ـ تلامذة الإمام والتراث العلمي.

٥ـ تعليمات الإمام لتهذيب الشعب المسلم.

المدرسة الأولى

كانت جامعة أهل البيت عليهم السلام هي الأمل الباسم لصيانة التراث الإسلامي من الضياع، ومؤسّس هذه الجامعة هو أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام بما غرس من أصول معرفية ذات ارتباط عريق بالفيض النبوي الشامل، فالنبي مدينة العلم وعليٌّ بابها بإجماع المسلمين، وكان سيدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين يغذّيان أصول هذه الجامعة بما سمح لها العصر، وما وجدا إلى ذلك سبيلاً، وكان الإمام زين العابدين مشفقاً على هذه الجامعة من الانحلال والتدهور بعصر فقدت به مقاييس الفضيلة، ولكنه استطاع من خلال قيادته ومناداته بحقوق الإنسان، وسيل أدعيته الهادرة أن يضفي ظلال الاستقرار على المبادئ العامة للجامعة دون الإغراق بالتفصيلات الدقيقة.

حتى إذا أوشك القرن الأول الهجري على الغياب، التمع في الأفق ذلك الشهاب الثاقب الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام. فكان المجدّد الحقيقي لحضارة التشريع، وكان الرائد الصادق لمعارف الرسالة الإسلامية، بناءً

وتطويراً وإذاعةً ونشراً[1].

حتى إذا تسلّم الإمام جعفر بن محمد الصادق قيادة الأمة، كان زعيم مدرسة أهل البيت الريادية دون منازع، وبدأ التحرّر الإنساني في العقل يخطو خطوات رهيفة في الانفتاح على كل جديد، وبدأ الفكر المعرفي يتطلّع إلى المزيد من الثقافة العليا، وانحسر المدّ العلمي عن كوكبة من المعارف السائرة مع الزمن، فللتشريع أساطينه، وللفقه جهابذته، وللحديث رجاله، وللعلم التجريبي متخصّصوه، وللعلوم الإنسانية روّادها الأوائل، وللإبداع في النظر والفنون والحياة العقلية جمهرة من المتتبعين والعاملين بإخلاص وأمانة.

ولدى اضطلاع الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بالمسؤولية القيادية، نهد بصيانة هذا التراث الضخم، وعمل على إذاعته في الآفاق، وأصبح العلم الشاخص الذي ترنو له الأبصار والضمائر.

وكانت هذه المدرسة عالمية الدلالة، إنسانية العطاء، إسلامية المصادر، تتّسم بالعمق والأصالة، وتمتاز بالموسوعية النادرة، وكان من خصائصها الشمولية والاستيعاب لمفردات الحضارة الإسلامية، لا تجمد على مادة، ولا تقف عند موضوع، فهي متجدّدة الآراء، موضوعية النظرة، سليمة الأداء.

وكان من رصانتها الاجتماعية أنّها للإنسان بكل شرائحه المتعدّدة، وللمسلم المتحفّز بكل آثارها الراسخة، وهي بذلك تحقّق مبدأ الرسالة العامة التي لا تقتصر على موقع، ولا تتحدّد بإقليم، بعيدة عن الأثرة، قريبة من التفاعل الاجتماعي.

وإذا تدارسنا ببصيرة وإمعان مركز الإمام موسى بن جعفر عليه السلام من

---

(١) ظ: المؤلف / الإمام محمد الباقر / مجدّد الحضارة الإسلامية / مؤسسة العارف / بيروت / ٢٠٠٢م.

هذه المدرسة؛ رأيناه القائم على إدارتها واستمراريتها بعد أبيه، ووجدناه المشفق الحدب على إغناء هذه المدرسة وإثرائها، فكان العامل اليقظ على تطبيق أهدافها المركزية من جهة، والناشط الواعي في نمو حركتها من جهة أخرى، وقد حقّق ذلك بما عرف عنه بأنّه الرائد المتمرّس لمعالم التحضّر الإنساني، والقائد المجرّب في ميادين التجديد والإبداع.

ولم يكن الإمام مخلى السرب، آمن الجريرة، وليس لديه من النفوذ ما يجعله في وضع استقراري يحمد عليه، وليست له الحرية الكاملة في التحرّك والانطلاق، ومع هذا كله، لم تكن السجون والمعتقلات التي تعرّض لها، ولا موجات الإرهاب السياسي التي واجهها لتعيق مسيرة هذه المدرسة الصاعدة، لأنّ الكفاح في غمرات هذا المناخ كان متواصلاً على أية حال، حتى إنّ رسائله وإجاباته وفتاواه لتصدر عنه وهو في غياهب السجون، فيتلقّاها تلامذته وأولياؤه بالنشر والإذاعة وإبلاغ الناس.

ولم تكن الرقابة الصارمة لتحدّ من نشاط هذه المدرسة إلّا بحدود، وذلك أنّ الإمام قد غرس في كل دار منها نبتة طيبة تجد التربة الصالحة للازدهار والإثمار، فيتناولها تلامذته المقرّبون بكل حرص وأمانة، وهم أداة التبليغ الإسلامي الأمين.

إنّ معاناة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام كانت كفيلة بالقضاء على كيان هذه المدرسة، ولكن الشعلة ما كان لها أن تنطفئ، وقد خلق من حولها الرواة والمحدّثون والأعلام يذكون جذوتها، ويتابعون إيراءها وإيقادها، وهي تزدهر ما بين المغرب والمشرق. ومن هنا بلغت الذروة في العطاء السائر الذي يدان فيه للإمام عبر تطلّعاته في جعل العلم بديلاً لجاهلية النظام العباسي في كل ممارساته التي تدلّ على الجهل والضلال والزيغ المتعمّد، وكان ذلك خطراً داهماً على كيان الأمة يهدّدها بالدمار والبوار،

لولا أن يتداركها الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في ذلك التوجّه النابض.

يقول الأستاذ باقر شريف القرشي: «وكان من أهم ما عُني به الإمام موسى عليه السلام نشر الثقافة الإسلامية، وإشاعة المعارف العامة بين الناس، وقد عملت تعاليمه الرفيعة على تنمية العقول، وتثقيف الأفكار، وتقدّم المسلمين في الميادين العلمية... ونظراً لمركزه العلمي الخطير فقد شاع ذكره في البلاد، وتحدّث الركبان بوفرة مواهبه ومقدّراته العلمية، وقد دان شطر كبير من المسلمين بإمامته، وجعلوا مودّته، والأخذ بقوله، فرضاً من فروض الدين»[1].

وهنا يقترن الهدف الديني بالهدف العلمي، فتكون الحصيلة المزدوجة من اقترانهما: أنّ ما يبلّغ علمياً يصدر عن قناعة دينية، وبذلك يكتب لأي أثر في هذا المنظور السيرورة النافذة.

وكان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قد استشف من وراء الغيب أنّ حياته مهدّدة بالخطر سياسياً، وليس في مقدوره تغيير هذا المنحنى السياسي الطائش، فاتّجه إلى الرسالة العلمية مناضلاً في ميادينها كافة، والتزم الخطّ المنهجي لجامعة أهل البيت في تخطيطها البعيد، وهو يستشرف العالم الإسلامي في حركته العلمية الدائبة، فغذاها ـ أعني الجامعة ـ بفيض إمداده الذي لا ينضب، وتبنى الملتفّين حول أغصانها بأبوّة مانحة للتوجيه والنصح الكريم، وتلقّى هؤلاء هذا العطف المثالي بجدّ واجتهاد فما فرطوا في شيء، بل اهتبلوا الفرص المواتية ـ على شدّة الرقابة ـ للإفادة والإضاءة، وكان هذا الحافز الشريف، يسترعي نظر الإمام في العطاء، فكتب، وألّف، وحدّث، وأفتى، وناظر، وحاضر، فصان الجامعة بأبنائها الواثقين، ونشر مبادئها الكبرى في شتّى الممالك والأقاليم، فكانت قبلة

---

(١) باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر ١/ ٣٣.

الطالبين والسالكين معاً.

وعاد هذا التراث الهادي متوافراً لدى العلماء، وفي أيدي العاملين على إرفاد الثقافة الملتزمة، والصابرين على شدّة المحنة في التحرّي والرصد. ونجم عن هذا كله: خلود هذه المدرسة السيّارة بعطائها الجزل، وكيانها المستقلّ.

واستقلالية مدرسة أهل البيت حقيقة زمنية شاخصة، فهي لا تستمدّ كيانها من السلطات القائمة، وهي لا تسير بركاب الحاكمين، وهي لا تستعين بالقوّة لفرض سيطرتها على العقول، وهي لا تتوسّل بالمال على تعزيز نفوذها، وهي لا تلجأ إلى الأساليب الشائعة في العصر للتغلغل في ضمائر الناس، بل قامت على سجيتها، فطرية الأداء، عفوية الإرادة.

وكان دور الإمام موسى بن جعفر عليه السلام دور المجدّد والمطوّر لمبادئ هذه المدرسة بما أوتي من قوة عقلية وإدراك علمي متميّز، وبما استقى من معارف متسلسلة من ذلك الرافد الأساس الذي تفجّرت منه أمواج الثقافة عند أئمة أهل البيت عليهم السلام.

وعندما تتحقّق هذه الظواهر في أي أثر معرفي يكون الخلود السرمدي الرابض في صدر الحياة، وتكون الإفادة من تراثه الأثير في الموقع المتجدّد، وإذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك، فما علينا إلّا أن نتحدّث لماماً عن موارد هذا العلم ومصادره.

مصادر علم الإمام

هناك مسألة كبرى تشغل مساحة كبيرة من التساؤل، وتثير في طريقها جملة من الإشكاليات التي لا يستهان بها، وقد يبدو عليها الاستغراب حيناً، والاستبعاد حيناً آخر.

هذه المسألة تنحصر في مصادر علم الأئمة عليهم السلام. وتشكّل الإجابة عن هذه المسألة مشكلة معقّدة عند بعض الباحثين الذين يجهلون كنه حقائق الأشياء.

وما دمنا في هذا الصدد، فإنّ الموروث الاستقرائي هو الذي يجيب عن هذه الحقيقة باعتبارها أرفع مستوى عن الأوهام، فقد بحثنا من قبل موارد علم الإمام الصادق عليه السلام فكانت من منبعين، هما:

١. العلم التكسّبي الذي توارثه كل إمام عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله.
٢. العلم الموهبي الذي يرتبط بالله(تعالى) بما يفيضه من لدنه على الأئمة لإكمال متطلّبات الرسالة، باعتبار الإمامة امتداداً للنبوّة[1].

ونحاول استقراء لمحات من الموضوع، في ضوء مصادر علم الإمام

---

(١) ظ: المؤلف / الإمام جعفر الصادق / زعيم مدرسة أهل البيت / الباب الثاني الفصل الأول / موارد علم الإمام الصادق عليه السلام.

موسى بن جعفر عليه السلام، حيث نجد المبدأ ثابتاً بدلائله العلمية.

إنّ العلم الوراثي الذي احتضنه الإمام الكاظم عليه السلام مما تدّل عليه الآثار وتصرّح به الروايات الصادرة عن آبائه عليهم السلام:

وهذا النوع من العلم له مصدران هما الكتاب والسنّة ليس غير. وإذا كان الأمر كذلك، خرجنا من عهدة التساؤل والإثارة، فهو علم كسبي يتدارسه الإمام في ظلّ من كان قبله من الأئمة شفاهاً أو تدويناً أو روايةً، أو هي كلها، والإمام موسى بن جعفر تلميذ أبيه الإمام الصادق، والصادق تلميذ أبيه الإمام الباقر حتى ينتهي أمر ذلك إلى أمير المؤمنين، وعلم أمير المؤمنين فرع أثير من علم رسول الله صلى الله عليه وآله ما في ذلك من شكّ.

إذن نحن أمام مخزون مدّخر لكنوز العلم السائر مصدره، ذلك الباب الذي لا يوصد، وهو مبني إمّا على الرواية المتسلسلة حتى تتّصل برسول الله صلى الله عليه وآله وإمّا على أساس العلم التكسّبي الذي يتلقّاه الإمام من أبيه، وهكذا.

وكان الإمام أحمد بن حنبل زعيم الحنابلة شديد الإعجاب بما يرويه عن الإمام موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام، فيقول: «حدّثني موسى بن جعفر، قال: حدّثني أبي جعفر بن محمد، قال: حدّثني أبي محمد بن علي، قال: حدّثني أبي علي بن الحسين، قال: حدّثني أبي الحسين بن علي، قال: حدّثني أبي علي بن أبي طالب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله».

ثم قال أحمد بن حنبل بعد رواية هذا السند بالحرف الواحد: «هذا إسنادٌ لو قرئ على المجنون لأفاق»[1].

ومن كان هذا سنده في الرواية عرفت مصدر علمه الوراثي. لقد سأل خلف بن حماد الإمام موسى بن جعفر مسألة، فأجابه عليها، فقال له خلف: جعلت فداك؛ من يحسن هذا غيرك؟ فرفع الإمام موسى بن جعفر عليه السلام يده

(١) ابن شهرآشوب / المناقب ٣/ ٤٣١ - ٤٣٢.

إلى السماء، وقال: «إنّي والله ما أخبرك إلّا عن رسول الله عن جبرئيل عن الله (تعالى)»[1] وهناك ما هو أصرح من هذا في النظر إلى موقع علم الوراثة من علمه، قال ابن المغيرة: «كنت أنا ويحيى بن عبد الله بن الحسن عند أبي الحسن عليه السلام (يعني الإمام موسى بن جعفر) قال له يحيى: جعلت فداك، إنّهم يزعمون أنّك تعلم الغيب فقال:... لا والله؛ ما هي إلا وراثة عن رسول الله صلى الله عليه وآله»[2].

وهنالك إنباء آخر عن العلم الوراثي التدويني لديه عليه السلام، فقد سئل الحسين بن زيد عن معرفة الإمام موسى بن جعفر ببعض الغيب، فقال: «وكيف لا يعرفه، وعنده خط علي عليه السلام، وإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله»[3].

وهذا العلم غير خاضع للاجتهاد، وهو نصٌّ صريح مطلق، ولا مصدر له إلّا الكتاب والسنّة كما هو الواقع بما تفيده الآثار، فقد روى سماعة عن الإمام موسى بن جعفر، قال: قلت له: أكلُّ شيء في كتاب الله وسنّة نبيه صلى الله عليه وآله، أو تقولون فيه؟ قال: بل كل شيء في كتاب الله وسنّة نبيه صلى الله عليه وآله[4].

وبهذا يتّضح للباحث المحايد أنّ مصدر علم الإمام يستند إلى الركنين الأساسيين في التشريع: القرآن العظيم والسنَّة النبوية.

وكان انتظام هذا المصدر متجانساً مع طبيعة حياة الإمام الدراسية، فما تحدّث أحد أنّه درس على أحد، أو أخذ عن أحد، فليس له شيوخ أو أساتيذ كما هو شأن العلماء الآخرين، ولم يحضر في حلقة أستاذ، ولم يتخرّج في معهد ما، وإنما تخرّج في مدرسة أبيه ضمن التسلسل الإسنادي في الرواية والحديث والتفقّه العام، حتى أصبح قائد هذه المدرسة بعد حين.

---

(١) الكليني / الكافي ٣/ ٩٢ + البحار ٤٨ / ١١٣.
(٢) الشيخ المفيد / الأمالي / ١٣.
(٣) المجلسي / بحار الأنوار ٤٨/ ١٦٠ يرويه عن / الحميري / قرب الإسناد / ١٧٨.
(٤) الكليني / الكافي ١/ ٦٢.

ولا أدلّ على صحة هذا القول وواقعه من شهادة هارون الرشيد في حقّ الإمام، وهو يشير إليه فيما قاله لولده المأمون:

«يا بني؛ هذا وارث علم النبيين، هذا موسى بن جعفر بن محمد، إن أردت العلم الصحيح فعند هذا»[١].

وكان من العلم الصحيح الذي أشار إليه الرشيد، أنّ الإمام عليه السلام يؤكّد على الكتاب والسنّة فيما يتلقّى من العلم، ويدرأ الرأي والقياس في الإفتاء، فعن سماعة عنه عليه السلام قال: وسألته فقلت: إنّ أناساً من أصحابنا قد لقوا أباك وجدّك، وسمعوا منهما الحديث، فربما كان شيء يبتلى به بعض أصحابنا، وليس في ذلك عندهم شيء يفتيه، وعندهم ما يشبهه، يسعهم أن يأخذوا بالقياس؟

فقال: لا، إنما هلك من كان قبلكم بالقياس.

فقلت له: لِمَ لا يقبل ذلك؟

فقال: لأنه ليس من شيء إلّا وجاء في الكتاب والسنّة»[٢].

واتّساع السنّة، واستيعاب الكتاب كما يدور في الابتلاء العملي أو النظري للأمة، مما لا شكّ فيه، نعم قد يجهله من يجهل، وقد يعلمه من يعلم، وإنما علم الكتاب والسنّة عند أهله.

وقد أكّد الإمام هذا الملحظ في حديث آخر قال في آخره:

«.... أتى رسول الله الناس بما استغنوا به في عهده، وبما يكتفون به من بعده إلى يوم القيامة».

فقلت له: فضاع منه شيء؟ فقال: لا، هو عند أهله»[٣].

وهو بهذا يشير إلى وراثته لهذا العلم الذي انضوى عليه صدره. وبهذا

---

(١) ابن شهرآشوب / المناقب ٣/ ٤٢٦.

(٢) الشيخ المفيد / الاختصاص / ٢٨١.

(٣) المصدر نفسه / ٢٨٢.

يتجلّى لنا مصدر علم الإمام استقراءً وواقعاً.

يقول الأستاذ محمد حسن آل ياسين:

«وهكذا يتّضح أنّ كتاب الله وسنّة رسوله الأكرم ﷺ كانا هما المصدرين الحقيقيين الوحيدين حصراً وتعييناً لعلم الإمام الكاظم، ودائرة معارفه الكبرى الشاملة، وأنّ كل ما كان يحمله من فضل وفكر متفرّع منهما، وكان أبوه الإمام الصادق ـ وهو بحر العلم وينبوع المعرفة بإجماع المسلمين واتّفاق الباحثين ـ طريقه الأوحد إلى تناول ذلك كله، وأستاذه الأكبر الذي لم يعرف أستاذاً غيره، وقد تلقى من نميره المتدفّق صفو العطاء والرواء، فكانت حصيلة تلك الأستاذية المثلى وذلك الإرث العظيم بروز هذا الإنسان الملائكي الفريد، مجسّداً على الأرض بصورة الإمام موسى بن جعفر»[(١)].

وإننا إذ نثبت هذا الأصل، وهو ثابت بالدليل، فليس من قبيل التعصّب أو المبالغة، فلسنا منهما في شيء، وإنما هو البحث الموضوعي الخالص لا القول الجزاف، بل هناك ما هو صريح بالسنّة التدوينية لدى الإمام، وفيه ما يحتاج إليه الناس، بل فيه فوق هذا الانفتاح على مغاليق الأمور، وقد أكّد الإمام الصادق عليه السلام على هذا الملحظ بقوله:

«إنّ عندنا ما لا نحتاج معه إلى الناس، وإنّ الناس ليحتاجون إلينا، وإنّ عندنا كتاباً من إملاء رسول الله ﷺ وخطّ علي عليه السلام، صحيفة فيها كل حلال وحرام. وإنكم لتأتون بالأمر، فنعرف إذا أخذتم به، ونعرف إذا تركتموه»[(٢)].

وأما العلم الموهبي الذي أشار له البحث، فهو لطف إلهي بعيد عن

(١) محمد حسن آل ياسين / الإمام موسى بن جعفر / ١٠٣ - ١٠٤.
(٢) الكليني / الكافي ١/ ٢٤٢.

المزاعم الغالية، ولكنه فوق مدرسة الكسب والتعلّم التقليدي، وحقيقته نابعة فيما آتاه الله عباده المقرّبين في ضوء قوله (تعالى) ـ فيما اقتصّ من خبر موسى عليه السلام مع العالم الذي قد يعرف بالخضر ـ ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[1]. فهو علم لدنّي يهبه الله لمن يشاء من عباده الصدّيقين، وكان أئمة أهل البيت عليهم السلام من أبرز مصاديق هؤلاء العباد.

وهذا ما يفسر لنا قول الإمام موسى بن جعفر عليه السلام:

«مبلغ علمنا على ثلاثة وجوه: ماضٍ، وغابر، وحادث، فأما الماضي فمفسّر، وأما الغابر فمزبور، وأما الحادث فقذف في القلوب ونقر في الأسماع»[2].

وليس ما تحدّث عنه الإمام في الوجه الثالث وهو العلم الحادث، من العلم بالغيب اختصاصاً، ولكنه من علم الغيب إفاضةً أو إخباراً، فعلم الغيب بحدّ ذاته مما يختصّ به الله وحده، وهو بوصفه مما يختصّ به الله غيره باعتباره حالة ممكنة يخصّ بها الله من يشاء من رسله وأصفيائه ضمن قوله (تعالى):

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[3].

وهذا ليس من قبيل الوحي، ولكنه يتأتّى بوسائط تحدّث عنها الإمام، فالقذف في القلوب، والنقر في الأسماع، والإلهام اليقيني الخالص، كل أولئك من مفردات هذا العلم.

فعن علي بن يقطين، قال: قلت لأبي الحسن موسى عليه السلام:

«علم عالمكم؛ سماعٌ أم إلهام؟

---

(١) سورة الكهف / ٦٥.

(٢) الكليني / الكافي ١/ ٢٦٤.

(٣) سورة الجن / ٢٦ - ٢٧.

فقال: قد يكون سماعاً، ويكون إلهاماً، ويكونان معاً»[١].

وهذا ما يفسّر لنا تلك الإنباءات الغيبية المتواترة التي تحدّث عنها الإمام ببصر قاطع، وأخبر عن وقوعها فوقعت. فكتب الإمام إلى الرشيد: «يقول موسى بن جعفر: رسولي يأتيك يوم الجمعة، ويخبرك بما يرى، وستعلم غداً إذا جاثيتك بين يدي الله من الظالم والمعتدي على صاحبه».

فأخبر هارون بذلك فقال:

(إن لم يدّع النبوّة بعد أيام، فما أحسن حالنا).

فلمّا كان يوم الجمعة مات الإمام موسى بن جعفر عليه السلام[٢].

وكإخباره عن مدى بعض الأعمار، وما تبقّى منها، وما أزيد عليها، بلغة جادّة، فكان ذلك[٣].

وكالتماسه أن يدعو للمفضّل وهو في النزع الأخير، فأخبر بموته قائلاً: قد استراح[٤].

وكتعظيمه لأجر بيان بن نافع بأبيه، وإخباره بأنّه قبض في هذه الساعة، فبقي ابن نافع متحيّراً، حتى أتاه الخبر مطابقاً[٥].

وكإخباره بمن سيموت في سفره قبل أن يصل إلى أهله[٦].

وكإخباره بحضور أجل من وصل عمته فزيد في أجله عشرين[٧].

وكقوله عليه السلام لعبد الله بن يحيى الكاهلي:

«اعمل خيراً في سنتك هذه، فإنّ أجلك قد دنا».

---

(١) الشيخ المفيد / الاختصاص / ٢٨٦.

(٢) ابن شهرآشوب / المناقب ٣/ ٤٠٩.

(٣) ظ: المجلسي / البحار ٤٨/ ٦٨.

(٤) المصدر نفسه ٤٨/ ٧٢.

(٥) المصدر نفسه ٤٨/ ٧٢.

(٦) ظ: المجلسي / بحار الأنوار ٤٨/ ٣٦.

(٧) ظ: المجلسي / بحار الأنوار ٤٨/ ٣٦.

فما لبث إلاّ يسيراً حتى مات[١].

وكأمره الفوري لعثمان بن عيسى، وقد نزل هو ورفاقه في منزل، فأمره أن يخرجوا منه الساعة. فلما خرجوا انهارت الدار[٢].

وكقوله عليه السلام لإسحق بن عمّار:

«يا إسحاق تموت إلى سنتين، ويتشتّت أهلك وولدك، وعيالك، وأهل بيتك....»فكان كما أخبر[٣].

وكالخبر المستفيض المعروف بدرهم شطيطة، وهو درهم أرسلته هذه المرأة الصالحة حقاً شرعياً للإمام، وقد أخفاه المرسل بيده عن الإمام، ازدراءً بقلّة المبلغ وتواضعه، فطالبه الإمام بذلك الدرهم عينه، ووزنه درهم ودانقان، في الكيس الذي فيه أربعمائة درهم[٤].

وكان هذا كله رصداً لحقائق الأشياء بلمح غيبي لا سبيل معه إلى التردد والإنكار، فهو واقع بالفعل.

وقد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن الإمام يعلم الغيب؟

فقال: «لا، لكن إذا أراد أن يعلم الشيء، أعلمه الله»[٥].

وقد سئل الإمام موسى بن جعفر نفسه: أتعلمون الغيب؟

فقال: قال أبو جعفر عليه السلام: «يبسط لنا العلم فنعلم، ويقبض عنّا فلا نعلم». وقال: «سرّ الله عز وجل، أسرّه إلى جبرئيل، وأسرّه جبرئيل إلى محمد صلى الله عليه وآله وأسرّه محمد إلى من شاء»[٦].

---

(١) ظ: الكشّي / الرجال / ٢٨٠.

(٢) الحميري / قرب الإسناد ١/ ١٩٤.

(٣) الكليني / الكافي ١/ ٤٨٤.

(٤) ظ: المجلسي / البحار ٤٨/ ٧٤ وانظر مصدره.

(٥) الكليني / الكافي ١/ ٢٥٣، ١/ ٢٥٦.

(٦) الكليني / الكافي ١/ ٢٥٣، ١/ ٢٥٦.

وهذا الطرح الموضوعي للأئمة يوحي بصريح القول: أنّ علم الغيب خاصة إلهية، ولكن الله(تعالى) قد يفيض من هذا الرافد على رسوله، ورسوله يفيض على أهل بيته، وأهل بيته قد يتحدّثون بجزء منه بضرس قاطع، فينبئون عن الحدث المستقبلي بلغة الحتم.

وقد كان أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام دقيقاً في الردّ على من نسب إليه علم الغيب، فقال:

«ليس هو بعلم غيب، وإنما هو تعلّمٌ من ذي علم، وإنما علم الغيب علم الساعة، وما عدده الله بقوله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾[١].

وما سوى ذلك فعلم علّمه الله نبيه فعلّمنيه، ودعا لي أن يعيه صدري، وتفتطم عليه جوانحي»[٢].

والإمامية لا تستكثر إمداد العلم الموهبي لأئمة أهل البيت ويشاركهم في هذا ذوو النظر العقلي من أهل الإسلام، وأدلته في السيرة أكثر من أن تحصى، ولقد قال الإمام الصادق لعبد الله النجاشي: «والله إنّ فينا من ينكث في قلبه، وينقر في إذنه، وتصافحه الملائكة».

فقلت: اليوم، أو كان قبل اليوم؟

فقال الإمام: «اليوم والله يا بن النجاشي»[٣].

ولا أدلّ على هذا من خوف الجبابرة وهلع الطغاة من هذه الظاهرة، فهم يتحسّسون منها، وترتعد لها فرائصهم، فقد تتحدّث عن مستقبلهم، وقد تكشف عما خبّأ الدهر لهم.

---

(١) سورة لقمان / ٣٤.

(٢) محمد عبده / شرح نهج البلاغة / ٢٣٩/ طبعة دار الأندلس / بيروت.

(٣) الإربلي / كشف الغمة ٢/ ٤١٦.

وقد يبدأ الإمام ذلك كما أخبر المأمون بأنّه سيلي الخلافة[١].

ولا برهان على حقيقة هذا الأمر مما أكّده الدينوري في روايته:

إنّ الرشيد قال يوماً للأصمعي، وهو يحدثه عن ولديه الأمين والمأمون: «كيف بكم؟ إذا ظهر تعاديهما، وبدا تباغضهما، ووقع بأسهما بينهما؟ حتى تسفك الدماء، ويودّ كثير من الأحياء أنهم كانوا موتى».

فسألنا الأصمعي:... هذا شيء قضى به المنجمون عند مولدهما، أو شيء أثرته العلماء في أمرهما؟

قال الرشيد: بل شيء أثرته العلماء عن الأوصياء عن الأنبياء في أمرهما.

قال الرواة: «فكان المأمون يقول في خلافته: قد كان الرشيد سمع جميع ما جرى بيننا من موسى بن جعفر بن محمد، فلذلك قال ما قال»[٢].

وسواء استجاب أعداء الإمام لهذا النوع من العلم الذي تحدّث به القرآن فيما اقتصّ من نبأ موسى مع العالم، وصفة هذا العالم بأنه عُلّم من الله علماً، أم لم يستجيبوا، فقد ألمحت إلى نماذج من لمحات هذا العلم في ضوء ما نطقت به الوثائق التأريخية.

ومهما يكن من أمر؛ فإنّ الإمام موسى بن جعفر في علمه الوراثي واللّدنّي قد بلغ الغاية القصوى، فما سئل إلا أجاب، وما حدّث إلا استوفى، وما أنبأ إلا كان، وما قال إلاّ صدق.

وكان سبيل انتشار علمه وجوده الشريف مباشرة قبل اعتقاله، فهو يدلي به لروّاد المعرفة وقادة الفكر العلمي. وكان سبيل انتشاره بعد اعتقاله، تلامذته المقرّبون، وما صدر عنه من رسائل وإجابات وهو في غياهب السجون. وقد ظهر من هذين ما طبّق الخافقين.

---

(١) ظ: المجلسي / بحار الأنوار ٤٨/ ١٣١ وانظر مصدره.

(٢) الدينوري / الأخبار الطوال / ٣٨٩.

سيرورة علم الإمام

نهض الإمام موسى بين جعفر عليه السلام بأعباء الإمامة في ريعان الشباب وعنفوان الفتوّة، وعمره عشرون عاماً. ورغم الظروف القاتلة للتحرك، والليالي الحالكة التي قضاها في السجون، فإنّ المهمة الأساسية لديه هي «تعليم الإنسان» وهذا التعليم الإنساني له أبعاده في آفاق متعدّدة من الهداية والتشريع والمعارف الإنسانية بمفرداتها الهائلة، وكل هذه الآثار كانت تدور في فكر الإمام، فيجسّدها بأطاريح تعبّر عن آرائه المتميّزة، وهي تعبّر عن الفكر الإسلامي ليس غير.

وقد بدأ المدّ الإسلامي العقلي بالانحسار نتيجة السياسة المترفة والحياة اللاهية التي انتهجها الطغاة، فكان على الإمام التصدّي للمفاهيم والنظريات الجديدة التي تسرّبت إلى البيئة العربية جراء هذا التلاقح الحضاري بين الأمم والشعوب، وكان عليه أن يرصد ذلك بحذر ويقظة وإعداد، من أجل الحفاظ على جوهر الإسلام، وكانت المبادئ والنظريات الوافدة تشكل محوراً جديداً فيه كثير من الأخطار، وفيه كثير من التحدّيات، وفيه كثير من الإضافة المعرفية أيضاً.

وبدأ الإمام في تصدّيه لهذه الظواهر، فدرأ منها ما رآه يصطدم بتعاليم السماء، وأقرّ منها الأفكار التي تحمل سمة التقاليد العريقة للحضارات بحيث يرى مداليلها الموروثة تصبّ في روافد معرفية لا تتعارض مع مفاهيم الإسلام في رسالته الإنسانية. وكل حرصه أن لا يُهمَّش دور التراث الإسلامي في بناء الحياة العقلية الجديدة كما سترى هذا في الفصل القادم مفصّلاً.

وقد مهّد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بذهنه الوقّاد المتفجّر، بين يدي تلك الإمدادات الداعية إلى إحياء التراث التشريعي في الإسلام، ورفد القيم الدينية وتطويرها وإغنائها بالعناصر النابعة من صميم العقيدة لا من خارجها، وهو بذلك يوحّد الفكر الإنساني في ملامح متأصّلة في خضمّ التيارات الكبرى المتصارعة.

وكانت ثقافة الإمام التكاملية ـ باعتباره قد أُعِدَّ إعداداً خاصاً ـ تفيض عبر صور مشرقة تحمل بين سماتها ألوان الأصالة والإبداع، فتشكّل ألقاً مذهلاً في استيحاء الفكر الإسلامي الخالص من مصادره الأولى، وهو يزخر برهافة عالية وحسٍّ مجرّد.

وكانت نقطة الانطلاق في هذا الخطِّ المحوري: التأكيد على تلقّي العلم الناهض، والتحصّن بسياجه المحكم، ومن ثمّ الشروع بتحقيق الهدف المركزي الذي يسعى إليه.

ولتطبيق هذا المبدأ كانت دعوة الإمام بادئ ذي بدء تتمثّل بتوجيهه النابض: «تَعَلَّمْ مِنَ العلم ما جَهلت، وَعلِّم الجاهل ما عَلِمت»[1].

وهذه الدعوة ترمي إلى هدف ذي شقّين رئيسيين في الإرادة: تعلّم ما تجهل، وتعليمُ من يَجهل، وتلك هي النظرة الشمولية التي تَدْرَأ الأنانية، وتدعو إلى السماح بانتشار العلم وضبطه ومدارسته وتعليمه.

---

(١) ابن شعبة / تحف العقول / ٢٩٤.

وقد ندب الإمام لهذه المهمة من يستمع إلى القول فيتّبع أحسنه، وأكّد طلب العلم، وعلّل فضيلة ذلك بقوله: «زاحموا العلماء في مجالسهم ولو حبواً على الركب، فإنّ الله يحيي القلوب الميتة بنور الحكمة، كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر»[١].

وهذا التشبيه التمثيلي الذي يسرّه الإمام الكاظم عليه السلام، صورة ناطقة حيّة تمثّل إحياء القلوب بنور الحكمة، كإحياء الأرض الميتة بوابل المطر، وهذا يقضي بأنّ الجاهل من الأموات، والمزاحم للعلماء من أجل الإفادة من الأحياء فعلاً.

ودخل على الإمام الحسن بن عبد الله وكان زاهداً، ومن أعبد أهل زمانه في المسجد، فأومأ إليه الإمام فأتاه، فقال له الإمام: يا أبا علي ما أحبّ إليَّ ما أنت عليه وأسرّني به، إلّا أنّه ليست لك معرفة، فاطلب المعرفة. فقال له: جُعِلتُ فداك، وما المعرفة؟ قال الإمام: اذهب تفقّه واطلب الحديث.

قال عمّن؟ قال الإمام: عن فقهاء المدينة، ثم اعرض الحديث عليّ...

ففعل، فدّله الإمام على ما يلزمه من المعرفة[٢].

وروى ابن حمدون في تذكرته:

قال موسى بن جعفر عليه السلام: وجدتُ علمَ الناس في أربع:

أولها: أن تعرف ربّك.

والثانية: أن تعرف ما صنع بك.

والثالثة: أن تعرف ما أراد منك.

والرابعة: أن تعرف ما يخرجك عن دينك.

وقد فسّر ابن حمدون هذه الأربع:

---

(١) المصدر نفسه / ٢٩٣.

(٢) ظ: الشيخ المفيد / الإرشاد / ٣٢٨.

الأولى: وجوب معرفة الله تعالى التي هي اللطف.

الثانية: معرفة ما صنع بك من النعم التي يتعيّن عليك لأجلها الشكر والعبادة.

الثالثة: أن تعرف ما أراد منك فيما أوجبه عليك، وندبك إلى فعله لتفعله على الحدّ الذي أراده منك، فتستحقّ بذلك الثواب.

الرابعة: أن تعرف الشيء الذي يخرجك عن طاعة الله فتجتنبه[١].

وبديهي أنّ الإمام قد أراد بهذا العلم ذلك العلم الروحي، وغايته أن ينبع من المعرفة الداخلية للإنسان، وهو العلم الإلهي الذي يقف بالإنسان على الحقيقة، فتصقل بها روحه، ويمسك بها عمله، ويتعلّق بأضوائها ضميره. فهو يتحدّث عن العلم ويريد غايته.

ولهذا نجد الإمام يحثّ على العلم، ويفضّله على العبادة الساذجة، فيقول: «فقيه واحد... أشدّ على إبليس من ألف عابد، لأنّ العابد همُّهُ نفسه فقط، والفقيه همُّهُ مع ذات نفسه ذات عباد الله وارضائهِ... ولذلك هو أفضل عند الله من ألف عابد، وألف ألف عابد»[٢].

ويعلّل الإمام قبول العمل مع العلم، وردّه مع الجهل، فيقول:

«قليل العمل من العالم مقبول مضاعف، وكثير العمل من أهل الهوى والجهل مردود»[٣].

وكان من غرر أقواله، وعجيب نصائحه، وبليغ وصاياه قوله: «محادثة العالم على المزابل خير من محادثة الجاهل على الزرابي»[٤].

والمزابل معروفة وهي مجتمع النفايات، والزرابي هي البُسط والفرش

(١) الإربلي / كشف الغمة ٣/ ٤٨.

(٢) محمد حسن آل ياسين / الإمام موسى بن جعفر / ١٠٧ عن الاحتجاج / ٢١٥.

(٣) الكليني / الكافي ١ / ١٧.

(٤) المصدر نفسه ١/ ٣٩.

الفاخرة، وإذا كانت الأولى رفضها العلم طبيعة ومنطقاً، فهي خير من الثانية مع إقبال النفس عليها.

وهدف الإمام في هذا التوجّه هو التوصّل إلى حقائق ناصعة ومرضية عند الله تعالى، لأنها الطريق الأمثل في استقراء المجهول. يقول الأستاذ محمد حسن آل ياسين:

«ولكي يكون العلم في جانبه الديني مَرضِيّاً عند الله تعالى، ومحقّقاً هدفه الكبير في تعزيز الإيمان وترسيخ الاعتقاد والابتعاد عمّا يسخط الله عزّ وجلّ، نهى الإمام عن الأخذ بالبدع، وحذّر أشدَّ التحذير من العمل بالرأي خلافاً لحكم الله ونصّ رسوله صلى الله عليه وآله وفي ذلك يقول مخاطباً بعض أصحابه:

«لا تكوننّ مبتدعاً، من نظر برأيهِ هَلك، ومَن تَرك أهل بيت نبيه صلى الله عليه وآله ضلَّ، ومن ترك كتاب الله وقول نبيه صلى الله عليه وآله كفر»[1].

ولمّا كان القياس في بعض حالاته ضرباً من ضروب الابتداع، ولوناً من ألوان الأخذ بالرأي، فقد نهى عليه السلام أصرح النهي عن العمل بالقياس في تقرير حكم النظير والمشابه إن لم تكن العلّة المشتركة منصوصة بصريح اللفظ.

وجاء في الرواية عن سَمَاعَة بن مهران أنّه قال للإمام: «إنّا نجتمع فنتذاكر ما عندنا، فلا يرد علينا شيء إلا وعندنا فيه شيء مسطر، وذلك مما أنعم الله به علينا بكم. ثم يَرِدُ علينا الشيء الصغير ليس عندنا فيه شيء، فينظر بعضنا إلى بعض، وعندنا ما يشبهه، فنقيس على أحسنه». فقال الإمام عليه السلام:

مالكم وللقياس!! إنما هلك من هلك قبلكم بالقياس[2]»[3].

وكان علم الإمام متنقّل الأفياء في موضوعات متعدّدة، ومفردات لا

(١) المصدر نفسه ١ / ٦٥.

(٢) الكليني / الكافي ١/ ٥٧.

(٣) محمد حسن آل ياسين / الإمام موسى بن جعفر / ١٠٨.

حصر لها، وقد اشتملت عليها المصادر المتخصّصة، وقد أوردت أحاديثه ورواياته واستنتاجاته وهي تزخر بالعطاء السمح الكثير، وكان أبرزها ما ضمّ الكتاب واحتوتهُ السنّة من الروائع، وقد تلقّاها الناس في شتّى القصبات والأقاليم فحدبوا على مدارستها.

وله شذرات ثمينة استخرجها من القرآن الكريم، تتجلّى بتفسيرها منزلة أهل البيت القيادية، وتؤكّد دور الولاية الكبرى في قبول الأعمال وتلقّي الحسنات، والإنابة إلى الله ﷻ .

ففي قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾[1].

قال الإمام: بغضنا[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾[3].

قال الإمام: «من أشرك في دمائنا»[4].

وفي قوله تعالى: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[5].

قال الإمام: «نحن نشهد للرسل على أممها»[6].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾[7].

قال الإمام: «هم عدونا أهل البيت، إذا سألوا عنّا قالوا ذلك.»[8].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[9].

---

(١) سورة البقرة / ٨١.
(٢) ابن شهر آشوب / المناقب ٣ / ٤٠٣.
(٣) سورة البقرة / ٨١.
(٤) ابن شهر آشوب / المناقب ٣/ ٤٠٣.
(٥) سورة آل عمران / ٥٣.
(٦) ابن شهر آشوب / المناقب ٣ / ٤٠٣.
(٧) سورة النحل / ٢٤.
(٨) ابن شهر آشوب ٣/ ٤٠٣.
(٩) سورة البقرة / ٥٧.

قال الإمام: «إنّ الله أعزّ وأمنع من أن يظلم، أو ينسب نفسه إلى الظلم، ولكن الله خلطنا بنفسه، فجعل ظلمنا ظلمه، وولايتنا ولايته»[١].

وفي قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾[٢].

قال الإمام: «الذين فجروا في حق الأئمة، واعتدوا عليهم»[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾[٤].

استدلّ فيهما الإمام على الرشيد بأنّ أبناء أمير المؤمنين هم أبناء رسول الله ﷺ من جهة أمهم فاطمة عليها السلام، فقال: «إنما ألحق عيسى بذراري الأنبياء من قبل مريم، وألحقنا بذراري الأنبياء من قبل فاطمة، لا من قبل علي عليه السلام».

فقال له الرشيد: أحسنت أحسنت يا موسى، زدني من قولهِ.

فقال الإمام: اجتمعت الأمة برّها وفاجرها، أنّ حديث النصراني حين دعاه النبي ﷺ إلى المباهلة، لم يكن في الكساء إلّا النبيُّ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، فقال تبارك وتعالى: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ﴾[٥].

فكان تأويل (أبناءنا) الحسن والحسين، و(نساءنا) فاطمة، و(أنفسنا) علي بن أبي طالب.

---

(١) ابن شهر آشوب / المناقب ٣ / ٤٠٤.

(٢) سورة المطفّفين / ٧.

(٣) ابن شهر آشوب / المناقب ٣ / ٤٠٤.

(٤) سورة الأنعام / ٨٤ – ٨٥.

(٥) سورة آل عمران / ٦١.

فقال الرشيد: أحسنت[1].

وفي هذا السياق أورد الإمام موسى بن جعفر عند المهدي العباسي، في قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾[2].

قال الإمام: إنّ الله تبارك وتعالى لما فتح على نبيه فدك وما ولاها، لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾[3]، فلم يدر رسول الله ﷺ من هم، فراجع في ذلك جبرئيل، وراجع جبرئيل عليه السلام ربّه، فأوحى الله إليه: أن ادفع فدك لفاطمة عليها السلام[4].

وفي مقام التحذير والإنذار اتّخذ الإمام سبيلاً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أورده الإمام رفيقاً تارة، وعنيفاً تارة أخرى، ليحقق أبعاد هذه الفريضة التي ابتعد عنها الناس، وهو يسير ذلك ـ مضافاً إلى التحذير ـ في سياق العبرة والموعظة، وله في هذا مواقف أغمض التأريخ عنها عيناً، وأضرب عن ذكرها صفحاً، وأكتفي منها بنموذج صريح صارخ، فيما أورده الشيخ المفيد بسنده: «فقد أدخل الإمام على الرشيد، فكان مما قاله الرشيد له حين أدخل عليه: ما هذه الدار؟

قال الإمام: هذه دار الفاسقين، قال الله تعالى:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾[5].

فقال له هارون: فدار من هي؟

---

(١) الشيخ المفيد / الاختصاص / ٥٦.

(٢) سورة الإسراء / ٢٦.

(٣) سورة الإسراء / ٢٦.

(٤) ظ: الكليني / الكافي ١/ ٥٤٣ + المجلسي / البحار: ٤٨ / ١٥٧.

(٥) سورة الأعراف / ١٤٦.

قال الإمام: هي لشيعتنا فترة ولغيرهم فتنة.

قال هارون: فما بال صاحب الدار لا يأخذها؟

فقال الإمام: أخذت منه عامرة، ولا يأخذها إلا معمورة.

قال هارون: أين شيعتك؟

فقرأ الإمام: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾[1].

قال هارون: فنحن كفّارٌ؟

قال الإمام: لا، ولكن كما قال الله:

﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾[2].

«فغضب عند ذلك الرشيد وغلظ عليه، فقد لقيه الإمام أبو الحسن عليه السلام بمثل هذه المقالة وما رهبه، وهذا خلاف قول من زعم أنه هرب منه من الخوف»[3].

وبهذه الشذرات النادرة نكتفي إيراداً لما فجّره الإمام موسى عليه السلام من طاقات قرآنية تهدي سواء السبيل فإذا وقفنا عند باب الفقه والأحكام تشريعاً وانتقاءً وإفاضة، فاجأنا ذلك البحر الخضمّ الذي استقت منه مصادر التشريع أحكامها في الفقه والحديث. وأبرزها: الكافي للكليني، ومن لا يحضره الفقيه للصدوق، والاستبصار والتهذيب للشيخ الطوسي، ووسائل الشيعة للحرّ العاملي، وسواها من كتب الفقه والحديث والاستدلال بما هو متوافر فيها من فتاوى وأحاديث وروايات، جعل لها القرآن شاهداً، واستخرج من آياته دليلاً، وذلك من باب النوادر التي لا يمكن أن تقدّر بثمن لأنها من الكنوز والذخائر النفيسة.

---

(١) سورة البينة / ١.

(٢) سورة ابراهيم / ٢٨.

(٣) الشيخ المفيد / الاختصاص / ٢٦٢.

«سئل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ما يقول العالم عَلَيْهِ السَّلَامُ في رجل قال: نذرت لله لأعتقنّ كل مملوك كان في رقِّي قديماً، وكان له جماعة من المماليك؟ فكان الجواب بخطّه عَلَيْهِ السَّلَامُ: ليعتقنّ من كان في ملكه من قبل ستة أشهر، والدليل على صحة ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾[1].

«والحديث ما ليس له ستة أشهر»[2].

وفي السياق نفسه، سئل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ما يقول العالم في رجل قال: والله لأتصدقنّ بمال كثير؛ فما يتصدّق؟

فأجاب الإمام بخطّه: إن كان الذي حلف من أرباب شياهٍ، فليتصدّق بأربع وثمانين شاة، وإن كان من أصحاب النعم، فليتصدّق بأربعة وثمانين بعيراً، وإن كان من أرباب الدراهم فليتصدّق بأربعة وثمانين درهماً، والدليل عليه قوله تعالى:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾[3].

فعدَّت مواطن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قبل نزول تلك الآية، فكانت أربعة وثمانين موطناً[4].

وسئل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ما يقول العالم في رجل نبش قبر ميّت، وقطع رأس الميّت وأخذ الكفن؟

فكان الجواب بخطّه: يقطع السارق لأخذ الكفن من وراء الحرز، ويلزم مائة دينار لقطع رأس الميّت، لأنّا جعلناه بمنزلة الجنين في بطن أمه قبل أن ينفخ فيه الروح[5]...

---

(١) سورة ياسين / ٣٩.
(٢) ظ: المجلسي / بحار الأنوار: ٤٨ / ٧٤ وانظر مصدره.
(٣) سورة التوبة / ٢٥.
(٤) ظ: ابن شهر آشوب / المناقب: ٣ / ٤١٠ - ٤١١.
(٥) ظ: المجلسي / بحار الأنوار: ٤٨ / ٧٥ وانظر مصدره.

وعن علي بن أبي حمزة، قال: كنا بمكة سنة من السنين، فأصاب الناس تلك السنة صاعقة كبيرة حتى مات من ذلك خلق كثير، فدخلت على أبي الحسن عليه السلام، فقال مبتدئاً من غير أن أسأله: يا علي ينبغي للغريق والمصعوق أن يتربّص به ثلاثاً إلى أن تجيء منه ريح تدلّ على موته.

قلت: جُعِلْتُ فداك، كأنك تخبرني أنْ دفن ناس كثير أحياء؟ قال: نعم، يا علي، قد دفن ناس كثير أحياء، وما ماتوا إلا في قبورهم»[١].

إنّ هذه الإجابات وهي سَمحَةٌ لا عَسِيرَ فيها، وواضحة لا إبهام بها، توحي بالمستوى العلمي لموازين الشريعة وأحكامها، وكانت استدلالاتها حجّة لا تقبل الريب أو الشك، وهي غيض من فيض.

يقول الأستاذ محمد حسن آل ياسين:

«ويظهر من بعض النصوص المأثورة عن الإمام أنّ هناك من كان يعترض عليه في أحكامه وفتاواه، فلا يجد مناصاً من إضافة شرح أو زيادة استدلال، لإقناع خصمه بصواب قوله وصحة فتواه». وقد أورد بعض النماذج على ذلك[٢].

ومن ذلك: أن أبا يوسف أمره الرشيد بسؤال الإمام. فقال للإمام: ما تقول في التظليل للمحرم؟

قال الإمام: لا يصلح.

قال أبو يوسف: فيضرب الخباء في الأرض ويدخل البيت؟

قال: نعم. قال: فما الفرق بين الموضعين؟

قال الإمام: ما تقول في الطامث أتقضي الصلاة؟

قال: لا.

---

(١) ابن شهر آشوب / المناقب ٣ / ٤١١.

(٢) محمد حسن آل ياسين / الإمام موسى بن جعفر / ١١٢.

قال الإمام: فتقضي الصوم؟ قال: نعم.

قال الإمام: ولِمَ؟ قال أبو يوسف: هكذا جاء.

قال الإمام: وهكذا جاء[1].

وقد دحض الإمام في إجابته هذه مبدأ القول بالقياس، كما أوضح بأنّ الأحكام توقيفية تؤخذ كما ورد بها النصّ، وأن لا اجتهاد في مقابل النصّ.

وعن علي بن يقطين، قال: سأل المهدي أبا الحسن عليه السلام عن الخمر هل هي محرّمة في كتاب الله عز وجل ؟ فإنّ الناس إنما يعرفون النهي عنها، ولا يعرفون التحريم لها.

فقال له أبو الحسن عليه السلام: بل هي محرّمة في كتاب الله عز وجل .

فقال له: في أي موضع هي محرّمة في كتاب الله عز وجل ؟ يا أبا الحسن.

فقال الإمام: قول الله عز وجل : ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ**﴾[2].

وأما الإثم فإنها الخمرة بعينها[3].

قال أبو علي الطبرسي (ت٥٤٨هـ) والإثم: قيل هو الذنوب والمعاصي عن الجبائي، وقيل الإثم ما دون الحدّ عن الفرّاء، وقيل: الإثم الخمر، وأنشد الأخفش:

شربت الإثــم حتى ضلّ عقلي

كـــذاك الإثــم تـفـعـلُ بالعقولِ

وقال الآخر:

---

(١) الطبرسي / الاحتجاج / ٢١٤.

(٢) سورة الأعراف / ٣٣.

(٣) الكليني / الكافي ٦ / ٤٠٦ + الحرّ العاملي / الوسائل ١٧ / ٢٤١.

نهانا رسول الله أن نقرب الخنا

وأن نشرب الإثم الذي يوجب الوزرا[1]

وقد ظهر مما تقدّم: أنّ الإثم لا يخلو من معنيين: إما أن يكون هو المعاصي والذنوب، والخمرة أحد مفرداتها وأبرز مصاديقها، وإما أن يكون هو الخمرة بعينها كما تدلّ عليه الرواية عن الإمام الكاظم، ويؤيده لغة واستعمالاً عند العرب الشاهدان الشعريان المتقدّمان، وعلى كلا المذهبين في المعنى، فالخمرة محرّمة بهذه الآية، إما لكونها أحد مصاديق الإثم، وإمّا لأنها الإثم ذاته، وإمّا بهما معاً[2].

ولم يكن علم الإمام مقتصراً على جانب معيّن، وإنما كان يعالج شتّى المواضيع بأسلوبه الرقيق، وبلغات متعدّدة؛ فقد كلّم الإمام غلاماً بالحبشية، وأمره، ونهاه، وأوصاه.... فعجب علي بن أبي حمزة من ذلك، فقال الإمام:

«لا تعجب، فما خفي عليك من أمر الإمام أعجب وأكثر، وما هذا من الإمام في علمه إلَّا كطير أخذ بمنقاره من البحر قطرة من ماء، أفترى الذي أخذ بمنقاره نقص من البحر شيئاً؟

قال: فإنّ الإمام بمنزلة البحر لا ينفد ما عنده، وعجائبه أكثر من ذلك، والطير حين أخذ من البحر قطرة بمنقاره لم ينقص من البحر شيئاً، كذلك العالم لا ينقصه علمه شيئاً، ولا تنفد عجائبه»[3].

إن هذه الظاهرة في التفوّق العلمي تمثّل ذاتية التحرك المعرفي لدى الإمام، حتى أنها جلبت انتباه السلاطين وهم لا يعبؤون بالعلم، ولكنهم تحلّقوا حول الإمام اختياراً، وهم أدرى الناس بكفايته العلمية، فقد روي أنّ

---

(١) الطبرسي / مجمع البيان: ٢ / ٤١٤.

(٢) ظ: المؤلف / نظرات معاصرة في القرآن الكريم / تحريم الخمر في القرآن / ٩٣.

(٣) المجلسي / بحار الأنوار: ٤٨ / ١٠١ عن قرب الأسناد / ١٩٤.

هارون الرشيد أنفذ إلى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فأحضره، فلما حضر عنده، قال إنّ الناس ينسبونكم يا بن فاطمة إلى علم النجوم، وإنّ معرفتكم بها معرفة جيدة، وفقهاء العامة يقولون: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إذا ذكرني أصحابي فاسكتوا، وإذا ذكروا القدر فاسكتوا، وإذا ذكروا النجوم فاسكتوا. وأمير المؤمنين علي عليه السلام كان أعلم الخلائق بعلم النجوم، وأولاده وذرّيته الذين يقول الشيعة بإمامتهم كانوا عارفين بها.

فقال له الكاظم (عليه السلام): هذا حديث ضعيف، وإسناده مطعون فيه، والله تبارك وتعالى قد مدح النجوم، ولولا أنّ النجوم صحيحة لما مدحها الله عزّ وجلّ ، والأنبياء عليهم السلام كانوا عالمين بها، وقد قال الله تعالى في حقّ إبراهيم الخليل (عليه السلام):

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾[1].

وقال في موضع آخر: ﴿ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴾[2].

فلو لم يكن عالماً بعلم النجوم ما نظر فيها، وقال: إنّي سقيم.

وإدريس عليه السلام كان أعلم أهل زمانه بالنجوم.

والله تعالى قد أقسم بمواقع النجوم: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾[3].

وقال في موضع: ﴿وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً﴾ إلى قوله: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾[4].

يعني بذلك اثني عشر برجاً، وسبعة سيارات، والذي يظهر بالليل والنهار بأمر الله عزّ وجلّ ، وبعد علم القرآن ما يكون أشرف من علم النجوم، وهو علم الأنبياء والأوصياء وورثة الأنبياء الذين قال الله عزّ وجلّ :

---

(١) سورة الأنعام / ٧٥.

(٢) سورة الصافات / ٨٨ – ٨٩.

(٣) سورة الواقعة / ٧٦.

(٤) سورة النازعات / ١ – ٥.

﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[١].

ونحن نعرف هذا العلم وما نذكره[٢].

وهذا الاتساع في الإدراك المعرفي لا يصدر إلَّا من تلك النجمة المختارة فيما وهبت من العلم الرفيع، وكما قال هو عليه السلام:

«إنّ الله لا يجعل حجّة في أرضه يسأل عن شيء، فيقول: لا أدري»[٣].

ولما كان الهدف العلمي معنياً بإصلاح الذات أولاً، كان اهتمام الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بالنفس الإنسانية وتهذيبها معلماً بارزاً من معالم تنمية الأخلاق وتقويمها لديه، فعمل على شحذ الهمم وصقلها، وحدب على معالجة ظواهر التخلّف الاجتماعي، وعني بالتربية الفاضلة المهذّبة، وأراد للإنسان حياة الصدق والإيثار، وحبّب إليه محاسبة نفسه، وموازنة عمله.

قال الإمام: «ليس منّا من لم يحاسب نفسه في كلِّ يوم، فإن عمل حسناً استزاد الله، وإن عمل شيئاً استغفر الله منه، وتاب إليه»[٤].

هذه المحاسبة أداة فاعلة في الازدياد من الخير، والعمل على ضبط النفس وصيانتها من السيئات، ولو ارتطم بها كان عليه الإنابة والاستغفار، وهذا كله من سيماء الصالحين.

ويضيف الإمام عليه السلام إلى هذا التوجّه خصائص أخرى ينبغي لأهل الخير الارتباط بها على الصعيد العملي فيقول: «التحدّث بنعم الله شكر، وترك ذلك كفر، فاربطوا نعم ربكم بالشكر، وحصّنوا أموالكم بالزكاة،

---

(١) سورة النحل / ١٦.
(٢) المجلسي / بحار الأنوار: ٤٨ / ١٤٥ - ١٤٦ وانظر مصدره.
(٣) الكليني / الكافي ١ / ٢٢٧.
(٤) المصدر نفسه: ٢ / ٤٥٣.

وادفعوا البلاء بالدعاء، فإنّ الدعاء جُنة تردّ البلاء وقد أبرم إبراماً»[١].

وندب الإمام إلى تعظيم أمر الخير، واجتناب قليل الذنب، وأشار إلى مراقبة النفس بخوف الله سراً، ودعا إلى مكارم أخرى بقوله: «لا تستكثروا كثير الخير، ولا تستقلّوا قليل الذنوب، فإنّ قليل الذنوب يجتمع حتى يصير كثيراً، وخافوا الله في السرّ حتى تعطوا من أنفسكم النَصَفَ، وسارعوا إلى طاعة الله، واصدقوا الحديث، وأدّوا الأمانة، فإنّ ذلك لكم، ولا تدخلوا فيما لا يحلّ لكم، فإنما ذلك عليكم»[٢].

وهذا المنطق الجزل منحى جديد في استباق الخير، والانتهاء عن الفكر، والإسراع في الطاعة، وحمل معالي الأمور شعاراً.

ونهى الإمام النفس عن الهوى، والنفس أثمن متاع ينبغي أن لا يفرط فيه جزافاً، ولا يلقى له القياد انحداراً، قال الإمام: «إتّقِ المرتقى السهل إذا كان منحدره وعراً»[٣].

والحديث هذا من غرر الأحاديث بلاغة ودلالة وإيجازاً.

ودعا الإمام إلى الموازنة في استقبال أيام العمر، فلا يستوي لدى الإنسان الأريب يوماه، ولا يستغلّ بيوم عمّا قبله، وليكن يومه خيراً من أمسه، وغده خيراً من يومه، لئلا يغبن.

قال الإمام: «من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان آخر يوميه شرّهما فهو ملعون، ومن لم يعرف الزيادة في نفسه فهو في النقصان، ومن كان إلى النقصان فالموت خيرٌ له من الحياة»[٤].

وكانت دعوة الإمام إلى التقوى تمثّل ملحظاً إيجابياً يتوصّل معه المرء

(١) ظ: باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر ١ / ٢٤٨.
(٢) الكليني / الكافي ٢ / ٤٥٧ - ٤٥٨.
(٣) المصدر نفسه ٢ / ٣٣٦.
(٤) الإربلي / كشف الغمة ٣ / ٤٦.

إلى الحقّ، فيقول:

«إتّقِ الله وقل الحقّ وإن كان فيه هلاكك، فإنّ فيه نجاتك. إتّقِ الله ودع الباطل وإن كان فيه نجاتك، فإنّ فيه هلاكك، إياك أن تمنع في طاعة الله فَتُنْفِقُ مِثْلَيهِ في معصية الله.

المؤمن مثل كفتي ميزان كلما زيد في إيمانه زيد في بلائه»[1].

وكان من أروع ما تحدّث به الإمام بياناً ودلالة واستقطاباً تلك النفحات الندية العطرة التي تختلج في جوانحه الحرّى، وهي تسترعي مشاعر الإنسان نحو أخيه الإنسان، وسعي المؤمن في قضاء حاجة أخيه المؤمن، ووقوف الأخ جنب أخيه في الله لدى الشدائد، ومتابعة الإحسان، ذلك كله في توجيهات رائعة المساس بصلب حياة الناس وتفجير طاقاتهم، وإعادة جزء من حقوقهم إليهم، مما أتاحه الله على أيدي الساعين إلى الخير.

قال الإمام: «إنّ لله عباداً في الأرض يسعون في قضاء حوائج الناس، هم الآمنون يوم القيامة، ومن أدخل على مؤمن سروراً أفرح الله قلبه يوم القيامة»[2].

أين نحن اليوم من هذه الحياة الحرّة الكريمة التي يدعو الإمام إلى الإلمام بها؟ وأين هو السعي الحثيث لقضاء حوائج الناس؟ وأين أصحاب الجاه والمال والسلطان عن هذه المعاني التي تنبع من الضمير في تلبية النداء الإنساني؟ وأين هم الراغبون بالأمن يوم القيامة؛ مساكين هؤلاء الذين تتاح لهم الفرص في إجراء المعروف وهم يتخلّفون عنه، وما الحياة إلا اصطناع الخيرات، والأيام دول.. ألا وازع من شعور وإحساس بالنفع الاجتماعي؟ ألا عودة بالغرائز إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة؟ ألا إصلاح لدخائل هذا الكائن

---

(١) الأمين الحسيني العاملي / أعيان الشيعة: ٤ / أول / ٥٩.

(٢) الكافي / الكليني: ٢ / ١٩٧.

التائه فيلجأ إلى موانئ الإيثار والعمل الصالح؟

يخيّل إلي أنّ الناس هم الناس في الأثرة والأنانية، يسعى أكثرهم إلى الشرّ والمكر، ويسعى القليل منهم إلى الخير والمعروف، وقليل أولئك الذين يعانون من أجل مصلحة الآخرين، ولكنهم الآمنون يوم القيامة.

وهنالك حديث ذو إسناد عالٍ يرويه العبد الصالح علي بن جعفر الصادق عن أخيه الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فيه التحذير كل التحذير من التقصير في قضاء حاجة المسلم لأخيه المسلم، وهو من مضامين الاختبار العملي لحقيقة ولاية أهل البيت، وهو محكّ الاتصال بهذه الولاية والفوز بها، وإلا فهو النهش في القبر من قبل أبشع ضروب الأفاعي حتى يوم القيامة.

يقول الإمام: «من أتاه أخوه المؤمن في حاجة فإنما هي رحمة من الله تبارك وتعالى ساقها إليه، فإن قبل ذلك فقد وصله بولايتنا، وهو موصول بولاية الله تبارك وتعالى، وإن ردّه عن حاجته وهو يقدر على قضائها سلّط الله عليه شجاعاً من نار ينهشه في قبره إلى يوم القيامة مغفوراً له أو معذّباً، فإن عَذَرَهُ الطالب كان أسوأ حالاً»[1].

وكان الإمام شديد الوطأة على الرافضين لاصطناع هذا المعروف المفترض، فهو ينذر ويحذّر، وهو ينبئ ويخبر، عسى أن تتّسع ذهنية أهل الحول والطول والفاعلية لاستقبال هذا التوجيه والتسديد.

قال الإمام: «من قصد إليه رجل من إخوانه مُستجيراً به في بعض أحواله فلم يُجرهُ وهو قادر، فقد قطع ولاية الله عز وجل »[2].

ولم ينسَ الإمام أن يتعاهد الناس بضروب التوجيه نحو الخير بكل طرقه ووسائله وأساليبه، وهو يريد للمسلم أن يتّسم بالرجولة والاستقلالية

---

(١) الشيخ المفيد / الاختصاص / ٢٥٠.

(٢) الكليني / الكافي ٢ / ٣٦٦.

والقرار، وأن لا يعيش ذنباً أوتبعاً، وأن لا يرى مذبذباً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فالإنسان موقف، والموقف سمة ذوي الإدراك العقلي في التمييز الدقيق بين الحقّ والباطل، وإفراز الخير عن الشرّ، في رؤية مركزية.

فعن الفضيل بن يونس الكاتب، قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر بن محمد عليهم السلام:

«أبلغْ خيراً، وقلْ خيراً، ولا تكوننّ إمعّة».

قلت: وما الأمعّة؟

قال الإمام: تقول أنا مع الناس، وأنا كواحد من الناس. إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله، قال:

«يا أيها الناس، إنهما نجدان، نجد خيرٍ ونجد شرٍّ، فما بال نجد الشرّ أحبّ إليكم من نجد الخير»[1].

ولقائل أن يقول ما علاقة هذا كله بسيرورة علم الإمام، وقد يكون الاعتراض وجيهاً، إلا أنّ نظرة فاحصة في المثل العليا التي يدعو إليها العلم، تفترض أنّ هذه الإنسانيات الصارخة من أهمّ أهداف ذلك العلم الذي يدعو إلى الحبّ والإخاء والسلام والمواساة، وهو ما رأيته في هذا الطرح، وكان استقبال النخبة الواعية لهذه المعطيات الخيّرة سبيلاً رائعاً إلى انتشار علم الإمام في الآفاق، وهذا ما يؤكّد عليه الإمام الرضا نجل الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، قال الإمام الرضا: «رحم الله عبداً أحيا أمرنا؛ فقيل له: وكيف يحيى أمركم؟ قال: يتعلّم علومنا ويعلّمها الناس، فإنّ الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا»[2].

أليس ما قدّمناه من محاسن الكلام؟ أليس كلامهم جزءاً من علومهم؟

(١) الشيخ المفيد / الاختصاص / ٣٤٣.

(٢) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ٣٠٧.

وإذا ودعت هذا الجانب من العطاء العلمي السمح، وأردت الوقوف على الحياة العقلية عند الإمام، فستجده عملاق النظر العقلي، وبكل الجدل الكلامي المفعم بروح الحضارة والتألّق الفكري، بما سيّره من مناظرات ومحاضرات ومحاورات تكفل بها الفصل القادم.

وإذا أردت طلائع الإصرار على إفاضة العلم في أحلك الظروف، فما عليك إلا الوقوف على تلك المراسلات والمكاتبات التي حرّرها الإمام عليه السلام سواء أكان في المدينة المنورة في ظل الرقابة والرصد السياسي، أم كان في محنة الإرهاب في قعر السجون والمعتقلات، فإنّ الظاهرة اللائحة في هذا الأثر أنّ الإمام كان على أهبة الاستعداد المتكامل للإجابة الناجعة.

يقول الأستاذ محمد حسن آل ياسين في هذا الشأن:

«لم يكن بإمكان السائلين والمستفهمين الراغبين في معرفة حكم الشرع ورأي الدين، أن يحضروا إلى المدينة لملاقاة الإمام وسماع ما يغنيهم به فيما يريدون معرفته والوقوف على وجه الصواب فيه، بل كان بين هؤلاء المؤمنين المنتشرين في أصقاع العالم الإسلامي من لا يجد وسيلة إلا مكاتبة الإمام للسؤال منه عمّا يخصّ شؤون دينه أو هموم دنياه ومشاكلها المستجدّة على الدوام، وكان الإمام يتلقّى تلك الكتب برحابة صدر، ويقرؤها بإمعان، ويحرّر لهم أجوبة ذلك كتابةً أيضاً[1]».

ويبدو من قراءة تلك المكاتبات والجوابات أنّ الإمام لم يكن يكتفي في بعض الأحيان بمجرّد الردّ على مورد السؤال وبيان الحكم الشرعي فيه، وإنما كان يتعدّى هذا الجانب بعد الإجابة عليه إلى التنبيه على أمور أخرى

---

(١) ظ: على سبيل المثال؛ الكليني / الكافي ٣ / ١٨ - ١٥٥ - ١٩٧ - ٣١٥ - ٣٢٦ - ٣٢٨ - ٣٣٠ - ٣٣٢ - ٣٤٠ - ٣٤٦ - ٣٨٠ - ٥١٠ - ٥٣٩.. الخ + المجلسي / بحار الأنوار: ٤٨ / ١٣٧ - ١٣٨ + المفيد / الإرشاد / ٣٣٠ - ٣٣١ - ٣٣٢ + المناقب ٣ / ٤٠٨ + الفصول المهمة / ٢١٨ - ٢١٩ + كشف الغمة ٣ / ١٦ - ١٧ - ١٨ وسواها.

ليست من صلب المطلب الذي حرّر الكتاب لأجله، ولكنها ذات مساس بصاحب الرسالة فيما يتعلّق بوهم فكري قد سقط فيه، أو شأن دنيوي قد جهله أو غفل عما ينطوي عليه من نتائج غير محمودة العاقبة..»[١].

وهنالك آثار تدلّ على هذا الملحظ بالإشارة إلى تنبيهات خارجة عن الموضوع داخلة فيه، فهي غيره وهي امتداد له[٢]. والذي يعنينا هذا الزخم الهائل من الإجابات التي تندفع بدقّة وإمعان لتعيد إلى الذهن ما رآه السيد أمير علي الهندي عندما تحدّث عن مدى الخسارة الكبرى التي مني بها العالم الإسلامي بوفاة الإمام جعفر الصادق عليه السلام، ولكنه استثنى بقوله:

«غير أنّ الحلقة العلمية ـ لحسن الطالع ـ لم تتوقّف بوفاته، إذ طفقت تزدهر برئاسة ابنه موسى، الملقّب بالكاظم».

لقد كان هذا الازدهار على يد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حقيقة علمية لا فرضية إعلامية، فعلى الرغم من كل المعوقات الجامحة التي مني بها عصره، وفي ظلّ جميع الإفرازات السياسية المضنية، رأينا عطاء الإمام حثيثاً في شموليته، مشرقاً في إنسانيته، متوسّعاً في ترامي أطرافه. وكان من التوفيق الإلهي واللمح الغيبي المتواصل أن نشأ في ظلّ الإمام ورعايته جيل عتيد من أعاظم تلامذته وطلابه في مرافقتهم إياه وملازمتهم له، فهم قد انتهلوا من نمير علمه العذب، وهم أيضاً قد بادروا إلى تسجيل ذلك في الآثار، مما أوجد حالة علمية تحدوها الرغبة الملحّة في إشاعة المعرفة الإنسانية، وتدفعهم النيّات الخالصة إلى تعميق ما حصلوا عليه من الثقافة التشريعية النقية، وتواكبهم الآمال المشرقة في تحصيل المعارف الإسلامية الجوهرية، وكان هذا الترويض قد حرمهم كثيراً من الامتيازات والحقوق في

---

(١) محمد حسن آل ياسين / الإمام موسى بن جعفر / ١٢٠.

(٢) ظ: تحف العقول / ٣٠٥ + الإرشاد للمفيد / ٣٢٩ + البحار ٤٨/ ١٣٧-١٣٨.

حياتهم السياسية، فلم ينعموا برفاه اقتصادي، ولم يحلموا بجاه اعتباري، ولم يحصلوا على مكسب إضافي، وكان العكس هو الصحيح، فالدولة لهم بالمرصاد، تتعقّب حركاتهم وسكناتهم، وتحتجن حقوقهم العامة والخاصة، وتصادر لهم كل حرية.

وبتعبير أوضح:

فإنّ تلامذة الإمام بالتفافهم حول علم أهل البيت عليهم السلام، قد اتّخذوا التضحية مبدأ، والحرمان شعاراً، لما سوف يتعرّضون له من النقمة والبؤس والشقاء، ولما سوف يطرأ على حياتهم واستقرارهم من جور وعسف، ولما سوف تتعرّض له حريتهم الشخصية من ملاحقة أجهزة القمع والإرهاب.

تلامذة الإمام والتراث العلمي

احتضن تلامذة الإمـام موسى بن جعفر عليه السلام خزانة التراث العلمي للإمام، ونهض هؤلاء التلامذة بعبء الرواية والتحديث والتأليف والتصنيف، وشرعوا بمهمّة التلقّي الحثيث لينهضوا بمهمّة الإبلاغ والتبليغ، وما عتموا أن أجادوا فنّي المدارسة والبحث، ومن ثمّ تخصّصت كل طائفة منهم بفنّ من الفنون الأساسية كان أبرزها: علوم القرآن، الحديث، الفقه، الأصول، الكلام، الغريب، المنطق، الفلسفة، والإنسانيات بعامة.

فكان منهم المفسّرون والمحدّثون والرواة وعلماء الأخبار، ورجال التشريع، وقادة الفكر الإمامي، وروّاد الثقافة الحرّة، وحماة التراث..

ولم تكن معارف الإمام لتفرض على الطلاب فرضاً في شيء من مفرداتها الموسوعية الضخمة، وإنما كانت حرية الاختيار من ألمع ملامحها، وإرادة التخصّص هي الحاكمة في المشروع العلمي، دون أية ضغوط أو إحراجات أو تعقيد، فالإكراه غير واردٍ على الإطلاق في فرض علم معيّن؛ نعم لا ريب أنّ علوم الشريعة أسماها منزلة، وأجداها عائدية، لأنها من سبل الهداية.

والظاهرة التي تلحظ في الاتجاه كثرة تلامذة الإمام، وتعدّد نزعاتهم

العلمية، والمنظور العام لهذه الظاهرة يؤكّد حقيقتين:

الأولى: تتمثّل بهذه الأعداد الهائلة لأولئك التلامذة مع وجود الصارف التعسّفي لازديادها، نظراً لإجراءات الضغط السياسي.

الثانية: تتمثّل بذلك المخزون الثقافي المدّخر وهو يفيض بالحرية والأكاديمية في مجالي التخصّص والبحث الطليق على حدّ سواء، وهذا ما نهضت به في بداية القرن العشرين الجامعات الرصينة في العالم، وإلاّ ما كان لدى الأثنيين والإغريقيين قبل المسيح عليه السلام، حينما كان بعض الفلاسفة يتنعّمون الهواء الطلق وهم يلقون دروسهم بحرية في حدود.

ولست أعلم مصدراً حديثياً أو روائياً من موسوعات الإمامية إلا وعرض لمئات الرواة والمحدّثين والعلماء من أصحاب الإمام وتلامذته، يضاف لذلك كتب التراجم والسيرة والفهارس والببلغرافيا[1].

يقول الأستاذ باقر شريف القرشي:

«لقد احتفى بالإمام ـ موسى بن جعفر عليه السلام ـ أثناء إقامته في يثرب جمع غفير من كبار العلماء ورواة الحديث ممن تتلمذ في جامعة أبيه الكبرى التي أنارت العقل الإنساني، وأطلقته من عقال الجهل، وقد أفاض عليهم الإمام الشيء الكثير من علومه ومعارفه المستمدّة من علم جدّه الرسول صلى الله عليه وآله، كما زوّد الفقه الإسلامي بطاقات كبيرة من آرائه...»[2].

وكان احتفاء هؤلاء التلامذة فيه كثير من الإعداد الحضاري، وكثير من الحرص المعرفي، وهناك نصّ ثمين في هذا السياق رواه ابن طاووس، والنصّ هذا يشير إلى: أنّ أصحاب الإمام وخواصه كانوا يحضرون مجلسه،

---

(١) ظ: على سبيل المثال: رجال الكشّي / رجال الطوسي / رجال النجاشي / مجمع الرجال / رجال بحر العلوم / رجال المامقاني / خلاصة العلامة / معجم رجال الحديث / فهرست ابن النديم.

(٢) باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر: ١ / ٣٣.

ومعهم في أكمامهم ألواح أبنوس لطاف، وأميال، فإذا نطق الإمام بكلمة، أو أفتى في نازلة، بادروا إلى تسجيل ذلك[١].

وتلامذة الإمام كتلامذة غيره من العظماء، ليسوا في سوية واحدة، وإنما تختلف مراتبهم في الضبط والعدالة والوثاقة، فمنهم الطبقة العليا الرفيعة المعبّر عنهم: بأصحاب الإجماع الذين أشار إليهم الشيخ الطوسي (ت ٦٦٠هـ) بقوله:

«إنّه اجتمع أصحابنا على تصديق ستة نفر من فقهاء الكاظم والرضا عليهما السلام، وهم: يونس بن عبد الرحمن، وصفوان بن يحيى بيّاع السابري، ومحمد بن أبي عمير، وعبد الله بن المغيرة، والحسن بن محبوب السراد، وأحمد بن محمد بن أبي نصر..»[٢].

ومنهم من هو دون ذلك، وهو ما تتكفّل بالإشارة إليه مصادر الجرح والتعديل عند الإمامية.

وهؤلاء أصحاب الإجماع يمتازون بأنّ لهم مؤلّفات وروايات تؤخذ بعين الرضا والتسليم لمضامينها. كما قيل: إنّ مراسيل ابن أبي عمير كمسانيد غيره من الثقات.

وقد ألف صفوان بن يحيى أكثر من ثلاثين مؤلفاً، وروى عن أربعين من تلامذة الإمام الصادق عليه السلام.

وألف يونس بن عبد الرحمن أكثر من ثلاثين مؤلفاً نصّ عليها آل ياسين[٣].

وألف عبد الله بن المغيرة الكوفي الخزّاز ثلاثين كتاباً، أبرزها: كتاب الزكاة، وكتاب الصلاة، وكتاب الفرائض، وكتاب الوضوء، وكتاب في

---

(١) أورده القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر: ١ / ١٠١ عن الأنوار البهيّة / ٩١.

(٢) ظ: ابن شهرآشوب / المناقب ٣ / ٤٣٨.

(٣) محمد حسن آل ياسين / الإمام موسى بن جعفر / ١٤٤.

أصناف الكلام[1].

أمّا الحسن بن محبوب السراد فمؤلّفاته كثيرة، وهو من ثقات أصحاب الإمامين موسى بن جعفر، وولده علي الرضا عليهما السلام[2].

ولأحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي عدة مؤلفات نصّ عليها ابن النديم[3].

يقول الأستاذ هاشم معروف الحسني بعد ذكره لهؤلاء الثقات: «هؤلاء الستة، وستة من أصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق، قد أجمع المحدّثون على تصديقهم والأخذ بمروياتهم، وهذا ما تعنيه تسميتهم بأصحاب الإجماع»[4].

والحديث عن ثقات الأصحاب قد يطول بنا، فهم من الكثرة بمكان، والذي يعنينا من هذا كله: أنّ هؤلاء فرادى ومجتمعين قد شكّلوا المحور الأساسي لنشر علم الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فنهد كلٌّ منهم بمهمته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً دون ملل أو كلل. فكانوا رجال المهمّات الصعبة كما يقال اليوم.

ولا نريد أن نؤكّد على هؤلاء فحسب، فقد كان من ثقاته: الحسن بن علي بن فضال الكوفي، وعثمان بن عيسى، وداود بن كثير الرقي، وعلي بن الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

ومن خواصّ أصحابه: علي بن يقطين، وأبو الصلت: عبد السلام الهروي، وإسماعيل بن مهران، وأحمد بن محمد الحلبي، وموسى بن بكير

---

(١) المرجع نفسه / ١٣٤.

(٢) ظ: هاشم معروف الحسني / سيرة الأئمة الاثني عشر ٢ / ٣٢٥.

(٣) ابن النديم / الفهرست / ٢٧٦.

(٤) هاشم معروف الحسني / سيرة الأئمة الاثني عشر ٢ / ٣٢٥.

الواسطي، وإبراهيم بن أبي البلاد الكوفي[١].

وقد تحدّث الأستاذ باقر شريف القرشي عن كوكبة أصحاب الإمام وتلامذته والرواة عنه من المشهورين شهرة مستفيضة في مائة وخمسين صفحة احتضنت تراجم ثلاثمائة وواحد وعشرين علماً من أعلامهم، بما يعدّ مرجعاً مهماً في معرفة أحوالهم، وتعداد مؤلّفاتهم، وبيان منزلة كل واحد منهم[٢].

وقد رصد الأستاذ محمد حسن آل ياسين مهمّات طائفة من هؤلاء المنفلين عن الإمام، وأكّد دورهم في التصنيف والتأليف،وتناول ضبطهم في تدوين الأمالي وتسجيل الأصول، فقال: «وأمر يجب أن يسجّل بفخر واعتزاز أنّ النوابغ والبارعين من حضّار مجلس الإمام وحلقة درسه، ومن المتلّقين الواعين الذين سمعوا منه وشافهوه، قد بادروا أولاً بأول إلى تسجيل تلك الأمالي والمسموعات في مدوّنات خصّصوها لهذا الغرض سمّاها بعضهم (الأصول) وربما أضافوا فيها إلى تلك المشافهة من الإمام الكاظم عليه السلام ما رووه مباشرةً أو إسناداً عن أئمة أهل البيت السابقين عليهم السلام، وكان منهم من بوّب تلك الروايات بحسب مطالبها وموضوعاتها، فجعل كل ما يتعلّق بموضوع منها في كتاب خاص مستقلّ باسمه ومحتواه»[٣].

ثم قدّم الأستاذ آل ياسين كشفاً ببلغرافياً دقيقاً للمؤلّفين من تلامذة الإمام عليه السلام وسجّل أسماء كتبهم وموضوعاتها، وأشار إلى المصادر التي ذكرتها، فكان عدد ما توصّل إليه: مائة وخمسة عشر مؤلفاً، تصل بعض أعداد مؤلّفات الواحد منهم إلى ثلاثين كتاباً، وتلك لعمري ثروة طائلة. كما أشار إلى الأحاديث التي جمعها أبو عمران موسى بن إبراهيم المروزي

(١) ظ: ابن شهرآشوب / المناقب ٣ / ٤٣٨.

(٢) ظ: باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر: ٢ / ٢٢٣ - ٣٧٤.

(٣) محمد حسن آل ياسين / الإمام موسى بن جعفر / ١٢٢.

مما سمعه من الإمام عليه السلام، ودوّنه عنه، ويعرف بـ«مسند الإمام موسى بن جعفر».

وقد وقف على نسخته المخطوطة في خزانة الكتب الظاهرية بدمشق، وعرّف بها في بحث تفصيلي في مجلته «البلاغ» الصادرة في الكاظمية: ١٣٩٦هـ[1].

وكان لتسجيل مرويّات الإمام من قبل طلابه النابهين وتدوينها في رسائل وكتب وأطاريح ـ حذر التلف والضياع والنسيان ـ أهمية كبرى ذات هدفين في سياق واحد، الأول: كونها سلاحاً معرفياً متميّزاً بكفايته العالية المتقدّمة يقضي فيه على الجهل والأمية والتخلّف.

والثاني: كونها عبارة عن وثائق مكتوبة عن الإمام مباشرة لها قيمتها التأريخية الدقيقة. وهما معاً مما تحتاج له مرحلة التدوين الموثّق للاحتفاظ بذخائر أهل البيت من مصادرها الأولى.

وللأمانة والتقدير؛ فللّه درّ تلك الصفوة المختارة في تحقيق هذه المهمّة الريادية بتلك الأجواء القاتمة، حتى ليعدّ عملهم هذا ثورة شعواء على التقاليد السياسية الموروثة في إلغاء دور أهل البيت في المجالات كافة. كما يعتبر هذا الجهد الجبّار حيوية نابضة جديدة في إحكام الروابط المصيرية الكبرى بين الإمام وتلامذته، بحيث تحوّلت تلقائياً إلى أواصر مثبتة من الحبّ والولاء والتفاني، فتشابكت العلاقات الأساسية بينهما بحيث عادا ممثّلين حقيقيين لتلك الثوابت الأخلاقية في وجه مشرق من الإخلاص والتضحية للمبادئ التي يحملها فكر أهل البيت في ميادين العقيدة والحياة، وبما يتطلّب ذلك الإخلاص وتلك التضحية من ثبات، وجرأة، وألم، وخوف، وقلق، ومداراة، وترقّب، وحرمان، ومأساة. وهذا سبيل النضال

(١) ظ: محمد حسن آل ياسين / الإمام موسى بن جعفر / ١٢٣ - ١٤٧.

المرير المعاكس لتيار الضغط والشر والإرهاب، وليس هو مجرّد أفكار عابرة تنام حيناً، وتستيقظ حيناً، ولكنه الاعتداد بالفكر المناوئ لحقائق الأشياء، وهو لذلك يحسب له ألف حساب وحساب من قبل السلطان.

ولك أن تقدّر مدى عناء هؤلاء العلماء من ملوك الزمان، ولك أن تتصوّر تلك التضحيات الضخام التي قدّموها من أجل إعلاء كلمة الله في الأرض، فهم بين هلع واضطراب من الولاة، وهم بين رقابة واستنفار من الأجهزة، بل حتى قذف ببعضهم إلى السجون.

فهذا محمد بن أبي عمير، وهو من أوثق الرواة، وتقدّم أنّ مراسليه بمنزلة الصحاح، وقد ألف أربعة وتسعين كتاباً في مختلف الفنون، فكان أحد أساطين الفقه والحديث[١].

وكان من عباد الله الصالحين، شديد الورع، معروفاً بالتقوى، ذا منزلة متميّزة في العابدين، مشتهراً بسجوده وتخنّثه حتى ضرب به المثل[٢].

ويبدو أنّ سجلاً خاصاً بأعيان أصحاب الإمام كان لديه، أو أنّه على معرفة بعلية القوم كما يقال، فأمر به الرشيد إلى السجن، وبقي في غياهبه سبعة عشر عاماً، وجيء به مكبّلاً بالقيود، فطلب إليه الرشيد أن يعرفه بأسماء الشيعة، فامتنع عن ذلك، فأمر به أن يضرب مائة سوط، فكاد أن يبوح بأسمائهم.

يقول هو نفسه: فكدت أن أبوح بأسمائهم، إلا أنني سمعت نداء يونس بن عبد الرحمن يقول لي: يا محمد بن أبي عمير؛ اذكر موقفك بين يدي الله، فتقوّيت بقوله، فصبرت، ولم أخبر، والحمد لله[٣]. ويبدو أنّ يونس بن عبد الرحمن كان معه في السجن، فناداه بذلك.

---

(١) ظ: النجاشي / الرجال / ٢٥٠ - ٢٥١.

(٢) ظ: الكشّي / الرجال / ٣٦٤.

(٣) المصدر نفسه / ٣٦٤.

وهذا هشام بن الحكم، وهو من أبرز علماء الكلام من الإمامية، وذو منزلة عليا عند الإمام الصادق وولده الكاظم عليهما السلام، وهو في الشرف الباذخ من التكريم والتجلّة لديهم، وله باع طويل في الاحتجاج لمبدأ الإمامة، ونصر فكر الأئمة في العقائد، وله من المؤلّفات العدد الأكثر كما ذكر ذلك ابن النديم والنجاشي[1].

وقد ذكر له القرشي ثلاثين كتاباً فيما تتبعه[2].

وقد عدّد آل ياسين من مؤلّفاته بأسمائها: اثنين وثلاثين كتاباً[3]. وقد قوبل بالجحود، ووجد عليه يحيى بن خالد البرمكي، فوشى به إلى الرشيد بأنّه يقول بالإمامة، وأنّ الإمام إذا أمره بأمر نفّذ ذلك.

ووقف الرشيد على هذا الأمر، واستمع إلى هشام يقول: «إن الإمام إذا أمره بحمل السيف، أذعن لأمره، ونفّذ طلبه».

فأمر الرشيد بإلقاء القبض عليه، فهرب هشام إلى الكوفة مستخفياً، ونزل على بشير النبّال، وكان من حملة الحديث، فأخفاه.

ثم اعتلّ علّة شديدة، والطلب عليه حثيث، فقال له آتيك بطبيب؟ قال: لا؛ أنا ميّت. ولما حضره الموت قال لبشير: إذا فرغت من جهازي، فاحملني وضعني في الكناسة، واكتب رقعة: هذا هشام بن الحكم الذي طلبه الرشيد مات حتف أنفه.

وكان الرشيد قد أخذ به إخوانه وأصحابه، فاعتقلهم؛ ونفّذ بشير الوصية، فحضر القضاة والمعدلون فشهدوا بذلك، وكتب به إلى الرشيد[4].

وهذا يونس بن عبد الله، كثر حسّاده وأعداؤه، لقوله بهذا الأمر، حتى

---

(١) ابن النديم / الفهرست / ٢٦٤ + النجاشي / الرجال / ٣٣٨.

(٢) ظ: باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر / ٢ / ٣٤٣.

(٣) ظ: محمد حسن آل ياسين / الإمام موسى بن جعفر / ١٤٢ - ١٤٣.

(٤) ظ: المجلسي / بحار الأنوار: ٤٨/ ٢٠٢ وانظر مصدره.

ضجر، وشكا ذلك إلى الإمام، وقال له: إنهم يقولون لي زنديق!! فنهنه الإمام عن وجده، وقال له: «ما يضرّك أن يكون في يدك لؤلؤة، فيقول الناس: هي حصاة. وما ينفعك أن يكون في يدك حصاة، فيقول الناس لؤلؤة»[1].

وكان سلاح الاتهام بالزندقة قد يشهر في وجوه أولياء أهل البيت ظلماً وعدواناً، فينكل بهم، ويعتدى عليهم.

كل هذا المناخ الجافّ البغيض لم يمنع أصحاب الإمام موسى بن جعفر من التوجّه إليه حتى وهو سجين، وكان من بينهم: هند بن الحجاج، وعلي بن سويد، والمسيّب بن زهرة الذي نيطت به حراسة الإمام، أو حبس عنده[2].

إلاّ أنّ الإمام هداه السبيل، فأصبح من أوليائه، ومن حملة أسرار الأئمة[3].

وكان من أبرز أصحابه الذين تشرّفوا بخدمته في سجن السندي: موسى بن إبراهيم المروزي. وقد سمح له السندي بالاتصال بالإمام، والاستماع إليه، لأنه كان معلماً لولده.

وقد قام موسى هذا بدور مشرّف حينما ألف كتاباً مما رواه عن الإمام مباشرة وسمّاه «مسند الإمام موسى بن جعفر»[4]. وقد سبق الحديث عنه.

وهكذا تابع تلامذة الإمام أستاذهم الأعظم، ونشروا علمه بين الناس، واستخدموا الوسائل المشروعة لإذاعته، حتى بلغوا بهذه الغاية الذروة، بما قضى على الجمود والإخفاق المعرفي، وبما حرّر تلك الأحاسيس الكئيبة ـ نتيجة ظلم العصر ـ وأطلق منها بالثقافة الواعية.

---

(١) الكشّي / الرجال / ٣٠٤.
(٢) الجهشياري / الوزراء والكتاب / ٩٧.
(٣) ظ: المامقاني / تنقيح المقال ٣ / ٢١٧.
(٤) ظ: النجاسي / الرجال / ٣١٩.

إنّ هذه الكوكبة اللامعة سلوكاً وإدراكاً ومسؤولية، لتستحقّ منا الإجلال والكرامة، لأنها آثرت المصلحة الإسلامية على مصالح الذات، فعانت من الكيد السياسي والتخطيط الإرهابي صابرة محتسبة، لم تنزع إلى منصب، ولم تطمع بسلطان، ولكنها فضّلت ما عند الله مردّاً، فزهدت بما عداه من الظواهر.

تعليمات الإمام لتهذيب الشعب المسلم

في أعالي النصح البشري، وقمة الوعي الإصلاحي تبدو للإمام موسى بن جعفر وصايا وإرشادات وحكم قصار، تمثّل عصارة الفكر التجريبي في حياة العقل، أفاض بها الإمام نضرةً عطرةً تتروّح بها القلوب، وتهفو لها المشاعر والأحاسيس، وهي جزءٌ لامعٌ من ذلك الإشعاع المتوهّج الداعي لتهذيب النفس الإنسانية، وإنقاذ الهيكل الاجتماعي من التداعي والانهيار، والأخذ بكيان الشعب المسلم إلى التماسك والاستمرار، وكأنها تلك اليد التي تدفع به إلى شواطئ الأمن والدعة والحرّية من وراء الغيب.

وهي بعد ألفاظ جارية مجرى الأمثال في الذيوع والانتشار، فيها بلاغة القول، وفخامة المعنى، وجلاء الصورة، جاءت برصف بياني عفوي جديد، لاعنت فيه ولا تكلف به، فهو حديث النفس للنفس. ونداء الضمير للضمير، وأي ضمير أنقى وأطهر من ضمير الإمام موسى بن جعفر، وهو يريد للمستوى الأخلاقي أن يتطوّر، وللذات أن ترتفع عن صغائر الأمور، وللنفس أن تمتلئ نوراً وثباتاً ويقيناً، وأن يلتقي الوجه الخارجي للإنسان

بالمحتوى الداخلي ليشكّل كلاً لا ينفصل في تهذيب الأفكار. وتلك إشارات ورموز وشواخص لا تجد أمثالها في غير مشروع أهل البيت الحضاري، فهم للبشرية جمعاء، وهم للناس في كل زمان ومكان.

والإمام موسى بن جعفر عليه السلام قدّيس أهل البيت في السلوك والإنابة، ورهباني هذه الأمة في الخشوع والسمت العرفاني، هذا من جانب؛ ومن جانب آخر نجده رمز التصدّي للانحلال والتدهور، وقد نذر نفسه من موقع المسؤولية الرسالية لقيادة الأمة، ومباشرة مشكلاتها في التربية والتعليم والأخلاق وجهاً لوجه، فما استلان عوداً، ولا وهن تبليغاً، ولا ضعف أداءً، كيف لا؟ وهو الناطق الهادر بالإبلاغ الرسالي، لم تثنه عن مهمّته العقبات ولا النكبات في أقسى الظروف ضراوةً، وأشدّ العصور استفزازاً، فكان الشاخص الماثل الذي تستطيل له العيون، فيغمرها هيبةً ووقاراً وجلالاً.

إنّ هذه النصائح والوصايا المختارة التي ستقرأها بالإمكان ـ لو استثمرت استثماراً عقلياً مجرّداً ـ أن تؤدّي إلى رحاب الحكمة ورياضة النفس بعيداً عن الأوهام والتعالي، فهي تصوّر المبدأ العام للآداب الرفيعة، وهي تعبّد الطريق إلى تفاعل الضمير مع الحياة، وتدعو إلى التعامل البشري السليم، وهي بعد: ليست من قبيل الأصوات التي لا تجد لها صدى في التأثير، بل هي نهج عالمي نظماً وتكويناً وفكراً، ينطلق من ذات عرفت بترسيخ القيم والمبادئ، ومن شأنها أن توفّر على الطالب قراءة عشرات الكتب في تهذيب النفس.

ولا يخالجنا أدنى شك أنّ هذه المقتطفات السائرة من تعليمات الإمام تعتبر كنزاً من كنوز الإسلام، حاولنا اختيار نماذج منها تعنى بالأدب، والخلق، والبرّ، والإيثار، والتراحم، والإحسان، والارتفاع بالإنسان إلى إنسانيته الفاضلة، وهي من خزائن علم الإمام في الدين والاجتماع والحب

وفلسفة الحياة من نوادر الآثار العالمية.

وميزة أخرى أنها من السهل الممتنع، فهي في غاية الوضوح والسماح، وكان دوري فيها: حسن الاختيار، وترتيبها على طريقة «الألفباء» تسهيلاً للتداول، وتنظيماً للآخذ.

وكانت مواردها منتشرة ومزدهرة في طائفة من المصادر منها: أصول الكافي للكليني، والتوحيد والمعاني للصدوق، والتهذيب والاستبصار للشيخ الطوسي / والإرشاد للمفيد / وقرب الإسناد للحميري / والمحاسن للبرقي / وتحف العقول لابن شعبة / والاحتجاج للطبرسي / وكشف الغمة للإربلي / وبحار الأنوار للمجلسي، ووسائل الشيعة للحرّ العاملي، وأعيان الشيعة للأمين الحسيني العاملي / وحياة الإمام موسى بن جعفر لباقر شريف القرشي / والإمام موسى بن جعفر لمحمد حسن آل ياسين، وسواها.

(أ)

١. الله ينزل المعونة على قدر المؤونة، وينزل الصبر على قدر المصيبة.
٢. أداء الأمانة والصدق يجلبان الرزق، والخيانة والكذب يجلبان الفقر والنفاق.
٣. إتّقِ الله، وقل الحق وإن كان فيه هلاكك فإنّ فيه نجاتك.
٤. إتّق الله، ودع الباطل وإن كان فيه نجاتك، فإنّ فيه هلاكك.
٥. إياك أن تمنع في طاعة الله، فتنفق مثليه في معصية الله.
٦. قال عند قبر حضره: إنّ شيئاً هذا آخره، لحقيق أن يزهد في أوله، وإنّ شيئاً هذا أوله، لحقيق أن يخاف آخره.
٧. إذا كان الجور أغلب من الحقّ لم يحلّ لأحدٍ أن يظنّ بأحد خيراً حتى يعرف ذلك منه.
٨. إن العاقل الذي لا يشغل الحلال شكره، ولا يغلب الحرام صبره.

٩. إن كان لا يغنيك ما يكفيك، فليس شيء من الدنيا يغنيك.

١٠. إن أعظم الناس قدراً الذي لا يرى الدنيا لنفسه خطراً.

١١. أما إن أبدانكم ليس لها ثمن إلاّ الجنة، فلا تبيعوها بغيرها.

١٢. أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً.

١٣. إنّ العاقل: لا يحدّث من يخاف تكذيبه، ولا يسأل من يخاف منعه، ولا يعد ما لا يقدر عليه، ولا يرجو ما يعنف برجائه، ولا يتقدّم على ما يخاف العجز عنه.

١٤. إنّ الرفق والبرّ وحسن الخلق يعمّر الديار، ويزيد في الرزق.

١٥. اصبر على طاعة الله، واصبر عن معاصي الله...

١٦. إياك والكبر، فإنّه لا يدخل الجنة من كان في قلبه حبّة من كبر.

١٧. إياك ومخالطة الناس والأنس بهم، إلا أن تجد منهم عاقلاً ومأموناً فأنس به، واهرب من سائرهم كهربك من السباع الضارية.

١٨. إياك والطمع، وعليك باليأس من أيدي الناس.

١٩. إياك والكسل والضجر، فإنهما مفتاح كلّ سوء..

٢٠. إياك والمزاح فإنّه يذهب بنور إيمانك، ويستخفّ بمروءتك.

٢١. إياك والكسل والضجر، فإنهما يمنعانك من حظّك في الدنيا والآخرة.

٢٢. إياك أن يراك الله في معصية نهاك عنها، وإياك أن يفقدك عند طاعة أمرك بها...

٢٣. أمت الطمع من المخلوقين؛ فإنّ الطمع مفتاح الذلّ، واختلاس العقل، واختلاف المروات، وتدنيس العرض، والذهاب بالعلم.

٢٤. إنّ ضوء الروح العقل، فإن كان العبد عاقلاً كان عالماً بربّه، وإذا كان عالماً بربّه أبصر دينه.

٢٥. إنّ كل الناس يبصر النجوم، ولكن لا يهتدي بها إلا من يعرف مجاريها

ومنازلها، وكذلك أنتم تدرسون الحكمة، ولكن لا يهتدي بها منكم إلا من عمل بها.

٢٦. إنّ لله عباداً في الأرض يسعون في حوائج الناس هم الآمنون يوم القيامة.

٢٧. أفضل العبادة بعد المعرفة: انتظار الفرج.

٢٨. إذا كان الرجل حاضراً فكنّه، وإذا كان غائباً فسمّه.

٢٩. اتّقِ المرتقى السهل إذا كان منحدره وعراً.

٣٠. إنّ قوماً يصحبون السلطان يتّخذهم المؤمنون كهوفاً؛ هم الآمنون يوم القيامة.

٣١. إنّ أهل الأرض لمرحومون ما تحابّوا، وأدّوا الأمانة، وعملوا بالحقّ.

٣٢. إذا لم تستحِ فاعمل ما شئت.

٣٣. إنّ الصبر على البلاء أفضل من العافية عند الرخاء.

٣٤. إنّ الصمت باب من أبواب الحكمة، وإنّ الصمت يكسب المحبّة، وإنّه دليل كل خير.

٣٥. أحسن من الصدق قائله، وخير من الخير فاعله.

٣٦. أما والله؛ لئن عُزَّ بالظلم في الدنيا، ليذلّن بالعدل بالآخرة.

(ت)

٣٧. التدبير نصف العيش.

٣٨. التودّد إلى الناس نصف العقل.

٣٩. تفقّهوا في دين الله، فإنّ الفقه مفتاح البصيرة، وتمام العبادة، والسبب إلى المنازل الرفيعة والرتب العالية في الدنيا والدين.

(ث)

٤٠. ثلاثة يجلين البصر: النظر إلى الخضرة، والنظر إلى الماء الجاري، والنظر إلى الوجه الحسن.

(ر)

٤١. رأس السخاء أداء الأمانة.

(ز)

٤٢. زاحموا العلماء في مجالسهم ولو حبواً على الركب، فإنّ الله يحيي القلوب الميتة بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر.

(ص)

٤٣. الصنيعة لا تكون صنيعة إلاّ عند ذي دينٍ أو حسب.

(ع)

٤٤. العجلة هي الخرق.

٤٥. عليك بالرفق فإنّ الرفق يمنٌ والخرق شؤمٌ.

٤٦. عليك بالاعتصام بربك، والتوكّل عليه، وجاهد نفسك لتردّها عن هواها، فإنّه واجب عليك كجهادك عدوّك.

٤٧. عونك للضعيف أفضل من الصدقة.

٤٨. العجب كل العجب للمحتمين من الطعام والشراب مخافةَ الداء إن نزل بهم، كيف لا يحتمون من الذنوب مخافة النار إذا اشتعلت في أبدانهم.

(غ)

٤٩. الغضب مفتاح الشرّ.

(ف)

٥٠. فضل الفقيه على العابد كفضل الشمس على الكواكب.

(ق)

٥١. قلّة العيال أحد اليسارين.

٥٢. قلّة الوفاء عيب بالمروءة.

(ك)

٥٣. كثرة الهمّ تورث الهرم.

٥٤. كفّارة عمل السلطان الإحسان إلى الإخوان.

٥٥. كلما أحدث الناس من الذنوب ما لم يكونوا يعملون، أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعدّون.

٥٦. كن بارّاً واقتصر على الجنة، وإن كنت عاقاً فظاً فاقتصر على النار.

٥٧. كذّبْ سمعك وبصرك عن أخيك...

٥٨. كفى بالتجارب تأديباً، وبممر الأيام عظة، وبأخلاق من عاشرت معرفة، وبذكر الموت حاجزاً عن المعاصي...

٥٩. الكبر رداء الله، فمن نازعه رداءه أكبّه الله في النار.

(ل)

٦٠. لا دين لمن لا مروءة له، ولا مروءة لمن لا عقل له.

٦١. لا تمنحوا الجهّال الحكمة فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم.

٦٢. ليس منّا من لم يحاسب نفسه في كلِّ يوم، فإن عمل حسناً استزاد منه، وإن عمل سيّئاً استغفر الله منه، وتاب إليه.

٦٣. لا تكوننّ مبتدعاً.

٦٤. لا خير في العيش إلاّ لمسمع واعٍ أو عالم ناطق.

٦٥. لا تبذل لإخوانك من نفسك ما ضرره أكثر من منفعته لهم.

٦٦. لو ظهرت الآجال لافتضحت الآمال.

٦٧. لا تضيّع حقّ أخيك اتّكالاً على ما بينك وبينه، فإنّه ليس بأخٍ من ضيّعت حقّه.

٦٨. لا يكوننّ أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته.

٦٩. ليس حسن الجوار كفّ الأذى، ولكن حسن الجوار الصبر على الأذى.

٧٠. لا تذهب الحشمة بينك وبين أخيك، وأبقِ منها، فإنّ ذهابها ذهاب الحياء.

٧١. لا تحدّثوا أنفسكم بفقر ولا بطول عمر، فإنّ من حدّث نفسه بالفقر يبخل، ومن حدّثها بطول العمر يحرص.

(م)

٧٢. من أيقن بالخلف جاد بالعطيّة.

٧٣. ما عال امرؤ اقتصد.

٧٤. من أحزن والديه فقد عقّهما.

٧٥. من ضرب بيده على فخذه، أو واحدة على الأخرى عند المصيبة، فقد حبِط أجره.

٧٦. من اقتصده وقنع بقيت عليه النعمة.

٧٧. من بذّر وأسرف زالت عنه النعمة.

٧٨. المصيبة لا تكون مصيبة يستوجب صاحبها أجرها إلا بالصبر، والاسترجاع عند الصدمة.

٧٩. المؤمن كمثل كفّتي ميزان، كلما زيد في إيمانه زيد في بلائه.

٨٠. من لم يتفقّه في دينه لم يرض الله له عملاً.

٨١. المصيبة للصابر واحدة، وللجازع اثنتان.

٨٢. ما عبد إلاّ وملك آخذ بناصيته، فلا يتواضع إلا رفعه الله، ولا يتعاظم إلّا وضعه الله.

٨٣. مجالسة أهل الدين شرف الدنيا والآخرة.

٨٤. محادثة العالم على المزابل، خيرٌ من محادثة الجاهل على الزرابي.

٨٥. من نظر برأيه هلك.

٨٦. من ترك أهل بيت نبيه ﷺ ضلّ.

٨٧. مشاركة العاقل يمنٌ وبركة ورشد وتوفيق من الله، فإذا أشار عليك العاقل الناصح فإياك والخلاف، فإنّ في ذلك العطب.

٨٨. من قصد إليه رجل من إخوانه مستجيراً به في بعض أحواله فلم يجره بعد أن يقدر عليه، فقد قطع ولاية الله ﷻ .

٨٩. من أدخل على مؤمن سروراً فَرَّحَ الله قلبه يوم القيامة.

٩٠. المؤمن أعزّ من الجبل، الجبل يستغّل بالمعاول، والمؤمن لا يستغّل دينه بشيء.

٩١. من تكلّف ما ليس من عمله ضاع عمله، وخاب أمله.

٩٢. ما أهان الدنيا قوم قط إلاّ هنّأهم الله إياها، وبارك لهم فيها، وما أعزّها قوم إلاّ بغّضهم الله إياها.

٩٣. من أتى إلى أخيه مكروهاً فبنفسه بدأها.

٩٤. من ولده الفقر أبطره الغنى.

٩٥. ما أستبّ إثنان إلاّ انحط الأعلى منهما إلى المرتبة السفلى.

٩٦. المؤمن أخو المؤمن لأمه وأبيه، وإن لم يلده أبوه.

٩٧. المعروف تلو المعروف غلّ لا يفكّه إلاّ مكافأة أو شكر.

٩٨. ملعون من اتّهم أخاه.

٩٩. ملعون من لم ينصح لأخيه.

١٠٠. ملعون من احتجب عن أخيه.

١٠١. ملعون من اغتاب أخاه.

١٠٢. من لم يكن له من نفسه واعظ تمكّن عدوّه منه.

١٠٣. المغبون من غبن من عمره ساعة.

١٠٤. من ترك التماس المعالي لانقطاع رجائه فيها لم ينل جسيماً.

١٠٥. من تكلّم في الله هلك، ومن طلب الرئاسة هلك، ومن دخله العجب

هلك.

١٠٦. من قصده رجل من إخوانه مستجيراً في بعض أحواله، فلم يجره أن يقدر عليه، فقد قطع ولاية الله عز وجل.

١٠٧. من استشار لا يعدم عند الصواب مادحاً، وعند الخطأ عاذراً.

١٠٨. من اقتصد وقنع بقيت عليه النعمة، ومن بذّر وأسرف زالت عنه النعمة.

١٠٩. من أتاه أخوه المؤمن في حاجة فإنما هي رحمة من الله تبارك وتعالى ساقها إليه، فإن قبل ذلك فقد وصله بولايتنا، وهو موصول بولاية الله تبارك وتعالى، وإن ردّه عن حاجته وهو يقدر على قضائها، سلّط الله تبارك وتعالى عليه شجاعاً من نار ينهشه في قبره إلى يوم القيامة، مغفوراً له أو معذّباً، فإن عذره الطالب كان أسوأ حالاً.

(ي)

١١٠. يعرف شدّة الجور من حُكِمَ به عليه.

١١١. ينادي منادٍ يوم القيامة: ألا من كان له على الله أجر فليقم، فلا يقوم إلاّ من عفا وأصلح، فأجره على الله.

١١٢. ينبغي لمن عقل من الله أن لا يستبطئه في رزقه، ولا يتّهمه في قضائه.



الفصل الثالث

الإمام وظواهر الحياة العقلية المتطوّرة

١ ـ العقل والمناخ العقلي المضطرب.

٢ ـ تعدّد الاتجاهات العقائدية.

٣ ـ الانشقاق الداخلي في فِرق الشيعة.

٤ ـ الإمام في خضمّ التيار الكلامي.



العقل والمناخ العقلي المضطرب

قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام:

«إنّ ضوء الروح العقل، فإذا كان العبد عاقلاً كان عالماً بربّه، وإذا كان عالماً بربّه أبصر دينه»[1].

وهذا القول أطروحة فريدة يضعها الإمام بين يدي العارفين، فالعقل عند الإمام مدار الحجّة على الإنسان، وهو سبيل الإطراد العلمي بما يزنه من دقائق الأمور، وهو أيضاً منار الهداية في الحياة، حتى اعتبره الإمام عدلاً لرسالة السماء وقيادة الأئمة فقال: «إنّ لله على الناس حجّتين: حجّة ظاهرة وحجّة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة، وأمّا الباطنة فالعقول»[2].

وبهذه الرؤية نجد اهتمام الإمام بالعقل الإنساني المجرّد، وعدّه من الأصول التي لا غنى عنها في تيسير الحياة وضبط النفس، وهو يسلّط الأضواء على العقل في رصد منابع الخير كلها، فيقول:

«من أراد الغنى بلا مال، وراحة القلب من الحسد، والسلامة في الدين، فليتضرّع إلى الله في مسألته بأن يكمّل عقله، فمن عقل قنع بما يكفيه،

---

(١) ابن شعبة / تحف العقول / ٢٩٦.

(٢) الكليني / الكافي ١ / ١٦.

ومن قنع بما يكفيه استغنى، ومن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنى أبداً»[١].

يقول الأستاذ محمد حسن آل ياسين تعقيباً:

«ولما كان المراد من العقل في هذه النصوص هو النضج المثمر والوجود الفاعل المؤثّر ـ وليس ما يقابل الجنون الذي يعني فقدان السيطرة على الشعور المنضبط والإحساس المتزن ـ كان الإنسان المجرّد من المعرفة والمحروم من التعلّم وإن كمل عقله؛ محكوماً بالنقص الذي لا يُنكر ولا يُستر، بسبب جهله المخلّ بدوره الإنساني النافع لنفسه ومجتمعه، ولذلك أضاف الإمام إلى ما تقدّم منه في تكريم العقل: التنبيه على أهمية العلم وشأنه الكبير وأثره العظيم في بناء الأفراد والمجتمعات»[٢].

ولما كان العقل المتكامل منحة إلهية من وجه، وتجربة ذاتيةً من وجه آخر، وجدنا القلّة النادرة في الاجتماع البشري هي التي تتمتّع به إدراكاً ومعرفة وفلسفة. وحينما تطوّرت الحياة العلمية في عصر الإمام بفضل الجهود المضنية للعلماء والباحثين والمترجمين، فقد وجدنا في ضوء ذلك تطوّراً سريعاً للحياة العقلية، وكان هذا التطوّر مصاحباً لعلم الاحتجاج في أبرز فروعه، وللفنّ الجدلي في مظاهره، ولازدهار حياة المقالات والفرق والاتجاهات. وليس غريباً أن نجد الحياة العقلية قد نشأت في ظلّ المناخ السياسي، بيد أننا نجد للإمام موسى بن جعفر عليه السلام وثيقة تأريخية في العقل، كانت وليدة الشعور بالمسؤولية، ولم تتأثّر بأية عوامل سياسية إطلاقاً، وهي عبارة عن رسالة مهذّبة نابضة وجّهها الإمام إلى تلميذه العظيم هشام بن الحكم، وقد شرحها الفيلسوف المتألّه الملا صدر الدين الشيرازي المعروف بـ«الملاّ صدرا» في رسالة خاصة، وقد تعقّبها بالتحليل الموضوعي

---

(١) الكليني / الكافي ١ / ١٨ + ابن شعبة / تحف العقول / ٢٨٩.

(٢) محمد حسن آل ياسين / الإمام موسى بن جعفر / ١٠٦.

الأستاذ باقر شريف القرشي (دام علاه)، فكانت مع الأصل في أربعين صفحة»[١].

ولا أعلم رسالة في العقل قد مهّدت للحياة العقلية المتطوّرة بهذا المستوى الفكري كهذه الرسالة التي ربط بها الإمام بين ذوي العقول ومنزلتهم وما بين ما أفاض به القرآن الكريم من الاعتداد الرفيع بهم، وثمة ظاهرة أخرى يشير لها الإمام فيما حقّقه أصحاب العقل السليم من المعرفة بأسرار الهداية والكون بإفاضة من الله تعالى عليهم.

وقد أكّد الإمام أنّ الله ﷻ قد جعل العقل حجّة يستدلّ بها على عظيم خلقه في السماوات والأرض، وما فيهما من الكائنات المرئية وغير المرئية، والعوامل الحسّية والمتصوّرة المعلومة والمجهولة والمتخيّلة، وما في ذلك من عجائب صنع الله في الخلق والإيجاد والتصريف والإدارة والإبداع، مما جعله الله برهاناً على معرفته الخارقة، ودليلاً على عظيم قدرته التي لا تدرك[٢].

وبالإمكان الإشارة إلى نهج هادئ لنقاط الارتكاز في الرسالة.

١. أبان الإمام عليه السلام أنّ الله خوّف الذين لا يعقلون من عقابه، وقرن العلم بالعقل، فقال تعالى:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[٣].

ثمّ ذمّ الله الذين لا يعقلون في آيات عديدة من قرآنه المجيد، عرض الإمام لها، وختم ذلك بقوله تعالى:

---

(١) ظ: باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر: ١/ ١٨٣ - ٢٢٣.

(٢) ظ: نص رسالة الإمام / الكليني / الكافي ١/ ١٣ - ٢٠ + ابن شعبة / تحف العقول ٣٩٠ - ٤٠٠، وفيها زيادة على ما ذكره الكليني.

(٣) سورة العنكبوت / ٤٣.

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾[١].

ومدح الله تعالى القلّة لأنهم العقلاء حقّاً، فقال عَزَّ وَجَلَّ :

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[٤].

وأشار الإمام أنّ القرآن ذكر أولي الألباب بأحسن الذكر، وحلاّهم بأحسن الحلية، فقال: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[٥].

وتحدّث الإمام عما مدح الله به لقمان بإيتاء الحكمة، ويعني بذلك الفهم والعقل، وما أوصى به لقمان ولده بالتواضع للحقّ ليكون أعقل الناس.

٢. واعتبر الإمام أنّ لكل شيء دليلاً «ودليل العقل التفكّر، ودليل التفكّر الصمت، ولكل شيء مطية، ومطية العقل التواضع». وصرّح بأنّ الله تعالى ما بعث الأنبياء ورسله وعباده إلاّ ليعقلوا عن الله، فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة، وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً، وأكملهم عقلاً أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة، واعتبر الإمام العقل حجّة باطنة. وأنّ العاقل لا يشغل الحلال شكره، ولا يغلب الحرام صبره.

وعدّ الإمام طول الأمل، وفضول الكلام، وشهوات النفس، مؤشّرات تعين على هدم العقل. «ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه».

٣. واعتبر الإمام: «الصبر على الوحدة علامة قوّة العقل، فمن عقل من الله

---

(١) سورة الحشر / ١٣.
(٢) سورة سبأ / ١٣.
(٣) سورة ص / ٢٤.
(٤) سورة هود / ٤٠.
(٥) سورة البقرة / ٢٦٨.

اعتزل أهل الدنيا والراغبين فيها، ورغب فيما عند الله».

«كما اعتبر نصب الحقّ لطاعة الله، ولا نجاة إلّا بالطاعة، والطاعة بالعلم، والعلم بالتعلّم، والتعلّم بالعقل يعتقد، ولا علم إلاّ من عالم رباني، ومعرفة العلم بالعقل».

٤. ورأى الإمام: «إنّ العاقل قد رضي بالدون من الدنيا مع الحكمة، فالعقلاء تركوا فضول الدنيا، وإنّ العاقل نظر إلى الدنيا وأهلها فعلم أنها لا تنال إلاّ بالمشقّة، ونظر إلى الآخرة فعلم أنها لا تنال إلا بالمشقّة، فطلب بالمشقّة أبقاهما».

ورأى الإمام أنّ العقلاء زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة.. وأنّ الله حكى عن قوم صالحين قولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[1].

وأنّه لم يخف الله من لم يعقل عن الله، ومن لم يعقل عن الله لم يعقد قلبه على معرفة... وروى عن جدّه أمير المؤمنين: «ما عبد الله بشيء أفضل من العقل».

وعقّب الإمام على ذلك بإفاضات رائعة تخصّ الموضوع.

٥. ورأى الإمام رؤية مجهرية: «أنّ العاقل لا يكذب، وإن كان فيه هواه» وقال أيضاً: «لا دين لمن لا مروّة له، ولا مروّة لمن لا عقل له» وروى عن جدّه أمير المؤمنين صفة العاقل: «إنّ من علامة العاقل أن يكون فيه ثلاث خصال:

يجيب إذا سُئِل، وينطق إذا عجز القوم عن الكلام، ويشير بالرأي الذي يكون فيه صلاح أهله، فمن لم يكن فيه هذه الخصال الثلاث فهو أحمق». إلى آخر فقرات هذه الرسالة الثمينة.

---

(١) سورة آل عمران / ٨.

وكان الإمام بذائقته الفطرية الخالصة يدرك دور العقل في الحياة الاجتماعية، ولديه تصوّر عريق بتقلّبات المناخ الاجتماعي، ويعرف جيداً توجّه السلطان لتسخير الحياة العقلية للسير في ركابه وتلبية رغباته، فأراد للشعب التمتّع بجوهرة العقل،لتمنعه وتعصمه عن الانزلاق السياسي الذي تجهد السلطات على إحداثه وتوسيع ثغراته، ومن البديهي أن يفيد قلةٌ من المثقّفين والعلماء من هذا الأمداد الطهور، وتندفع أكثرية القوم نحو السراب.

ومهما يكن من أمر، فإنّ الاتجاهات السياسية المعقّدة قد أذكت شرارة الجذوة الكلامية، لا حبّاً بالعلم وتشجيعاً له، بل لتفيد منه في الإبقاء على النفوذ، وإشغال الشعب المسلم عن نفسه بنفسه، وبمبادئه عن مشكلاته، وقد مهّد هذا التخطيط إلى قيام الأشاعرة والمعتزلة والمرجئة والمفوضة، وساعد على ظهور الزندقة والمانوية والمزدكية والشعوبية وسواها في إفرازات أحدثها البعد السياسي في المناخ العقلي، وهو ينتقل من دور العلم بالشيء إلى دور النقاش، ومن طور الفهم إلى طور المناظرة، إزاء إثبات هذا الأصل أو دحض ذلك المبدأ، ومن هنا نشأت الحياة العقلية وهي تتدرّج بالتصاعد من البسيط إلى المركّب، ومن السهل إلى الصعب، ومن القاعدة إلى القمّة، وإذا بالأفق الحالم المتزن يتحوّل إلى شعلة نار متلهّبة تزيد في حرارة الّجو وسعرات الحياة.

ولا أدلّ على هذا من نشوء بدعة الارجاء في ظلّ الحكم الأموي، واستمراريتها حتى اليوم، لأنّ الارجاء قد ابتدع مقالة تعنى بمجاراة السلطان، والإبقاء على عروش الطغاة، تثبيتاً لأنظمة الحكم السائدة، فالحاكم هو الحاكم المطاع، ما دام يشهد الشهادتين ليس غير، لا يغيّره فسق، ولا يعزله إسراف، وإن خاض في دماء المسلمين خوضاً، فأمره إلى

الله، وعلى المسلمين الطاعة، وإن ظلم عباد الله، وغيّر أحكام الله، وأكل أموال المسلمين، وثوابه أو عقابه على الله، وليس لأحد أن يعتدي على ذاته المقدّسة!!.

الجديد في هذا المنحى في الإسلام أنّ الحاكم مصون غير مسؤول، فقد أبيح له كل شيء، وقد خوّل بكل شيء. وقد رحّب الطغاة والجبابرة والملوك بهذا المبدأ الجديد.

فالارجاء إذن مذهب الطواغيت، وهو المذهب الذي يبيح الانحراف والخروج عن الخطّ الديني، ويجعل الحاكم مستقلاً في برجه العاجي عن النقد والتجريح والرفض.

وطبيعي أنّ مذهب الارجاء قد ابتدعته الأعطيات الضخمة من السلاطين، وجعلت منه مبدأ لا ينطق، ولا يعترض، ولا يحاجج، بل يظلّ مسالماً طول الخط.

يقول الأستاذ خودا بخش: «إنّ أصل المرجئة، يرجع إلى ما كان من ضرورة استنباط وسيلة للعيش في وفاق مع الحكم»[1].

وأقرّه على ذلك أستاذنا الدكتور يوسف خليف بقوله: «فقد وجد الحاكمون في هذا المذهب ضالّتهم المنشودة التي كانوا يتمنّون أن يعثروا عليها وسط الاتجاهات والمذاهب المتعدّدة المعادية لهم»[2].

ولم يقف المسلمون بمنحى عن فكرة الإرجاء، بل وقفوا في الاتجاه المعاكس لمجابهة الإرجاء فالإمامية يرون في مذهب الإرجاء احتضاناً لتطلّع الطواغيت في إباحة المحظورات، يسوّغ لهم الاستبداد وسفك الدماء دون أن يخرجهم ذلك عن حضيرة الإيمان، وكان في طليعة ذلك الإمام محمد الباقر

---

(١) ظ: يوسف عبد القادر خليف / حياة الشعر في الكوفة / ٣٠٩.

(٢) المرجع نفسه / ٣٠٩.

(ت١١٤هـ) حينما قصده عمرو بن قيس الماصر، وهو ممن يقول بالإرجاء، فقال للإمام: إنّا لا نخرج أهل دعوتنا وأهل ملتنا من الإيمان في المعاصي والذنوب. فردّ عليه الإمام مستنداً إلى السنّة الشريفة، فقال:

«يا ابن قيس: أمّا رسول الله ﷺ، فقد قال: لا يزني الزاني وهو مؤمن. ولا يسرق السارق هو مؤمن. فاذهب أنت واصحابك حيث شئت»[١].

وكان إبراهيم النخعي (ت ٩٦هـ) عنيفاً في مقاومة الإرجاء. والمرجئة عنده هم أهل الرأي المحدث، والإرجاء بدعة، وقد تركوا الدين أرقّ من الثوب السابري، بل ذهب إلى أكثر من هذا فقال: «لأنّا على هذه الأمة من المرجئة أخوف عليهم من عدتهم من الأزارقة»[٢].

وفي قبال أهل الجبر والإرجاء، كانت عقيدة القدرية القائمة على القول بحرّية الإرادة والاختيار، وزعيم القائلين بالقدر ـ غير منازع ـ الحسن البصري[٣].

والذي يهمّنا في الأمر أنّ العباسيين قد رحبّوا بفكرة الاعتزال كالأمويين من ذي قبل، لأنهم أزاحوا فكرة التقديس عن الأبدال والأئمة، فهم بذلك يقفون في الصفّ المقابل للفكر الإمامي الذي يعطي للأئمة عليهم السلام مكانتهم في الولاء والتقديس.

أمّا الخوارج فلم يكن لهم أمرٌ ذو بال في العصر العباسي، وكان الخروج على الدولة من شأن الطالبيين فحسب، والحسنيين منهم بالذات، ولم يكن المسلمون ليعتبروا العلويين خوارج في المفهوم الاصطلاحي، بل عدّوهم من الثائرين.

إلاّ أنّ الحياة العقلية في عصر الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قد انفجرت

---

(١) ظ: باقر شريف القرشي / حياة الإمام محمد الباقر ٢ / ٩٠ وانظر مصدره.

(٢) ابن سعد / الطبقات الكبرى ١ / ١٩١.

(٣) ظ: شوقي ضيف / التطوّر والتجديد في الشعر الأموي / ٥٢.

بأفكار جديدة مضافاً إلى مخلّفات الخوارج والمرجئة وأهل القدر المعتزلة. فكانت متاعب الإمام مضنية في صدّ التيارات والرياح الوافدة، وهو يعيش تبعات ذلك كله، يعالجها حيناً، ويدفعها حيناً آخر، ويوفق بين المسلمين فيما بينهما، حتى سجّل له تأريخياً ذلك الدور المشرّف.

لقد نشأت في عهد أبيه الإمام الصادق فرق الغلاة والزنادقة والإلحاد، ونشأت في عهده فرق أخرى وثيقة الصلة بما ابتلي به عصر أبيه. فأضاف ذلك جهداً إلى جهده.

والذي يراه البحث أنّ الحياة الجديدة لم تكن هادئة أو مستقرّة، بل هي إلى الصخب والضجيج أقرب، وهي تمثّل مدى الانشطار الإسلامي إلى فرق وجماعات وتكتّلات.

وقد شجّعت السياسة هذا الجوّ المحموم المضطرب، ليصفو لها الأفق بعيداً عن المجابهة والرفض، وبمعزل عن مشكلات التحسّس الجماعي بالظلم والمأساة والإذلال.

وكانت حتمية تجربة السماء الفطرية تقتضي بالضرورة أن ينتصر الاتّجاه العقلي الرصين على تلك التهاويل الغريبة التي اجتاحت العالم الاسلامي في سرعة مذهلة، وهي تتضخّم ضمن مخطّط سياسي صاعق، أبرم بنوده سلاطين الجور وأدعياء الفكر الوافد.

تعدد الاتجاهات العقائدية

ومع كل ذلك العمل التكاملي الرائد الذي فجّره الإمـام موسى بن جعفر عليه السلام لتوحيد الأمـة، ورأب الصدع، إلاّ أن بعض الظواهر العقلية قد برزت في الميدان، نحاول إلقاء بعض الضوء على مصادرها وأثرها في الظروف الاجتماعية، كما نعرض لجزء من حياتها المتردّدة بتكثيف وضغط قد يؤدّيان المهمّة دون الإغراق في التفصيلات الهامشية.

ولو أنّ أهداف هذه الاتجاهات كانت علمية خالصة، أو تنافعية مشروعة، لوصل إلينا علم كثير خالص، إلاّ أنّ ما يحز في النفس أن ينحرّ الكثير منها إلى مداخلات غير بريئة، وأن تطغى لغة الهجوم والاسفاف على لغة العقل والاناة، فينشأ عن هذا وذاك احتدام لا مسوّغ له في التعدّي والتحدّي والتداعي الذي قد يصل ببعض مفرداته إلى تكفير هذا وتضليل ذاك، وهنا تفقد الحياة العقلية هذا الوهج الحضاري في تلاقح القيم والأفكار. وتلك مأساة نتلقّاها بمرارة وحزن عميق، حتى عادت صراعاً يطال المعتقدات بكثير من التهاون تارة والتجاهل تارة أخرى.

يقول الأستاذ باقر شريف القرشي:

«واتّسم عصر الإمام بموجات رهيبة من النزعات الشعوبية والعنصرية والنِحل الدينية، والاتجاهات العقائدية التي لا تمت إلى الاسلام بصلة، ولا تلتقي معه بطريق، وقد تصارعت تلك الحركات الفكرية تصارعاً لا هدوء فيه ولا استقرار، حتى امتدّ ذلك الصراع إلى أكثر العصور، ويعود السبب في ذلك إلى أنّ الفتح الإسلامي قد نقل ثقافات الأمم وسائر علومهم إلى العالم الغربي والإسلامي، بالإضافة إلى أن الإسلام قد جاء بموجة عارمة من العلوم والأفكار، ودعا المسلمين إلى الانطلاق والتخصّص في جميع ألوان المعارف، وقد أحدث ذلك انقلاباً فكرياً في المجتمع الإسلامي، وتبلورت الأفكار بألوان من الثقافة لم يعهد لها المجتمع نظيراً في العصور السالفة، وقد اتجهت تلك الطاقات... إلى الجانب العقائدي من واقع الحياة، فحدثت المذاهب الإسلامية والفرق الدينية، وتشعّبت الأمة إلى طوائف ووقع فيما بينها من النزاع والمخاصمات والجدال الشيء الكثير، فكانت النوادي تعجّ بالمعارك الدامية والصراع العنيف... وكان من أبرز المتصارعين في هذه الساحة هم علماء الكلام والمتكلّمون»[1].

وقد ألمحنا لحياة كثير من هذه الصراعات فيما مضى من هذه الموسوعة في أعمال سابقة[2].

وقد فصّلنا القول في كتابنا «الإمام جعفر الصادق / زعيم مدرسة أهل البيت» فتحدّثنا عن الثورة المضادّة التي قادها الإمام ضدَّ متناقضات العصر العباسي في المناخ العقلي، وعرضنا لظاهرة الغلاة ومحاربة أئمة أهل البيت لتلك الظاهرة الضالّة.

واستوفينا القول ـ بإيجاز ـ في حركات الإلحاد والزندقة، وعرضنا

---

(١) باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر ٢ / ١٠٩.

(٢) ظ: المؤلف / الإمام محمد الباقر مجدّد الحضارة الإسلامية / ٨٨ - ١٠٦.

لحياة المذاهب الكلامية في عصر الإمام الصادق عليه السلام ووجدنا أنّ الإمام قد وظّف نظره العقلي من خلال المحاورات والمناظرات مع زعماء علم الكلام. وكان هذا التوظيف الدقيق قد اشتمل على ظاهرتين:

الأولى: الاستدلال العقلي والبديهي الذي لا سبيل إلى إنكاره.

الثانية: الإقناع المقبول الذي فجّره هذا الاستدلال[1]. ولا ضرورة لإعادة هيكلية ذلك البحث فقد سبق القول فيه.

وهنا لابدّ من رصد بعض المشاهد العقلية التي حفلت بها حياة عصر الإمام موسى بن جعفر عليه السلام مما دأب المناخ السياسي إلى التشجيع عليه، للهدف المركزي في التخطيط السلطوي للاستبداد أنى كان سبيله، ولا مانع بعد هذا من تشعّب آراء الأمة، وتمزيق الصّف الإسلامي.

روى محمد بن أبي عمير عن علي الأسواري، قال:

كان ليحيى بن خالد مجلس في داره يحضره المتكلّمون من كل فرقة وملّة يوم الأحد، فيتناظرون في أديانهم، ويحتجّ بعضهم على بعض، فبلغ ذلك الرشيد، فقال ليحيى بن خالد:

يا عباسي ما هذا المجلس الذي بلغني في منزلك يحضره المتكلّمون؟ فقال:.... ما شيء مما رفعني به أمير المؤمنين، وبلغ من الكرامة والرفعة أحسن موقعاً عندي من هذا المجلس، فإنه يحضره كلّ قوم مع اختلاف مذاهبهم، فيحتجّ بعضهم على بعض، ويعرف المحقّ منهم، ويتبيّن فساد كل مذهب من مذاهبهم.

قال له الرشيد: فأنا أحبُّ أن أحضر هذا المجلس، وأسمع كلامهم من غير أن يعلموا بحضوري... وبلغ الخبر المعتزلة فتشاوروا فيما بينهم وعزموا

---

(١) ظ: المؤلف / الإمام جعفر الصادق / زعيم مدرسة أهل البيت / الباب الأول / الفصل الثالث / الحياة العقلية وظواهرها الاجتماعية.

أن لا يكلّموا هشاماً إلا في الإمامة، لعلمهم بمذهب الرشيد وإنكاره على من قال بالإمامة.

ويحضر الرشيد هذه الجلسة، وفيها هشام بن الحكم من الإمامية وعبد الله بن يزيد الأباضي من الخوارج، وحضر جماعة المعتزلة. ولك أن تختبر أهداف هذه الجلسة، فمن رأى يحيى بن خالد البرمكي أن «يتبين فساد كل مذهب» من مذاهب القوم، وهدف المعتزلة الإيقاع بهشام بن الحكم لأنه إمامي، ويعرفون رأي الرشيد بمن قال ذلك، فلا يسألونه إلا بالإمامة، والرشيد يحضر ليعرف أعداءه من أوليائه، والقوم في أخذ وردّ من مبحث الإمامة، وهشام يعطي الدليل إثر الدليل على صحّة مذهبه، والمعتزلة يردّون وينقضون، وهشام يردّ الردّ والنقض معاً، والخوارج يعتذرون عن الخوض في الموضوع لأنّ هشاماً شريك الأباضي في التجارة، وتحتدم آراء القوم في جدل مستميت وخصام شديد، حتى ينجرّ الحديث إلى القول من قبل هشام أنّ الإمام معصوم من الذنوب، وأنّه أشجع الناس، وأسخى الناس، وأعلم الناس، وقرع الحجّة بالحجّة.

والرشيد يسمع هذا كله، ومعه جعفر بن يحيى يسمع هذا كله، فقال الرشيد لجعفر، من يعني بهذا؟ قال: يا أمير المؤمنين يعني موسى بن جعفر، قال: ما عنى بها غير أهلها، ثم عضّ على شفته، وقال: مثل هذا حيٌّ ويبقى لي ملكي ساعة واحدة؟ فوالله للسان هذا أبلغ في قلوب الناس من مائة ألف سيف.

وعلم يحيى بن خالد أنّ هشاماً قد أُتي، فغمز إلى هشام بالخروج، وعلم هشام أنّه قد أخذ على حين غرة، فانسل من المجلس وهرب، وكان ذلك آخر العهد به حتى مات[1].

---

(١) ظ: هذه المحاورة كاملة / البحار للمجلسي: ٤٨ / ١٩٨ - ٢٠٢.

في هذه المحاورات والمناظرات عمق علمي لا شكّ في ذلك، ولكن تبنّي السلطة لهذا النوع من الجهد العقلي يكشف أنهم بسبيل كشف من يواليهم ممن يخالف عليهم، ولإبانة من يؤيّد مذهبهم السياسي ممن يحمل عليه، فهي وإن كانت آفاقاً معرفية في الجدل والحجاج والمناظرة، إلا أنّ عليها رصداً سياسياً جاثماً، يأخذ عليهم الأنفاس، ويلتقط الإشارات فيذهب ضحية ذلك أمثال هؤلاء العلماء.

وظاهرة أخرى أنّ الحكم يبارك هذه الخطوات أنى كانت النتائج، لأنها تصبّ في رافد مصالحهم الفئوية السياسية، فما على المتكلّمين إلا الجهد المضني في الجدل والاحتجاج، وما على الحكم إلا استثمار ذلك في صراعاتٍ بين صفوف الأمة لا أول لها ولا آخر، ولكنها تشغل الناس، وتلك نقطة انطلاقٍ كبرى يسعى إليها الحكم والسلطان.

الانشقاق الداخلي في فرق الشيعة

وكما انشقّ المسلمون إلى مذاهب متعدّدة في القدر والإرجـاء والجبر والتفويض، وكما نشأت المعتزلة والأشاعرة والخوارج، فقد انشقّ الشيعة فيما بينهم، فكانت الفرق الخارجة عن نظام أهل البيت مفارقةً لتسلسل الأئمة الاثني عشر القائل بإمامة أمير المؤمنين علي عليه السلام وولايته الكبرى، ثم الحسن والحسين، وعلي بن الحسين عليهم السلام، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق. وموسى الكاظم، وعلي الرضا، ومحمد الجواد، وعليّ الهادي، والحسن العسكري، والحجّة القائم المنتظر عليهم السلام أجمعين.

هذا التسلسل الإمامي كان منظوراً إليه، ومتحدّثاً عنه، منذ عهد مبكّر، بدأه رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي، والحسن والحسين حتى عصر الإمام الصادق عليه السلام بروايات متواترة وأحاديث مستفيضة وهو ما عليه الإمامية، وهو جزء لا يتجزّأ من مبدأ الإمامة.

ولدى الإمعان في تأريخ الانشقاق الداخلي في فرق الشيعة نجده أسبق عهداً من عصر الإمام موسى بن جعفر، فقد نشأت الكيسانية القائلة بإمامة

محمد بن الحنفية، وهو الأخ الثالث غير الشقيق لسيدي شباب أهل الجنة الحسن والحسين عليهما السلام.

فكانت الفتنة به عظيمة ـ ولا علاقة له بها ـ لأنّه ابن أمير المؤمنين، وليس بأيدينا من المصادر ما يشير إلى ادّعائه الإمامة لا من قريب ولا من بعيد؛ بينما رأى أتباعَهُ بأنّه المهدي المنتظر، وأنّ وفاته كانت غيبة له، بل هو حيّ لم يمت وإنما احتجب عن الأنظار.وسميّت هذه الفرقة بالكيسانية نسبة إلى كيسان مولى المختار الثقفي، بل قيل إنّه المختار نفسه.

وقد انقرضت هذه الفرقة، فلا وجود لها اليوم.

ومن أبرز الفرق التي انشقّت على نظام أهل البيت «الزيدية» نسبة إلى الشهيد زيد بن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، ولم يكن زيد قد ادّعى لنفسه الإمامة أبداً، بل كان ثائراً، آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، حتى سفك في سبيل الله دمه، وصلبت جثّته بعد القتل وأحرقت، وهو مرضيّ عند الأئمة عليهم السلام، وقد دعا إلى الرضا من آل محمد.

روى العيص بن القاسم، قال: «سمعت أبا عبد الله (الإمام الصادق) يقول: عليكم بتقوى الله... إن أتاكم آتٍ منّا، فانظروا على أي شيء تخرجون؟ ولا تقولوا خرج زيد، فإنّ زيداً كان عالماً، وكان صدوقاً؛ ولم يدعكم إلى نفسه، وإنما دعاكم إلى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وآله، ولو ظهر لوفى بما دعاكم إليه، وإنما خرج إلى سلطان مجتمع ليفضه (ليقضه)»[1].

ولم يكن للإمام أن يسدّد رأي زيد لو لم يكن على حقّ. إلاّ أنّ الزيدية اتّخذت منهجاً في دعوى الإمامة يقوم على مبدأ السيف، من خرج بالسيف فهو الإمام المفترض الطاعة، ومن أقام إمامته على غير الكفاح المسلّح،

---

(١) الكليني / روضة الكافي / ٢٦٤.

فليس بإمام، فلا يجوز اتّباعه بزعمهم، ولا يجوز القول بإمامته[١].

وهنالك فرق انطلقت في الميدان في عصر الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وكان أبرزها: الإسماعيلية، والفطحية، والواقفة.

ولكل فرقة من هذه الفرق الثلاث دعواها في تسلّم منصب الإمامة لغير الإمام الشرعي المنصوص عليه في سلسلة الأئمة الاثني عشر عليهم السلام.

فالإسماعيلية تنتسب إلى إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق، فعلى الرغم من وفاته في حياة أبيه، فقد أنكروا ذلك بشدّة، وقالوا: لا يموت حتى يملك[٢].

وكان هذا الزعم مخالفاً لحقائق الاحداث، إذ توفّي إسماعيل في عهد مبكّر قبل الدعوة إليه، فقد مات في حياة أبيه في «العريض» وحمل على رقاب الرجال إلى المدينة، ودفن بالبقيع، وتقدّم الإمام الصادق سريره، وأمر بوضعه على الأرض قبل دفنه مراراً كثيرة، وكان يكشف عن وجهه وينظر إليه، يريد بذلك تحقيق أمر وفاته عند الظانّين خلافته له من بعده، وإزالة الشبهة عنهم في حياته[٣].

ويقوم مذهب هذه الطائفة على الغلوّ، وحصر الإمامة في ذرّية إسماعيل فيما يزعمون، ويضفون على زعمائهم أقدس النعوت التي يرفضها حتى شبابهم المثقّف.

وفي هذا الجو الغائم نشأت (الفطحية) القائلة بإمامة عبد الله بن الإمام الصادق عليه السلام، وقد لزمهم هذا اللقب لقولهم بإمامته، وهو أفطح الرجلين. ويقال أنهم لقبّوا بذلك لأنّ داعيهم إلى إمامة عبد الله هذا كان رجلاً يقال

---

(١) ظ: النوبختي / فرق الشيعة / ٧٥.

(٢) ظ: الأشعري / مقالات الإسلاميين / ٩٨.

(٣) الشيخ المفيد / الإرشاد / ٣١٩ - ٣٢٠.

له: عبد الله بن الأفطح[١]. وقد تسمّى هذه الفرقة العمّارية، نسبة إلى أحد زعمائها المسمى «عمّار»[٢].

وسرعان ما اختفت هذه الفرقة، إذ لم يعش عبد الله بعد أبيه إلاّ سبعين يوماً، ولم يعقب ولداً ذكراً[٣]. وكأنّ مبدأ هذه الفرقة قد ولد ميتاً، وانتهى أمرها.

ونشأت أفكار فرقة ضالة، كان لها الأثر في تفريق الكلمة، وتشويه الحقائق المجرّدة، وهي فرقة الواقفة، وقد تسمّى «الواقفية» وسبب هذه التسمية أنها وقفت على إمامة موسى بن جعفر عليه السلام وادّعت أنّه حي لم يمت ولا يموت، وأنه رفع إلى السماء كما رفع عيسى بن مريم عليه السلام وأنّه هو القائم المنتظر الذي يملأ الدنيا قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً. وأنّ الذي في سجن السندي بن شاهك ليس هو الإمام موسى بن جعفر بل شبّه وخيّل إليهم أنه هو[٤].

وكانت هذه المقالة مدعاةً إلى السخرية من قبل الإمامية لأنها لا تقوم على أساس نصّي أو تأريخي على الإطلاق.

قال الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠ هـ):

«أمّا الذي يدلّ على فساد مذهب الواقفة... فما ظهر من موته عليه السلام، واشتهر واستفاض كما اشتهر موت أبيه وجّده ومن تقدّمه من آبائه... على أنّ موته اشتهر ما لم يشتهر موت أحد من آبائه عليهم السلام، لأنه أظهر، فقد أحضروا القضاة والشهود، ونودي عليه ببغداد على الجسر، وقيل: هذا الذي

(١) ظ: المصدر نفسه / ٣٢٠.
(٢) ظ: الأشعري / مقالات الإسلاميين.
(٣) ظ: الشهرستاني / مقالات الإسلاميين.
(٤) ظ: باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر ٢ / ٢٠٤.

تزعم الرافضة أنه حيّ لا يموت، مات حتف أنفه»[1].

ويبدو أنّ العنصر المادي، وخيانة الله ورسوله في احتجان الحقّ الشرعي ومال المسلمين، هو الذي أدّى بالقول إلى الوقف.

فروى الثقات: إنّ أول من أظهر هذا الاعتقاد علي بن أبي حمزة البطائني، وزياد بن مروان القندي، وعثمان بن عيسى الرواسي، طمعوا في الدنيا، ومالوا إلى حطامها، واستمالوا قوماً، فبذلوا لهم مما اختانوه من الأموال... فكان عند زياد بن مروان سبعون ألف دينار... وعند عثمان بن عيسى ثلاثون ألف دينار وخمس جوارٍ، فبعث إليهم الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: أن احملوا ما قِبلكم من المال، وما كان اجتمع لأبي عندكم من أثاث وجوار، فإنّي وارثه، وقائمٌ مقامه، فأنكر ذلك البطائني والقندي، وأما عثمان بن عيسى الرواسي فكتب إليه: إنّ أباك عليه السلام لم يمت، وهو حيٌّ قائم، ومن ذكر أنّه مات فهو مبطل، واعمل على أنّه قد مضى كما تقول، فلم يأمرني بدفع شيء إليك، وأما الجواري: فقد أعتقتهنّ، وتزوّجت بهنّ[2].

وتهافت كثير من ذوي الأحلام القاصرة وذوي الأطماع الواهنة إلى اعتناق مذهب الواقفة دون هدي من كتاب أو سنّة أو عقل.

والطريف في الأمر أن يحمل الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في حياته على هذه الفرقة وعلى رئيسها بالذات، فعن ابن أبي داود، قال: «كنت أنا وعيينة بيّاع القصب عند علي بن أبي حمزة البطائني، ـ وكان رئيس الواقفة ـ فسمعته يقول: قال أبو إبراهيم عليه السلام (موسى بن جعفر): إنما أنت

---

(١) الشيخ الطوسي / الغيبة / ٢٠.

(٢) ظ: الصدوق / علل الشرائع / ٢٣٦ طبع النجف + الطوسي / الغيبة / ٤٦ - ٤٧ + الصدوق / عيون أخبار الرضا: ١/ ١١٢ + الكشّي / الرجال / ٣٠٧ + المجلسي / بحار الأنوار: ٤٨/ ٢٥٢.

وأصحابك يا علي أشباه الحمير!!.

فقال لي عيينة: أسمعت؟ قلت: إي والله لقد سمعت.

فقال: لا، والله لا أنقل إليه قدمي ما حييت»[١].

وقال ربيع بن عبد الرحمن: «كان والله موسى بن جعفر عليه السلام من المتوسّمين، يعلم من يقف عليه بعد موته، ويجحد الإمام بعد إمامته»[٢].

وقد تمخّض الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، لقيادة حملة واسعة ندّد فيها بالواقفة، وحذّر منها، وفنّد آراءها، وأخبر عن الضلال والانحراف في خطواتها.

فقد سأل مرةً ما فَعَلَ الشقي حمزة بن بزيع؟ فقال إبراهيم بن أبي البلاد: هو ذا قد قدم. فقال عليه السلام: يزعم أنّ أبي حيّ، هم اليوم شكّاك، ولا يموتون غداً إلاّ على الزندقة.

يقول صفوان بن يحيى: فقلت في نفسي: شكّاك قد عرفتهم، فكيف يموتون على الزندقة؟

فما لبثنا إلا قليلاً حتى بلغنا عن رجل منهم أنّه قال عند موته: هو كافرٌ بربٍّ أماته. فقلت: هذا تصديق الحديث[٣].

وعن محمد بن سنان؛ قال: ذكر علي بن أبي حمزة عند الامام الرضا عليه السلام فلعنه ثم قال: إنّ علي بن أبي حمزة أراد أن لا يعبد الله في سمائه وأرضه، فأبى الله إلا أن يتمّ نوره ولو كره المشركون، ولو كره اللعين المشرك، قلتُ: المشرك؟ قال: نعم والله رغم أنفه، كذلك هو في كتاب الله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾[٤].

---

(١) الشيخ الطوسي / الغيبة / ٤٩ + المجلس / البحار: ٤٨ / ٢٥٥.

(٢) الشيخ الصدوق / عيون أخبار الرضا: ١ / ١١٢.

(٣) ظ: الشيخ الطوسي / الغيبة / ٤٩ + المجلسي / البحار: ٤٨ / ٢٥٦.

(٤) سورة التوبة / ٣٢.

وقد جرت فيه وفي أمثاله، إنه أراد أن يطفئ نور الله[١].

وقد روى جعفر بن محمد النوفلي، أنّه سأل الإمام الرضا عليه السلام: قلت: جعلت فداك، إنّ أناساً يزعمون أنّ أباك حيٌّ؟

فقال: «كذبوا لعنهم الله؛ لو كان حيّاً ما قُسم ميراثه، ولا نكح نساؤه، ولكنه ذاق الموت كما ذاقه علي بن أبي طالب...»[٢].

ومع هذا الشجب المستمرّ، والإنكار الصريح، فإنّ فتنة الواقفة قد استهوت جماعة من أعيان الشيعة فيهم الأكابر والأعاظم، إلا أنّ الله تعالى قد كشفها ببركة الإمام الرضا عليه السلام، فرجع عنها أولئك الذين شكّوا بوفاة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، ثمّ عادوا لإمامة الرضا عليه السلام بعد البراهين والأدلة.

وقد استوعب الشيخ الطوسي ذكرهم بأسمائهم وأعيانهم، بعد أن لزمتهم الحجّة، ولا داعي لإعادة ذلك مع عودتهم إلى الهدى[٣].

وكان هذا بحسن التأتّي لسيدنا ومولانا الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وقوّة حجّته، ونفاذ بصيرته، وصدق تجاربه، وقرعه الدليل بالدليل، وجهره بمعاداة أولئك الأفّاقين.

فقد روى أحمد بن محمد قال:

«وقف عليٌّ، أبو الحسن (الإمام الرضا) في بني زريق، فقال لي وهو رافع صوته، يا أحمد؛ قلت: لبّيك، قال:

إنّه لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله جهد الناس في إطفاء نور الله، فأبى الله إلا أن يتمّ نوره بأمير المؤمنين عليه السلام.

فلما توفي أبو الحسن عليه السلام (الإمام موسى بن جعفر) جهد علي ابن أبي حمزة وأصحابه في إطفاء نور الله، فأبى الله إلا أن يتمّ نوره، وإنّ أهل الحقّ

---

(١) الشيخ الطوسي / الغيبة / ٥٠ + المجلسي / البحار: ٤٨ / ٢٥٧.

(٢) ظ: الشيخ الصدوق / عيون أخبار الرضا ٢ / ٢١٦ + البحار ٤٨ / ٢٦٠.

(٣) ظ: الشيخ الطوسي / الغيبة / ٥١.

إذا دخل عليهم داخل سرّوا به، وإذا خرج عنهم خارج لم يجزعوا عليه، وذلك أنهم على يقين من أمرهم، وإنّ أهل الباطل إذا دخل فيهم داخل سرّوا به، وإذا خرج عنهم خارج جزعوا عليه، وذلك أنهم على شكّ من أمرهم، إنّ الله جَلَّ جَلالُه يقول: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾[١].

قال: ثم قال أبو عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: المستقرّ الثابت، والمستودع المعار»[٢].

ولما صرح الحقّ عن وجهه، انتهى أمر هذه الفرقة، وذهبت أدراج الرياح، وكأنها لم تكن.

ولئن انشقّت فرق الشيعة من الداخل، فقد انشقّ المسلمون من الخارج، فوفدت عليهم الرياح الصفراء يحملها الأعاجم في كثير من الضغط على النفوس الضعيفة والأحلام الطائشة، وقد استأثرت الشعوبية بطائفة منهم، واستقطبت المزدكية والزرادشتية والمانوية جيلاً من الناس، وأسفرت حركات الإلحاد والزندقة عن إتباع وسائرين بالركاب، وقد شاء أربابها تزيين مبادئهم بشعارات برّاقة لم تظهر حتى اختفت، ولكنها أثرت في الحياة الفعلية إيّما تأثير، ولكنها عاشت في أوهام العقول ولم تبلغ الأفئدة، وقد وقف منها المسلمون موقف المناضل المستميت، وكان الدور الأكبر للإمام موسى بن جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ بارز السمات والآثار، فرفضها المجتمع المسلم، وعادت ادّعاءاتها باهتة الألوان، فما استقرّت حتى تبدّدت، وما اجتمعت حتى تفرّقت.

ولئن أتاح المناخ السياسي لهذه المبادئ الوافدة أن تتطاول، فقد أتاحت قيادة أهل البيت الفرصة للعمل على الإطاحة بها، كما ستشاهد هذا في المبحث الآتي.

---

(١) سورة الأنعام / ٩٨.

(٢) الكشّي / الرجال / ٢٧٨ + المجلسي / البحار ٤٨/ ٢٦١.

الإمام في خضم التيار الكلامي

واستبق الإمام موسى بن جعفر عليه السلام خُطا المتكلّمين، وبادر إلى الدفاع عن التوحيد، وأبطل شبهات الانحراف، وحمل الفكر على المحجّة البيضاء، كما حدب على إيصال المفردات الرائدة إلى الذهن الإنساني بيسر وسماح من خلال ذلك الوهج اللمّاع لاستلهام الحقائق ناصعة مجرّدة. فللإمام رسالة في التوحيد بلغ بها الذروة في الحديث عن الخالق وصفاته، وتنزيه البارئ المصّور من كل المقولات الضّالة، وافتقار الناس إليه تعالى واستغناؤه عن الخلق، بما يعتبر سجلّاً حافلاً بأصول التوحيد، وهو بمعطياته لا نظير له في تأريخ حضارة الإنسان.

بدأ الإمام عليه السلام في هذه الرسالة: بحمد الله الدالّ على وجوده بمخلوقاته، والمستشهد بآياته على قدرته.

وذهب الإمام أنّ صفات الله عين ذاته، فلا يحاط بحدّ، بصيرٌ لا بأداة، سميع لا بآلة، لا تدركه العقول لقصورها عن ذلك، وهو في غاية الظهور لتجرّده عن الحجب، الديانةُ معرفتُهُ، وكمال معرفته توحيده، إلى آخر ما

أبان عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وإنّ من كمال البحث العقلي إثبات نصّ هذه الرسالة.

قال الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الحمد لله الملهم عباده حمده، وفاطرهم على معرفة ربوبيته، الدّال على وجوده بخلقه، المستشهد بآياته على قدرته، الممتنعة من الصفات ذاته، ومن الأبصار رؤيته، ومن الأوهام الإحاطة به، لا أمد لكونه، ولا غاية لبقائه، لا تشمله المشاعر، ولا تحجبه الحجب، والحجاب بينه وبين خلقه بأَخَلْقُهُ إياهم، لامتناعه مما يمكن في ذواتهم، ولا مكان مما يمتنع منه، ولافتراق الصانع من المصنوع، والحادّ من المحدود، والربّ من المربوب، والواحد بلا تأويل عدد، والخالقُ لا بمعنى حركة، والبصير لابأداة، والسميع لا بتفريق آلة، والشاهد لا بمماسة، والباطن باجتنان، والظاهر البائن لا بتراخي مسافة، أَزَلُهُ نهيٌ لمجاول الأفكار، ودوامه ردعٌ لطامحات العقول، قد حسر كنهه نوافذ الأبصار، وقمح وجوده جوائل الأوهام.

أول الديانة به معرفته، وكمال معرفته توحيده، وكمال توحيده نفي الصفات عنه بشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة الموصوف أنه غير الصفة، وشهادتهما جميعاً بالتثنية.

الممتنع من الأزل، فمن وصف الله فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن عدّه فقد أبطل أَزَلُهُ، ومن قال: كيف؟ فقد استوصفه، ومن قال: فيم؟ فقد ضمنه، ومن قال: علامَ؟ فقد جهله، ومن قال: أين؟ فقد أخلى منه، ومن قال: ما هو؟ فقد نعته، ومن قال: إلامَ؟ فقد غاياه، عالم إذ لا معلوم، وخالقٌ إذ لا مخلوق، وربّ إذ لا مربوب، وكذلك يوصف ربنّا، وفوق ما يصفه الواصفون»[1].

ولا أعلم وثيقة توحيدية نابضة كهذه الوثيقة في أدلّتها وإيجازها

---

(١) الكليني / أصول الكافي ١ / ١٣٩ - ١٤٠.

وبلاغتها، إلاّ أن تكون لأمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام وأولاده المعصومين، فموردهم واحد، ورافدهم واحد.

وفي مجال التجسيد، دحض الإمام الأقوال بالحركة، وَنَزَّهَ الباري عز وجل عن الانتقال والتخطّي، لأنّ ذلك وصفٌ للمتحرّك، والمتحرّك لا يكون بمكانين في آنٍ واحد، والله تعالى فوق الزمان والمكان، وهو على سواء في القرب والبعد، فلا يحدّ بمكان، ولا يتحرّك بجوارح، ولا يتحدّث بفم.

قال الإمام عليه السلام: «لا أقول إنّه قائم فأزيله عن مكانه، ولا أحدّه بمكان يكون فيه، ولا أحدّه أن يتحرّك في شيء من الأركان والجوارح، ولا أحدّه بلفظ شق فم، ولكن كما قال تعالى: ﴿.... كُن فَيَكُونُ﴾[1]. بمشيئته من غير تردّد في نفس، صمداً فرداً، لم يحتج إلى شريك يذكر له ملكه، ولا يفتح له أبواب عمله»[2].

وفي السياق نفسه نفى الإمام نزول الله فيما تزعم بعض المرويّات، ونفى احتياجه للنزول، فكل شيء محتاج إليه، وهو ليس بحاجة إلى شيء.

قال الإمام عليه السلام:

«إنّ الله لا ينزل، ولا يحتاج أن ينزل، إنما منظره في القرب والبعد سواء، لم يبعد منه قريب، ولم يقرب منه بعيد، ولم يحتج إلى شيء بل يُحتاج إليه، وهو ذو الطول لا إله إلا هو العزيز الحكيم»[3].

ثمّ دعم الإمام هذا الرأي بالدليل العقلي، فإنّ النزول دليل الحركة، والمتحرّك له من يحرّكه، وذلك من المحدثات، والله تعالى هو الأزلي القديم. قال الإمام عليه السلام:

---

(١) سورة ياسين / ٨٢.

(٢) الكليني / أصول الكافي ١ / ١٢٥.

(٣) الكليني / الكافي ١ / ١٢٥.

«أما قول الواصفين: إنه ينزل تبارك وتعالى، فإنما يقول بذلك من ينسبه إلى نقص أو زيادة، وكل متحرّك يحتاج إلى من يحرّكه أو يتحرّك به، فمن ظنّ بالله الظنون فقد هلك، فاحذروا في صفاته من أن تقفوا له على حدّ تحدونه بنقص، أو زيادة، أو تحريك، أو تحرّك، أو زوال، أو استنزال، أو نهوض، أو قعود، فإنّ الله جلَّ وعزَّ عن صفة الواصفين، ونعت الناعتين، وتوهّم المتوهّمين»[١].

وكما نفى الإمام الحركة وأبطلها، فقد نفى القول بالجسم والصورة والمثلية.

قال الإمام: «سبحان من ليس كمثله شيء، لا جسم ولا صورة»[٢].

وعرض على الإمام قول أهل التجسيم فيما نصّه:

«إنّ الله جسم ليس كمثله شيء، عالم، سميع، بصير، قادر، متكلّم، ناطق، والكلام والقدرة والعمل تجري مجرى واحداً، ليس شيء منها مخلوقاً».

فردّ الإمام هذه المزاعم الفجّة، وحمل على قائلها، بقوله: «قاتله الله، أما علم أنّ الجسم محدود، والكلام غير المتكلّم، معاذ الله!! وأبرأ إلى الله من هذا القول. لا جسم، ولا صورة، ولا تحديد، وكل شيء سواه مخلوق، إنما تكون الأشياء بإرادته ومشيئته من غير كلام، ولا تردّد نفس، ولا نطق لسان»[٣].

إنّ هذا المنطق الفيّاض بروائعه الكلامية ينطلق من معرفة خارقة بحقائق الأشياء، ومن نفس أثيرة غمرها الإيمان، فنظرت في صفات الباري بعين البصيرة، وكانت الأدلة البرهانية تتقاطر معها كالسيل إذا انحدر، لذلك كان

---

(١) الكليني / الكافي ١ / ١٢٥.
(٢) المصدر نفسه ١ / ١٠٤.
(٣) االمصدر نفسه ١ / ١٠٦.

المتكلّمون ينتظمون في موقع الإفادة والاستزادة من الإمام، لا في موضع الجدل والمناظرة، فهم بإزاء أحد عباقرة الدنيا في استقراء المفاهيم وإبراز المصاديق، وإنارة السبيل بين أيدي الباحثين الإلهيين.

لقد سئل الإمام عن إرادة الله تعالى، فأجاب بديهةً:

«الإرادة من الخلق الضمير، وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل. وأمّا من الله فإرادته إحداثه لا غير، لأنه لا يروي، ولا يهمّ، ولا يفكّر، وهذه الصفات منفيةٌ عنه، وهي صفات الخلق، فإرادة الله الفعل لا غير ذلك، يقول له: ﴿.... كُن فَيَكُونُ﴾[1] بلا لفظ، ولا نطق، ولا لسان، ولا همة، ولا تفكّر، ولا كيف لذلك، كما أنّه لا كيف له»[2].

أرأيت كيف أفرغت البلاغة جوهرها في هذا النصّ الفريد، فميّز فيه بين إرادة الخالق والمخلوق، بأبلغ لفظ، وأوجز بيان، وأوضح أسلوب. فإرادة الإنسان قرار داخلي محدث فيما يبدو له من الأفعال بعد التأمّل والتفكير، وإرادة الله تعالى إحداثه للشيء ليس غير، وهذا الإحداث يتمّ بأمر الكينونة المطلقة منه، دون لفظ وذبذبة لسان، ولا نطق ولا همّ ولا تفكير.

والطريف في هذا الملحظ أنّ الإمام يتحدّث عن إرادة الله في شقّيها التكويني والتشريعي، بما لم يسبق إليه من قِبل فلاسفة عصره والمتكلّمين. يقول الإمام عليه السلام: «إنّ لله إرادتين ومشيئتين: إرادة حتم، وإرادة عزم، ينهى وهو يشاء، ويأمر وهو يشاء، أو رأيت أنّه نهى آدم وزوجته أن يأكلا من الشجرة وشاء ذلك؟ ولو لم يشأ أن يأكلا لما غلبت مشيئتهما مشيئة الله تعالى، وأمر إبراهيم بذبح إسحاق (ولده) ولم يشأ أن يذبحه، ولو شاء لما غلبت مشيئة إبراهيم مشيئة الله تعالى»[3].

---

(١) سورة ياسين / ٨٢.

(٢) الكليني / أصول الكافي ١ / ١٢٧.

(٣) الكليني / أصول الكافي ١ / ١٥١.

وقد عقّب الأستاذ باقر شريف القرشي على هذا بقوله: «وبيان مراده عليه السلام: أنّ الإرادة تنقسم إلى الإرادة التكوينية الحقيقية، وإلى الإرادة التشريعية الاعتبارية، فإرادة الإنسان التي تتعلّق بفعل نفسه إرادة تكوينية تؤثر في أعضائه إلى إيجاد المطاوعة إلاّ لمانع، وأما الإرادة التي تتعلّق بفعل الغير كما إذا أمر بشيء أو نهى عنه، فإنّ هذه الإرادة ليست تكوينية بل هي تشريعية لأنها لا تؤثّر إيجاد الفعل أو تركه من الغير، بل تتوقّف على الإرادة التكوينية له.

وأمّا إرادة الله التكوينية فهي التي تتعلّق بالشيء، ولابدّ من إيجاده، ويستحيل فيها التخلّف.

وأمّا إرادته التشريعية فهي التي تتعلّق بالفعل من حيث أنّه حسن وصالح. وأمّا نهي الله لآدم عن الأكل... وأمره لإبراهيم بالذبح... فإنّ النهي والأمر فيهما تشريعيان، كما أنّ المشيئة هي المشيئة التكوينية.

والأخبار الواردة عن أئمة الهدى عليهم السلام بأنّ الذي جعل قرباناً للبيت الحرام هو إسماعيل دون إسحاق»[1].

وها أنت ترى أنّ هذا المناخ العقلي المتطوّر لدى الإمام كان زاخراً بعبارات تنبض بالجمال الفني لغةً، وتصقل بصفاء الأسلوب أداءً، مما حوّل المعركة الكلامية المتنافرة إلى مادة تفاهم ونشاط عقلي يبتعد بأفكاره عن الانكفاء وراء التهم، ويتحاشى الهجوم المرير. على أنّ هذا المناخ الذي أوجده الإمام كان يتردّد في أفق ملتهب لا معقول، إلاّ أنّ الإمام قد عدّل من مساره وقاده إلى شواطئ الأمن.

ولم يكن الإمام إلا داعيةً إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، عليه إبداء الحقائق مجرّدة، ووضع الأعلام لائحة، فمن أخذ بها فقد أخذ

---

(١) باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر ٢ / ١٥٣.

بالسهم الأرشد، ومن أبى ذلك عليه فهو وشأنه.

فقد دحض الإمام مزاعم أهل الجبر باستدلال بديهي أنّ الله تعالى بأمره ونهيه قد جعل السبيل ممهّداً للأخذ بما أمر، وجعله كذلك في ترك ما نهى عنه، ولم يجبر أحداً على عمل، قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنّ الله خلق الخلق فعلم ما هم صائرون، فأمرهم ونهاهم، فما أمرهم بشيء فقد جعل لهم السبيل إلى الأخذ به، وما نهاهم عنه من شيء فقد جعل لهم السبيل إلى تركه، ولا يكونون آخذين ولا تاركين إلاّ بإذنه، وما جبر الله أحداً من خلقه على معصيته، بل اختبرهم بالبلوى، وكما قال:

﴿... لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ...﴾[1][2].

ومن هذا القبيل ما روي عن الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: سأل رجلٌ أبي: هل منع الله عما أمر به؟ وهل نهى عما أراد؟ وهل أعان على ما لم يرد؟

فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: أمّا قولك هل منع عما أمرَ به، فلا يجوز ذلك عليه، ولو جاز ذلك لكان قد منع إبليس عن السجود لآدم، ولو منعه لقدره ولم يلعنه.

وأمّا قولك هل نهى عما أراد؟ فلا يجوز، ولو جاز ذلك لكان حيث نهى آدم عن أكل الشجرة أراد أكلها... والله تعالى لا يجوز عليه أن يأمر بشيء ويريد غيره.

وأمّا قولك: هل أعان على ما لم يرد؟ فلا يجوز ذلك عليه، وتعالى الله عن أن يعين على قتل الأنبياء وتكفيرهم، وقتل الحسين بن علي والفضلاء من ولده، وكيف يعين على ما لم يرد؟ وقد أعدّ جهنم لمخالفيه، ولعنهم على تكذيبهم لطاعته وارتكابهم لمخالفته، ولو جاز أن يعين على ما لم يرد

---

(١) سورة الملك / ٢.

(٢) الطبرسي / الاحتجاج / ٢١٠.

لكان أعان فرعون على كفره وادّعائه أنّه ربّ العالمين، أفترى أنّه أراد من فرعون أن يدّعي الربوبية...»[١]

وهذا أبو حنيفة، النعمان بن ثابت، يسأل الإمام وهو صبي.

قال له: «يا بن رسول الله؛ ما تقول في أفعال العباد؛ ممن هي؟

قال الإمام: يا نعمان، قد سألتَ فاسمع، وإذا سمعتَ فعِهِ، وإذا وعيت فاعمل.

إنّ أفعال العباد لا تخلو من ثلاث خصال:

إمّا من الله على انفراده، أو من الله والعبد شركة، أو من العبد بانفراده.

فإن كانت من الله على انفراده، فما باله سبحانه يعذّب عبده على ما لم يفعله مع عدله ورحمته وحكمته؟

وإن كانت من الله والعبد شركة، فما بال الشريك القوي يعذّب شريكه على ما قد شركه فيه، وأعانه عليه؟

ثم قال الإمام: استحال الوجهان يا نعمانّ؟ فقال: نعم.

قال الإمام: فلم يبقَ إلاَّ أن يكون من العبد على انفراده...»[٢].

وهذا تأكيد على أصل العدل من جهة، وهو نفي للجبر والتفويض من جهة أخرى.

وقد كرّر أبو حنيفة نفسه هذا السؤال للإمام بصيغة أخرى تحوم حول الغرض ذاته، إلاّ أنّه خصّص السؤال بصدور المعصية.

فأجابه الإمام الجواب نفسه تقريباً بطرح جديد.

قال أبو حنيفة للإمام: «جعلت فداك ممن المعصية؟...

قال الإمام: إنّ المعصية لابدّ أن تكون من العبد أو من ربّه، أو منهما

---

(١) هاشم معروف الحسني / سيرة الأئمة الاثني عشر ٢ / ٣٢٩.

(٢) المجلسي / بحار الأنوار: ٤٨ / ١٧٥ وانظر مصدره.

جميعاً، فإن كانت من الله تعالى فهو أعدل وأنصف من أن يظلم عبده، ويأخذه بما لم يفعله. وإن كانت منهما فهو شريكه، والقويّ أولى بإنصاف عبده الضعيف. وإن كانت من العبد وحده فعليه وقع الأمر، وإليه توجّه النهي، وله حق الثواب والعقاب، ووجبت له الجنة والنار.

قال أبو حنيفة: فقلت: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾(١)(٢).

ومع أنّ أبا حنيفة من القائلين بالجبر، وممن قيّدوا حرية الإرادة، فإنه قد سجّل إعجابه بما أجاب به الإمام، سيما والرواية تقول بأنّ الإمام كان آنذاك صغير السن.

وكان الإمام لا يبخل على أحد بالإفادة منه في النظر العقلي، لا سيما في أصول الدين وفروعه، والظاهرة الماثلة للعيان أن جرت بينه وبين هارون الرشيد عدة مباحثات ومناظرات واحتجاجات، يأتي بعضها في محلها، ولكن الملفت للنظر حقّاً أن يطلب إليه الرشيد أن يكتب له كلاماً موجزاً له أصول وفروع، يفهم تفسيره... فكتب الإمام:

«بسم الله الرحمن الرحيم؛ أمور الدنيا أمران: أمر لا اختلاف فيه، وهو إجماع الأمة على الضرورة التي يضطرّون إليها، والأخبار المجمع عليها، المعروض عليها شبهة، والمستنبط منها كلّ حادثة، وأمر يحتمل الشك والإنكار، وسبيل استنصاح أهل الحجّة، فما ثبت لمنتحليه من كتاب مستجمع على تأويله، أو سنّة عن النبي ﷺ لا اختلاف فيها، أو قياس تعرف العقول عدله، ضاق على من استوضح تلك الحجّة ردّها، ووجب عليه قبولها، والإقرار والديانة بها، وما لم يثبت لمنتحليه به حجّة من كتاب مستجمع على تأويله، أو سنّة عن النبي ﷺ لا اختلاف فيها، أو قياس

---

(١) سورة آل عمران / ٣٤.

(٢) ظ: السيد المرتضى / أمالي المرتضى: ١/ ١٥١ + ابن شهرآشوب / المناقب: ٣/ ٤٢٩ + المجلسي / بحار الأنوار: ٤٨/ ١٠٩.

تعرف العقول عدله، وسع خاصَّ الأمة وعامَّها الشكّ فيه والإنكار له كذلك، هذان الأمران من أمر التوحيد فما دونه إلى إرش الخدش وما دونه، فهذا المعروض الذي يعرض عليه أمر الدين، فما ثبت لك برهانه اصطفيته، وما غمض عنك ضوؤه نفيته.

ولا قوة إلا بالله، وحسبنا الله ونعم الوكيل»[١].

وهذا الانفتاح على المناخ العقلي لدى الإمام لم يكن مقتصراً على المسلمين وحدهم، بل تجاوزه إلى الملل والنحل الأخرى.. فقد روى هشام بن الحكم أنّ الإمام موسى بن جعفر قال لأبرهة النصراني: كيف علمك بكتابك؟ قال: أنا عالم به وبتأويله.

قال: فابتدأ الإمام عليه السلام يقرأ الإنجيل.

فقال أبرهة: والمسيح لقد كان يقرؤها هكذا؛ وما قرأ هكذا إلاّ المسيح، وأنا كنت أطلبه منذ خمسين سنة. فأسلم على يديه[٢].

واجتمع الإمام موسى بن جعفر براهب، وجرت بينهما المحاورة الآتية:

قال الراهب للإمام: يا هذا أنت غريب؟

قال الإمام: نعم.

قال الراهب: منّا أو علينا؟

قال الإمام: لستُ منكم.

قال: أنتَ من الأمّة المرحومة؟

قال الإمام: نعم.

قال: أفمن علمائهم أنتَ أم جهّالهم؟

قال الإمام: لستُ من جهّالهم.

---

(١) الشيخ المفيد / الاختصاص / ٥٨.

(٢) ابن شهرآشوب / المناقب ٣ / ٤٢٦.

قال: كيف طوبى أصلها في دار عيسى وعندكم في دار محمد، وأغصانها في كل دار؟

قال الإمام: الشمس قد وصل ضوؤها إلى كل مكان وكل موضع وهي في السماء.

قال الراهب: وفي الجنة لا ينفد طعامها وإن أكلوا منه، ولا ينقص منه شيء؟

قال الإمام: السراج يقتبس منه ولا ينقص منه شيء.

قال الراهب: وفي الجنة ظلٌ ممدود؟

فقال الإمام: الوقت الذي قبل طلوع الشمس كلها؛ ظلٌ ممدود. وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ...﴾[1].

قال الراهب: ما يؤكل ويشرب في الجنة لا يكون بولاً ولا غائطاً؟

قال الإمام: الجنين في بطن أمه...

قال الراهب: أهل الجنة لهم خدم يأتونهم بما أرادوا بلا أمر؟

قال الإمام: إذا احتاج الإنسان إلى شيء عرفت أعضاؤه ذلك، ويفعلون بما أرادوا من غير أمر.

قال الراهب: مفاتيح الجنة من ذهب أو فضة؟

قال الإمام: مفتاح الجنة لسان العبد: لا إله إلاّ الله.

قال صدقت، وأسلم والجماعة معه[2].

ولا تحسبنَّ المناخ العقلي لدى الإمام كان مقتصراً على المناظرات والمحاورات، وإنما هو خصّيصة رسالية سيّرها الإمام ما وجد إلى ذلك سبيلاً، ومهمّة قيادية وجّه بها الأجيال نحو المعرفة الإلهية والكمال النفسي.

---

(١) سورة الفرقان / ٤٥.

(٢) ابن شهرآشوب / المناقب ٣ / ٤٢٧.



الفصل الرابع

الإمامُ وطواغيت عصره

١ ـ المبادئ السياسية المتقابلة.

٢ ـ في استخلاف المنصور.

٣ ـ في عهد المهدي العباسي.

٤ ـ في أيام موسى الهادي.

٥ ـ في مملكة هارون الرشيد.

المبادئ السياسية المتقابلة

وكانت السلطات القائمة في عصر الإمام موسى بن جعفر عليه السلام تنطلق سياسياً من واقع أرستقراطي قائم على أساس الأثرة والاستعلاء، بينما كانت سياسة الإمام وهي تنطلق من واقع إسلامي متوازن، معنياً للعدل الاجتماعي المفقود، وألقاً من النصح الكريم في بعث القدرات الإنسانية، ودليلاً من القيم التي تشجب عبادة الدولة والأصنام البشرية، مؤكدة على المبادئ التي تعتبر الإنسان مخلوقاً رفيعاً له كرامته المضمونة في إطار تعليمات الدولة الإسلامية التي تستنكر كون الفرد عبداً للدولة.

ومن هنا كانت الفروق المميزة بين واقعين متناقضين، واقع الاستبداد المطلق المتمثّل بسلاطين الجور، وواقع الكرامة الإنسانية المتمثّلة بأفكار الإمام.

وكان استنطاق الوثائق التأريخية المحايدة، واستحضار النصوص الطريفة لحياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في الرصد والتوجيه والتأثير، قد أحدثت في الأفق العام صوتاً مدوّياً حاول البحث إلقاء المزيد من الضوء على معطياته، وقد تأكّد لنا من أبعاده وجوانبه استيعاب الإمام المشروع

الطموح البشري في العدل والمساواة والحرية الاجتماعية، مما أوجد حالة كبرى في الاستنفار اليقظ من ركود الماضي إلى الانبعاث الجديد في التحرّر والانعتاق من تجاوزات السياسة الجافّة التي انتهجتها خلائق السوء ودعاة التخريب الجماعي، فكان الانقلاب الجذري في فكر الإنسان المسلم الواعي وحياته الحقيقية منطلقاً ـ في ضوء توجيه الإمام ـ لمعالجتهِ الوضع الشاذ في أنماطه المأساوية، إذ انفتح العقل الإنساني على معايير جديدة في الأحكام والأعراف والتقييم الموضوعي تختلف على تلك الأعراف الشائعة وراء حجز الأفكار ووأد المنطلق المنطقي للإنسان، مما جعل النظام العباسي يعيش في عزلة قاتلة بين أفياء القصور وأحضان الجواري والمولدات، وهو يبتعد عن هموم الشعب، والشعب يبتعد عن همومه، فهما مفترقان لا يلتقيان، وإن فرضت السيطرة بالقوة والإكراه نوعاً من الطاعة، ولكن هذا الفرض قد يتعكّر صفوهُ بالانتفاضات المسلّحة ـ كما سترى ـ فلم يكتب للدولة العباسية الاستقرار السياسي إلاّ في ظلّ مسرحيات مفضوحة الغايات حاولها النظام للحلّ المؤقّت، كالتجائه إلى نصب الإمام الثامن من أئمة أهل البيت؛ الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في مركز ولاية العهد للمأمون ريثما تهدأ العاصفة.

ولقد أصيب المجتمع الإسلامي بالشلل التام والانكماش على الذات جرّاء ما يعانيه من مخلّفات هذا الوضع الغريب حتى أسقط في يده، ولكن التجربة الرافضة لظواهر التمزّق الداخلي، والتي نهض بها الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بصلابة وأناة، تعطي الجماعة الإسلامية زخماً متحرّكاً في مجابهة المناخ المريض الملوّث، وتمدّ الأمة قوةً وفتوةً للانطلاق الغاضب على العنف والتسلّط.

وكان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام نموذجاً لا مثيل له في إشراق الضمير

وتوهّج الذات، فحقّق مبدأ «الغيرية» الذي يعيش فيه القائد الفذ لغيره من الناس لا لنفسه، وتلك هي التضحية التي ندبت لها شريعة السماء.

لقد كان بإمكان الإمام أن يغضّ طرفاً عن تجاوزات الحكم العباسي فحسب، لا أن يجاريه أو يؤيّده، فالحاكم لا يطمح بذلك، ولو تجاوز الإمام ما رسمه لنفسه لعاش في بحبوحة من النعيم، بين القصور الفارهة والحياة الرغيدة، ولكنه لم يخلق لهذا قط، بل انتصب شاخصاً ماثلاً للمبادئ الرسالية التي ترفض كل صيغ المحاباة والاستئثار بحقوق الفرد والأمة، فكانت المجابهة للاضطهاد والاستبداد تشكّل نظرة مستقبلية لإرساء مرجعية أهل البيت في إثراء الضمير الإنساني بالموقف الصلب، والمبدأ الثابت، والحياة الحرّة الكريمة، دونما إراقة دماء بريئة، أو إثارة معارك عقيمة، فليكن والحالة هذه هو الضحية لهذا التوجّه الناهض، فما خُلِقَ الإمام ليريح أو يستريح، بل ليناضل ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وكان تكليفه الشرعي هو الذي يملي عليه طبيعة العمل والتعبير عن الموقف بطرقه الخاصة التي تتفادى الصراع المرير بين الجمهور الأعزل المضطهد، وبين القوى الفاعلة وهي تتسلّح بالجبروت والجيش المدرّب، وبذلك استطاع الإمام تحقيق هدفين مهمّين في سهم واحد:

الأول: مجابهة التعالي وشريعة الغاب؛ بالقول الصارم، أو النضال السلبي الهادر، أو الكلمة النافذة إلى الأعماق، وهي تزلزل عروش الطغاة وكبرياء الجبابرة.

الثاني: الإبقاء بحدود كبيرة على البقية المؤمنة، دون التفريط بها في خنادق القتال وميادين الحروب المدمّرة. فقد رأى الإمام ـ على قلّة أنصاره ـ أنّ القتال لا يحقّق له نصراً فعلياً ولا مستقبلياً، فعليه أن يسلك بأتباعه بحلم وروية، ويحفّزهم بإعداد القوة إلى الظرف المناسب.

وكان عصر الإمام قد أتاح له الالتقاء البغيض بطواغيت عصره من بني العباس، فكانت مبادئه متقاطعة مع كل من: أبي جعفر المنصور، والمهدي العباسي، وموسى الهادي، وهارون الرشيد، وهم يمثّلون الدولة العباسية في قوّتها وعنفوانها.

وسنلاحظ عن قرب مدى الاستهانة بالقيم الإنسانية والأخلاقية لدى هؤلاء، والإمام موسى بن جعفر كالجبل الأشم رسوخاً وثباتاً وقيماً.

في استخلاف المنصور

لم يكن المنصور حازماً كما صوّره مدوّنو التأريخ، ولم يكن داهية كما يصفه رواة الأحداث، بل كان من جبابرة الأرض الذين سفكوا الدماء، وانتهكوا الحرمات. ولم يكن ليتعامل بمنظور ديني على الإطلاق، وإنما هو الملك الدنيوي العقيم، فهو لا يتورّع عن ارتكاب أفظع الجرائم والموبقات إزاء تثبيت أركان مملكته، ولا أدلّ على ذلك ما اقترفه من قتل الحسنيين تحت كل حجر ومدر، ومن تتبّع آثار المعارضين إبادة وسجوناً وطوامير، حتى طفح الإناء بما فيه شدةً وقسوةً وتنكيلاً.

ومع أنّ التأريخ الرسمي قد منح الطغاة هالة من التعظيم وشيئاً من الإكبار، إلا أنّ شذرات من تقريراته قد فضحت ذلك الستار الشفّاف الذي أحيط بتلك الأبراج العاجيّة التي استقلّ في ظلالها دعاة الجور وقتلة الأبرياء.

لقد أنزل العباسيون بقيادة أبي جعفر المنصور أفدح العقوبات بأبناء عمومتهم من العلويين، لم يمنعهم عن ذلك قرابة أو لحمة نسب، ولم يردعهم دين أو ورع، وإنما هو الاستئثار الشامل بكل شيء، والأحكام العرفية الصارمة لأدنى مخالفة، ولم تكن جرائم المنصور نفسه بريئة من

القسوة الضارية التي أنست جرائم الجاهلية في عنفها وشدّتها، يضاف إليها الغدر بأقرب الناس، وأنصار النظام، وقادة الحركة العباسية أنفسهم، حتى قال الأستاذ السيد أمير علي الهندي:

«كان المنصور خدّاعاً لا يتردّد البتة في سفك الدماء، وتعزى قسوته إلى حقده البالغ حدّ الإفراط... سادراً في بطشه، ومستهتراً في فتكه، وتعتبر معاملته لأولاد علي عليه السلام صفحة من أسوأ صفحات التأريخ العباسي»(١).

ولم يكن أمر قسوته بمعزل عن تسليط الضوء على برنامجه الدموي في استئصال شأفة المعارضين السياسيين من قبل التأريخ، بل صرّح بأكثر من مصدر ومورد بآثار ذلك النهج الإرهابي المفجع في صوره المرعبة.

قال الطبري (ت ٣١٠هـ): إنّ المنصور: «أمر بأسطوانة مبنيّة ففرغت، ثم أدخل فيها محمد بن إبراهيم بن الحسن، فبني عليه وهو حيٌّ»(٢).

بل إنه عمد إلى جملة الأسرى من الحسنيين فكبّلهم بالقيود والأغلال حتى ماتوا في السجون(٣).

وقيل: إنهم وجدوا مسمّرين في الحيطان(٤).

قال السيوطي بأنه: «قتل خلقاً كثيراً حتى استقام ملكه»(٥).

وهو الذي أمر بضرب أبي حنيفة النعمان بن ثابت، ثمّ سجنه فمات بعد أيام(٦).

بل روى السيوطي: أنه قتل أبا حنيفة بالسمّ(٧).

---

(١) أمير علي الهندي / مختصر تأريخ العرب / ١٨٤.

(٢) الطبري / تأريخ الأمم والملوك ٧ / ٥٤٦.

(٣) المصدر نفسه ٧ / ٥٤٠.

(٤) اليعقوبي / التأريخ ٣ / ١٠٦.

(٥) السيوطي / تأريخ الخلفاء / ١٧٢.

(٦) محمد حسن آل ياسين / الإمام موسى بن جعفر / ١٤.

(٧) السيوطي / تأريخ الخلفاء / ١٧٢.

وهذه أمثلة شاردة على فظاظة أفعاله وسوء معاملته، مع شرائح من الناس والأبرياء منهم بخاصة، ولا أدلّ على ذلك من قتله الإمام الصادق عليه السلام فقضى مسموماً بأمره.

وقد عرضنا لشيء من سيرته في البطش الدموي في كتابنا: «الإمام جعفر الصادق عليه السلام زعيم أهل البيت» ونضيف هنا أنّه كان ممن يتلاعب بشريعة سيد المرسلين صلى الله عليه وآله، ويخالف أحكامها بأحكام ما أنزل الله بها سلطاناً.

«فقد دخل عليه ابن هرمة الشاعر المشهور بشرب الخمر، فقال له المنصور: ما حاجتك؟ قال ابن هرمة: تكتب إلى عاملك بالمدينة أن لا يحدّني إذا وجدني سكران!! فقال:

لا أعطل حدّاً من حدود الله. قال: تحتال لي!!

فكتب المنصور إلى عامله: من أتاك بابن هرمة سكراناً فاجلده مائة، واجلد ابن هرمة ثمانين.

فكان من يراه سكران يقول:

من يشتري مائة بثمانين، ثم يتركه ويمضي»[(١)].

وهكذا يجد المنصور المخرج لإباحة شرب الخمر وتعطيل الحدود، علماً بأنّه كان يتناول الخمرة، ولكنه لا يظهر لندمائه بشرب ولا غناء[(٢)]. وكان معروفاً بالفتك، ولقد غدر بأبي مسلم الخراساني قائد الدعوة العباسية، وبأبي سلمة الخلال وزير آل محمد كما وصفوه، وبعمّه عبد الله بن علي، وسواهم من أعيان رجاله.

وكان بخيلاً يضرب المثل بشحّه وبخله، ويجد ذلك مكرمة وحسن تدبير، ويحرص على خزائنه جمعاً واحتكاراً، والشعب المسلم يتضوّر

---

(١) السيوطي / تأريخ الخلفاء / ١٧٨.

(٢) المصدر نفسه / ١٧٩.

جوعاً وبؤساً، ويعلّل ذلك بقوله: «مَنْ قلَّ ماله قلّ رجاله، ومن قلّ رجاله قوي عليه عدوّه، ومن قوي عليه عدوّه اتضع ملكه، ومن اتضع ملكه استبيح حماه»[١].

وهكذا ترى حاكماً غادراً بخيلاً فاتكاً يتقمّص الخلافة الإسلامية، ويتبوّأ مقعد إدارة المسلمين بهذه الصفات المهزوزة، وكان حرياً بالتأريخ أن يكشف سود صحائفه، ولكن التأريخ يجري في ميدان الحكم سواء رضي الناس أم سخطوا.

وكان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قد قضى أكثر من عشرين عاماً في خلافة المنصور التي امتدّت بين عام ١٣٦هـ حتى عام ١٥٨هـ، وهي فترة ليست بالقصيرة، إذ أفنى زهرة شبابه في حياة هذا الحاكم، وهو يسفك الدماء بغير الحقّ، ويستبيح الذمام ابتداءً من القضاء على الحسنيين وانتهاءً بسمّ الإمام الصادق عليه السلام. وما رافق ذلك من المظالم الهائلة والإرهاب الجماعي، مما ذهب ضحيته آلاف المسلمين الرساليين، مضافاً إلى القضاء على شباب الهاشميين وشيوخهم قتلاً وتشريداً واعتقالاً. كما حدّث بذلك التأريخ[٢].

وكان الاضطهاد السياسي يتراوح في تلك الحقبة بين قطع الأعناق وقطع الأرزاق ومصادرة الحريّة، فكان على الناس وهي ترافق هذه الانتهاكات أن تحيا شاهد الخوف والهلع والفقر.

والإمام ينظر إلى هذا كله، ولا يستطيع تغيير ذلك جذرياً، وإن استطاع أن يفضحه على رؤوس الأشهاد سلباً أو ايجاباً، غاب عنه الأولياء إلّا صفوة تعدّ بأطراف الأصابع، إدّخرهم لتبليغ الرسالة، واستتر عنه الزعماء فقد

---

(١) اليعقوبي / التأريخ ٣ / ١٢١.
(٢) ظ: الأصبهاني / مقاتل الطالبيين / ٣٥٠.

ملئت غرائرهم بالأموال والرشاوى، وبقي في ضعفاء من الناس لا حول لهم ولا طول، والأمر يتنقّل بالفوضى من سيئ إلى أسوأ، والآفاق داكنة بين سحاب وضباب، والحياة مضطربة بين السيف والحيف، وقلق المسلمون على الإمام حينما كتب المنصور إلى واليه على المدينة عند وفاة الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام:

«إن كان الإمام قد أوصى إلى رجل بعينه، فقدّمه واضرب عنقه». فكتب الوالي إلى المنصور: إنّ الإمام الصادق قد أوصى إلى خمسة: أبي جعفر المنصور نفسه، ومحمد بن سليمان والي المدينة، وولده عبد الله الأفطح، وولده موسى، وزوجته حميدة.

فقال المنصور: ما إلى قتل هؤلاء من سبيل[1].

وكانت جرائم المنصور تتجاوز الحدود في الانتقام والتشفّي، وأكتفي بحديث «الخزانة» التي احتجزها لنفسه، ولم يطلع عليها أحداً، وهي محاطة بالسرّية والكتمان، حتى ظهر أمرها بعد وفاته بما تحدّث عنه محمد بن جرير الطبري بقوله:

«لما عزم المنصور على الحجّ دعا (ريطة بنت أبي العباس السفّاح) امرأة المهدي، وكان المهدي بالري قبل شخوص أبي جعفر، فأوصاها بما أراد، وعهد إليها، ودفع إليها مفاتيح الخزائن، وتقدّم إليها وأحلفها، ووكد الأيمان أن لا تفتح بعض تلك الخزائن، ولا تُطلع عليها أحداً إلّا المهدي، ولا هي إلا أن يصحّ عندها موته، فإذا صحّ ذلك اجتمعت هي والمهدي وليس معهما أحد حتى يفتحا الخزانة، فلما قدم المهدي من الريّ إلى مدينة السلام دفعت إليه المفاتيح وأخبرته ألا يفتحه، ولا يطّلِع عليه أحد حتى يصحّ عندها موته، فلما انتهى إلى المهدي موت المنصور، وولي الخلافة

(١) ظ: المجلسي / بحار الأنوار ٤٧ / ٣.

فتح الباب ومعه ريطة، فإذا بزُجٍّ[١] كبير فيه جماعة من قتلى الطالبيين، وفي آذانهم رقاع فيها أنسابهم، وإذا فيهم أطفال، ورجال شباب، ومشايخ عِدة كثيرة، فلما رأى المهدي ذلك ارتاع لما رأى، وأمر فحفرت لهم حفيرة، فدفنوا فيها، وعمل فوقها دكاناً»[٢].

وهكذا نجد شأن الطغاة الكبار في الانتقام اللاإنساني بأقرب الناس صلة ونسباً، ولا غرابة في ذلك ووصيته لولده المهدي تقول: «إني تركت بعض المسيئين من الناس ثلاثة أصناف: فقيراً لا يرجو إلا غناك، وخائفاً لا يرجو إلا أمنك، ومسجوناً لا يرجو الفرج إلّا منك»[٣].

ويعقّب على الرواية الأستاذ باقر شريف القرشي بقوله:

«إنه لم يترك بعض المسيئين من الناس على ثلاثة أصناف، وإنما ترك الناس جميعاً كذلك، فقد روّعهم بخوفه، وسلبهم الأمن والدعة، ونشر الفقر والمجاعة بينهم، وملأ السجون بالأحرار والمصلحين»[٤].

وكيف ترى حياة الإمام، وهو يعايش كل المآسي التي اجترحها المنصور في حقده؟ بلى مات المنصور وعمر الإمام ثلاثون عاماً أبقت في قلبه ذكريات اللوعة والمرارة والأسى، فكان بذلك يحيا الألم الكبير في كل ظواهره المروّعة.

---

(١) الزُّجُ: المكان الذي يزج فيه المعتقلون أي السجن أو المعتقل.

(٢) الطبري / تأريخ الأمم والملوك ٦ / ٣٢٠.

(٣) اليعقوبي / التأريخ ٣ / ٣٤٩.

(٤) باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر ١ / ٤٣١.

في عهد المهدي العباسي

واستقبل المهدي بن المنصور خلافة أبيه عام ١٥٨ هـ بموجة عارمة من اللهو والعبث والمجون، فقد استولى على مخزون الثراء الفاحش الذي تركه أبوه نتيجة بخله وتقتيره مما احتجز من مال المسلمين، فأرخى لنفسه الزمام في التحلّل والاستهتار والإسراف، وولَع بالغناء وموائد الفجور، فأصاب منها ما شاء، وأباح للمغنيين ما شاؤوا من الحرية والرخاء، وأصبح شعر بشار في الغزل الإباحي ينشد جهاراً، وبمجونه ينتشر سراً وخفاءً، حتى عيب على المهدي ذلك، فضيّق على بشار، ثم أطلق له العنان.

وقد فصل القول بذلك الدكتور أحمد أمين في مصادره[1].

وكان قد بلغ المهدي حسن صوت إبراهيم الموصلي وجودة غنائه، فقرّبه إليه، وأعلى من شأنه[2].

وكان المهدي مولعاً بشرب الخمر، ومعروفاً به، حتى أثار ذلك وزيره يعقوب بن داود فنهاه عن ذلك فلم ينتهِ، وقال له: «أبعد الصلاة في المسجد

(١) ظ: أحمد أمين / ضحى الإسلام ١ / ١١٢ - ١١٤.

(٢) ظ: الأصبهاني / الأغاني ٥ / ٥.

تفعل هذا»؟.

فما استمع له، وشجّعه على الخمرة بعض شعرائه، فقال:

فدع عنك يعقوب بن داود جانباً

وأقبل على صهباء طيبة النشر[١]

وكان المهدي أول من فتح باب الخلاعة والمجون في بني العباس، وأول من استجاب لشهواته ونزواته علناً، فنشأ جيل من الشباب في ميعة وضياع، وتجرّأ على الحرمات ذوو الفسق والفجور، وكانت نقلة نوعية في حياة الترف والسرف أشرفت فيها الدولة على التدهور، وصاحب ذلك البذخ الطائل الذي تجلّى في مراسم تزويجه لولده هارون الرشيد من زبيدة فيما استضاف به الناس في قصر الخلد على دجلة، فكان مجمل ما أنفق على ذلك من بيت مال المسلمين خمسين ألف ألف درهم، وألبست زبيدة قميصاً كلّه من الدّر الكبار، وثوباً كلّه من الذهب[٢].

بل ذهب الشابشتي إلى أكثر من هذا، فقال: «إنّ المهدي لمّا زوّج ابنه الرشيد بأم جعفر ابنة أخيه، استعدّ لها ما لم يستعدّ لامرأة قبلها من الآلة وصناديق الجوهر، والحلي، والتيجان، والأكاليل، وقباب الفضّة والذهب، والطيب، وأعطاها بدلة هشام (بن عبد الملك) ولم يُرَ في الإسلام مثلها، ومثل الحبّ الذي كان فيها، وكان في ظهرها وصدرها خط من ياقوت أحمر، وباقيها من الدّر الكبار الذي لا يوجد مثله»[٣].

أما الهبات الضخمة التي منحها لأبنائه وقوّاده وولاته فحدّث عن ذلك ولا حرج، فقد اشترى فصّاً من ياقوت أحمر بثلاثمائة ألف دينار، ووهبه لولده الهادي مما أوجد حالة من الذعر والهلع لدى سواد المسلمين الجياع.

---

(١) ظ: ابن الطقطقى / الفخري / ١٦٧.

(٢) ظ: باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر ١ / ٤٣٩.

(٣) الشابشتي / الديارات / ١٠٠.

وفي هذا المناخ الساخن نشأ ولده إبراهيم فكان شيخ المغنّين، وشبت ابنته علية بنت المهدي، فكانت زعيمة الغناء النسائي في العصر العباسي، وتفرعنت زوجته الخيزران فكان لها الباع الأطول في شؤون السياسة وإدارة السلطان.

وبذّر أموال الدولة على الشعراء، فحينما أنشده مروان بن أبي حفصة:

هل تطمسون من السماء نجومها
بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تدفعون مقالة من ربكم
جبريل بلغّها النبي فقالها
شهدت من الأنفال آخر آيةٍ
بتراثهم فأردتمُ إبطالها

وسمع المهدي ذلك، فزحف من مصلّاه حتى صار على البساط، وهو يقول: كم بيت هي؟ قال: مائة بيت.

فأمر له بمائة ألف درهم، وقال له:

«إنها لأول مرة أعطيها شاعراً في خلافة بني العباس»[(١)].

بهذا وأمثاله كانت تساس الدولة في عهد المهدي، وتبذر الأموال بين أتباعه وشهواته، أضف إليها تشجيعه الوضاعين الذين يخترعون الأخبار والروايات في ثلب العلويين، وضمّهم إليه بما افتروا من الكذب الصراح على النبي صلى الله عليه وآله[(٢)].

ولم يكن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في منأى عن شرور الحكم وجرائره، فقد كابد الكثير في عهد المهدي بما تحدّث عنه الرواة، لا لشيء،

---

(١) ظ: الخطيب البغدادي / تأريخ بغداد ٣ / ١٤٤.

(٢) ظ: المصدر نفسه ٢ / ١٩٣ + ٦ / ٣٤٦ + الطبري / تأريخ الأمم والملوك ٦ / ٣٩٧ + الطبرسي / الاحتجاج / ٢١٤.

إلا العداء السافر لآل بيت النبي ﷺ. وإلا الخوف المستطير من مكانة الإمام والتفاف المسلمين حول زعامته الدينية، بما عرف عنه من الورع والتقوى، وما اشتهر من الأثر العلمي العظيم.

ويبدو أنّ المهدي قد استدعى الإمام عدة مرات، واستقدمه إلى بغداد.

يقول الأستاذ محمد حسن آل ياسين:

«وقد نجح ذوو النفوس الخبيثة في سعيهم لتأزيم الموقف بين الإمام والسلطان، فاستدعي الإمام إلى بغداد، وحبس هناك باتفاق المؤرّخين مدة من الزمن.. وإنّ استدعاء الإمام وحبسه في عهد المهدي قد تكرّر أكثر من مرة... وذكر (القدمة الأولى على المهدي) دليل على تعدّد القدمات وتكرارها، وإن لم نعرف عددها وملابساتها بالتفصيل»[1].

وقد أشار الرواة إلى حادثتين في هذا السياق:

فقد كتب المهدي إلى عامله على المدينة بإرسال الإمام إلى بغداد، فتجهّز الإمام للسفر، والتقى أبا خالد (الزبالي أو الرماني) وكان منقبضاً، فقال له الإمام: مالي أراك منقبضاً؟

قال: كيف لا أنقبض، وأنت سائر إلى هذا الطاغية، ولا آمن عليك. فهدأ الإمام من روعه، وأخبره أن لا ضير عليه في سفره هذا، ويبدو أنّ الإمام سجن في هذا الاستدعاء، قال الخطيب: ولما حبس المهدي موسى بن جعفر، رأى المهدي في النوم علي بن أبي طالب، وهو يقول:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[2].

قال الربيع: فأرسل (المهدي) إليّ ليلاً، فراعني ذلك، فجئته فإذا هو يقرأ هذه الآية ـ وكان أحسن الناس صوتاً ـ وقال علي بموسى بن جعفر،

---

(١) ظ: محمد حسن آل ياسين / الإمام موسى بن جعفر / ٥٨ وانظر مصادره.

(٢) سورة محمد / ٢٢.

فجئته به، فعانقه، وأجلسه إلى جنبه، وقال: يا أبا الحسن، إنّي رأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في النوم يقرأ عليَّ كذا، فتؤمنني أن لا تخرج عليَّ أو على أحد من ولدي؟

فقال: آ لله، لا فعلت ذاك، ولا هو من شأني.

قال: صدقت. يا ربيع أعطه ثلاثة آلاف دينار، وردّه إلى أهله.

قال الربيع: فأحكمت أمره ليلاً، فما أصبح إلا وهو في الطريق خوف العوائق[1] وقد روي هذا الخبر في أكثر من خمسة عشر مصدراً بالتفصيل[2].

وسار الإمام عليه السلام، فالتقى أبا خالد في «زبالة» أيضاً، وكان السرور ظاهراً عليه، فقال له الإمام: «إنّ لهم إليَّ عودة لا أتخلّص منها»[3].

وهناك حادثة تروى في المناقب والبحار بالشكل الآتي:

«لما بويع محمد المهدي دعا حميد بن قحطبة نصف الليل، وقال: إنّ إخلاص أبيك وأخيك فينا أظهر من الشمس، وحالك عندي موقوف!!

قال: أفديك بالروح والمال والأهل والولد.

فلم يجبه المهدي؛ فقال: أفديك بالمال والنفس والأهل والولد والدين.

فقال: لله درّك؛ فعاهده على ذلك، وأمره أن يقتل الإمام الكاظم عليه السلام في السحر بغتةً. فنام فرأى علياً عليه السلام، يشير إليه، ويقرأ الآية السابقة..، فانتبه مذعوراً، ونهى حميداً عمّا أمره، وأكرم الكاظم ووصله»[4].

ولدى المقارنة في ضوء الروايتين نلحظ أنّ الإمام كان سجيناً عند الربيع أولاً، وعند حميد بن قحطبة ثانياً، وعلى هذا فإنّ اعتقال الإمام قد حدث مرّتين في عهد المهدي بن المنصور، كما نلحظ أنّ الإمام قد استقدم مرتين

---

(١) الخطيب البغدادي / تأريخ بغداد ٣ / ٣٠ - ٣١.

(٢) ظ: محمد حسن آل ياسين / الإمام موسى بن جعفر / ٥٩.

(٣) الشبلنجي / نور الأبصار / ٣٦.

(٤) ابن شهرآشوب / المناقب ٣ / ٤١٧ + المجلسي / البحار ٤٨ / ١٤٠.

عليه من المدينة إلى بغداد، فإذا علمنا مدى حقد المهدي على العلويين وشدّة بطشه بهم، كان ما استنتجناه مقارباً للواقع الذي حدث. وهكذا كان شأنه مع أبناء علي بن أبي طالب سجناً وتشريداً وقتلاً، فقد روى الطبري عن يعقوب بن داود وزير المهدي أنّ المهدي قال له:

هذا فلان بن فلان من ولد علي، أحبّ أن تكفيني مؤونته وتريحني منه، وتعجل ذلك... قال: قلت أفعل، قال: فخذه إليك... وأهدي له جارية حسناء.

قال يعقوب: وبعثت إلى العلوي، فأدخلته وسألته عن حاله... وإذا هو ألبّ الناس وأحسنهم إبانةً... قال لي: ويحك؛ يا يعقوب؛ تلقى الله بدمي، وأنا رجل من ولد فاطمة بنت محمد؟ قلتُ: لا والله، فهل فيك خيرٌ؟ قال إن فعلتَ خيراً شكرت لك.

فقلت له: أي الطرق أحبّ إليك؟ قال: طريق كذا، قلت: فمن هناك من تأنس به وتثق بموضعه؟ قال: فلان وفلان.

قلت: فابعث إليهما، وخذ هذا المال، وامضِ معهما.

وإذا الجارية (التي أهديت له) قد حفظت علي قولي، فبعثت به مع خادم لها إلى المهدي... وبعث المهدي من وقته ذاك فشحن تلك الطرق... فلم يلبثوا أن جاؤوه بالعلوي بعينه وصاحبيه والمال.

قال يعقوب: وأصبحت من غد ذلك اليوم، فإذا رسول المهدي يستحضرني...

فقال: يا يعقوب؛ ما حال الرجل؟

قلت: يا أمير المؤمنين قد أراحك الله منه.

قال: مات؟ قلت: نعم، قال: والله؟ ثم قال: قم فضع يدك على رأسي، قال: فوضعت يدي على رأسه وحلفت له به.

قال: يا غلام؛ اخرج إلينا ما في هذا البيت.

قال: ففتح بابه عن العلوي وصاحبيه والمال بعينه. قال: فبقيت متحيّراً وسقط في يدي. فقال المهدي: لقد حلّ لي دمك لو آثرت إراقته، ولكن احبسوه[١].

وهذا نموذج فرد من نماذج كثيرة تمثّل جور المهدي، وما صاحب أيام حكمه من المظالم طيلة أحد عشر عاماً من خلافته السوداء؛ ولقد عاش الإمام الكاظم عليه السلام أحداثها المأساوية واجتراحها الدموي.

وربما انتبه المهدي لنفسه، فرأى ما أحدثه من ثغرات عريضة في كيان الدولة، فحاول ائتلاف القلوب بأسلوب من الدجل والتضليل يظهر فيه بصورة المنصف في مروءة مزعومة.

فقد عُرض على الإمام موسى بن جعفر فيما يروى، أن يردّ عليه فدكاً، فرفض الإمام ذلك، ولمّا ألحّ عليه المهدي، قال: لا أقبلها إلا بحدودها. قال المهدي: وما حدودها؟

قال الإمام: الحدّ الأول عدن.فتغيّر وجه المهدي.

والحدّ الثاني: سمرقند. فأربّد وجهه.

والحدّ الثالث: إفريقية.

فقال له المهدي: والحدّ الرابع؟

قال الإمام: سيف البحر مما يلي الخزر وأرمينية. فقال له: لم يبقَ لنا شيء، فتحوّل إلى مجلسي!!

قال الإمام: لقد أعلمتك بأني إن حددتها لم تردّها[٢].

والمهدي أراد تطييب بعض الخواطر الناطقة باغتصاب أرض الزهراء،

---

(١) الطبري / تأريخ الأمم والملوك ٨ / ١٥٨ - ١٥٩.

(٢) هاشم معروف الحسني / سيرة الأئمة الاثني عشر ٢ / ٣٤٠.

والإمام أكّد الأمر باغتصاب الخلافة والدولة لا الأرض وحدها. ومهما يكن من أمر، فقد انتهت أيام المهدي بموته في المحرّم ١٦٩هـ[1].

(١) المسعودي / مروج الذهب ٣ / ٢٣٣.

في أيام موسى الهادي

وكانت أيام الهادي بن المهدي العباسي من أسوأ ما مرّ في حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام على قصر المدّة واخترام الأجل، إذ تملك عام ١٦٩هـ، وهلك لليال بقيت من ربيع الأول عام ١٧٠هـ[١]. وكان شاباً نزقاً تولّى الخلافة العباسية وعمره خمس وعشرون سنة[٢].

«وكان سادراً في الطيش والغرور، ومتمادياً في الإثم والفجور، وقد أراح الله منه العباد في بداية ملكه، فلم تطل أيامه، ولو امتدّ به العمر لواجه المسلمون في عهده أعنف المشاكل وأقساها، فقد كان طاغياً جبّاراً لا يتحرّج من سفك الدماء وإراقتها بغير حقّ، وقد أسرف في سفك دماء العلويين، فأنزل بهم العقاب الصارم، وقد أجمع رأيه على التنكيل بالإمام موسى عليه السلام، إلّا أنّ الله قصم ظهره قبل أن يقوم بذلك»[٣].

وكان شديد الوطأة على العلويين، وقد امتلأ عليهم حقداً نتيجة العقد النفسية المتأصّلة لديه، وقد ورث هذا الحقد لا عن كلالة، فقد رأيت جدّه وأباه وأخاه من ذي قبل، فإذا أضفت إلى هذا أنّه «قاسي القلب، شرس

---

(١) ظ: اليعقوبي / التأريخ ٣ / ١٣٩ + الطبري / تأريخ الأمم والملوك ٨ / ٢٠٥.

(٢) ظ: ابن عبد ربّه / العقد الفريد ٥ / ١١٦.

(٣) باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر ١ / ٤٥٧.

الأخلاق، صعب المرام»[1]. كانت الحصيلة المترقّبة الدماء إثر الدماء تراق فيها الأخلاق والقيم، وتحصد فيها النفوس البريئة من آل أبي طالب في قسوة من الإجراءات لا مثيل لها، فهو يتعقّبهم في الآفاق، ويطلب شبابهم وكهولهم في الأقاليم، فلم يفلت إلا القليل من قبضته، حتى قال اليعقوبي أنّه: «ألحّ في طلب الطالبين، وأخافهم خوفاً شديداً... وكتب إلى الآفاق في طلبهم»[2].

وقد تابعهم تحت كل حجر ومدر بعد «مأساة فخ» الشهيرة التي سنأتي على ذكرها في موقعها من البحث.

وكانت هذه الثورة التي قادها الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام قد استهدفت النظام العباسي، وذلك بسببٍ من مظالمه وسوء الإدارة، واضطهاد أهل البيت عليهم السلام ومن يمت إليهم بصلةٍ ما، وإذلال المسلمين ومصادرة الحرية واختلاس الأموال، وهي من أعنف الثورات في التأريخ الإسلامي ـ مأساة ـ بعد ثورة الطفّ، فقد استؤصل قادتها، وأبيد معسكرها، وقتل مفجّرها في «فخ» على ستّة أميال من مكّة المكرمة، وبقي القتلى ثلاثة أيام على وجه الأرض بلا دفن[3].

وقد احْتُزَّت رؤوسهم، فكانوا مائة رأس ونيفاً[4].

وقد اكتوى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بلهيب هذه الثورة، فتوجّه إليه إصبع الاتّهام جزافاً، حتى إنّ موسى الهادي قد همّ بقتل الإمام، ثم أعرض عنه، لعدم ثبوت تأييده لها[5].

---

(١) المسعودي / مروج الذهب ٣ / ٢٤٦.

(٢) اليعقوبي / التأريخ ٣ / ١٣٧.

(٣) ظ: اليعقوبي / التأريخ ٣ / ١٣٧ + المسعودي / مروج الذهب ٣/ ٢٤٨.

(٤) ظ: الطبري / تأريخ الأمم والملوك ٨ / ١٩٢ + ٨ / ١٩٧.

(٥) الآبي / نثر الدّر ١ / ٣٥٨ / طبعة القاهرة / ١٩٨٠م.

وذكر ابن حجر «أنّ موسى الهادي حبسه أولاً، ثم أطلقه»[١].

يقول الأستاذ محمد حسن آل ياسين:

«وعندما نريد البحث والتعمّق في معرفة دوافع الخليفة الهادي إلى حبس الإمام، أو إيصال الأذى إليه، أو العزم على قتله، فقد يرجّح في الظنّ أنّ ذلك مرتبط بقضية ثورة الحسين بن علي في سنة ١٦٩هـ، كما يرجّح أيضاً أن، يكون تراجعه عن تنفيذ ما عزم عليه بسبب ما علمه بعد ذلك من جلاوزته ومخبريه من عدم مشاركة الإمام في تلك الثورة، ورفضه دعوة ابن عمّه للخروج معه»[٢].

ومع هذا فقد عاش الإمام مأساتها بكل أبعادها كما سترى. ولم يكن موسى الهادي رجل دولة، ولا صاحب قيادة، وقد شغّل نفسه بالملذات الآثمة والشهوات الموبقة، فهو رجل خمر وغناء وخدين نديم ومجون، فقد «كان يتناول المسكر»[٣]. بل كان من المتهالكين على شرب الخمر، فكان أول خليفة عباسي أغري بالخمر[٤] وتبعه على ذلك هارون الرشيد[٥].

وكان الهادي خليعاً ماجناً، أقبل على اللهو والدعارة، فبذل المال العظيم على شهواته وطربه ومحافل الغناء حتى قال إسحاق الموصلي: «لو عاش لنا الهادي لبنينا حيطان دورنا بالذهب»[٦]. وقد غنّاه إبراهيم الموصلي بصوت فأطربه فوهب له ثلاثين ألف دينار[٧].

وهكذا تكون الشقة بين الشعب البائس اليائس وبين حكّامه وسلاطينه

---

(١) ابن حجر / الصواعق المحرقة / ١٢٢.

(٢) محمد حسن آل ياسين / الإمام موسى بن جعفر / ٦٠.

(٣) ظ: الطبري / تأريخ الأمم والملوك ٨ / ٢٢٢ + السيوطي / تأريخ الخلفاء / ١٨٦.

(٤) الجهشياري / الوزراء والكتّاب / ١٤٤.

(٥) ظ: الطبري / تأريخ الأمم والملوك ٦ / ٤٨٩ + الأصبهاني / الأغاني ٥/ ٢١٦.

(٦) ()ظ: الأصبهاني / الأغاني ٥ / ٢١٦.

(٧) المصدر نفسه ٥ / ٢٤١.

العابثين، الشعب يتطلّع إلى رغيف الخبز، والسلطان يسرف بإمعان تحقيقاً للذائذ الآثمة.

ويتجرّع الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ضروب المآسي في أيام هذا الطاغية المشهور، فيصبر على الأذى، يكظم غيظه، حتى إذا توعّده بالقتل جازماً، وأنهي إليه الخبر، وعنده جماعة من بني هاشم وأهل بيته، قال لأهل بيته: ما تشيرون؟

قالوا: نرى أن تتباعد عنه، وأن تغيّب شخصك منه، فإنّه لا يؤمن شرّه، فتبسّم الإمام، وقال مستشهداً:

زعمت سخينة أن ستغلب ربَّها

ولِيُغلَبن مغالبُ الغلّابِ

ثم رفع يده إلى السماء، فقال:

«اللهم كم من عدوٍ شحذ لي ظبةَ مُديتِهِ، وأرهفَ لي شبا حدّهِ، وداف لي قواتل سمومه، ولم تنم عين حراسته، فلمّا رأيت ضعفي عن احتمال الفوادح، وعجزي عن ملمّات الجوايح، صرفَت ذلك بحولك وقوتك. لا بحولي وقوتي، فألفيتُه في الحفير الذي احتفره خائباً مما أمّله في دنياه، متباعداً مما رجاه في آخرته، فلك الحمد على ذلك قدر استحقاقك سيدي، اللّهم فخذه بعزتك، وافلل حدّه عني بقدرتك، واجعل له شغلاً فيما يليه، وعجزاً عمن يناويه.

اللّهم وأعدني عليه عدوي حاضرة، تكون من غيظي شفاءً، ومن حقي عليه وفاءً، وصلْ اللّهم دعائي بالإجابة، وانظم شكايتي بالتغيير، وعرّفه عمّا قليل ما وعدت الظالمين، وعزمني ما وعدت في إجابة المضطرين، إنك ذو الفضل العظيم والمنّ القدم».

(ثم تفرق القوم، فما اجتمعوا إلّا لقراءة الكتاب الوارد عليه بموت

موسى بن المهدي)[١].

وكان دعاء الإمام مستجاباً وعلى الفور، حيث ورد البريد بهلاك موسى الهادي، وفي ذلك يقول بعض من حضر عند موسى بن جعفر من أهل بيته:

وساريةٍ لم تسرِ في الأرضِ تبتغي
محلاً.. ولم يقطعْ بها البعدَ قاطعُ

سرتْ حيثُ لم تُحدَ الركابُ ولم تُنخْ
لوردٍ.. ولم يقصرْ لها البعدَ مانعُ

تمرُّ وراءَ الليل.. والليل ضاربٌ
بجثمانِهِ.. فيه سميرٌ وهاجعُ

تفتحُ أبوابُ السماءِ.. ودونَها
إذا قرعَ الأبوابَ منهنّ قارعُ

إذا وردتْ لم يردْ اللهُ وفدَها
على أهلها.. واللهُ راءٍ وسامعُ

وإني لأرجو اللهَ حتى كأنما
أرى بجميل الظنّ ما اللهُ صانعُ[٢]

والأبيات إشارة تفصيلية إلى دعوة الإمام في ردّ كيد الهادي، وهكذا كان، فقد انتهت حياة الهادي بدعاء الإمام، دون الدخول بتفصيلات مؤامرة القضاء على الهادي.

---

(١) المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ٢١٧.

(٢) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ٧٩.

في مملكة هارون الرشيد

ولي هارون الرشيد الملك في ربيع الإمام سنة ١٧٠هـ، ومات لليالٍ خلت من جمادى الآخرة سنة ١٩٣هـ، وقد امتدّت خلافته ثلاثة وعشرين عاماً[1].

وقد اتّسعت رقعة الدولة الإسلامية في عصره اتساعاً عريضاً، فضربت بأطنابها غرباً وشرقاً وجنوباً وشمالاً، فمن حدود البحر الأبيض المتوسّط ومشارف البحر الأحمر حتى إفريقيا، ومن مضايق البسفور وبحر قزوين حتى أزبكستان وبخارى وسمرقند، ومن شواطئ الخليج ومضارب الهند والسند حتى تخوم الصين. يضاف إلى هذا كله الجزيرة العربية من أقصاها إلى أدناها، وهي مساحات واسعة اشتملت على نصف العالم تقريباً، حتى أثر عنه مخاطباً السحابة «حيثما تمطرين ففي ملكي..».

وقد صدق بتعبيره عن سلطانه بأنّه ملك، فهو من أعتى الملوك وإن تظاهر برقّة القلب، وهو من أقسى الجبابرة وإن بدا بطيبه البريء، وهو من أترف الحاكمين وإن تجلبب برداء الزهد وإظهار الورع، وهو من المخطّطين البارزين لإقامة السلطة بقوة الحرب، وحماية الملك بسفك الدماء.

وقد كان القلقشندي مهذب التعبير في رواية خطابه للسحب: «اذهبي

---

(١) ظ: اليعقوبي / التأريخ ٣ / ١٣٩ + الطبري ٨ / ٢٣٠.

إلى حيث شئتِ يأتيني خراجك»[١].

وقد حكى هذا التعبير ما في قلب الرشيد من الاعتداد بالمال والخراج، لا بالإسلام ودولته، فاحتجان الأموال، وتكدّس الأرصدة هو الذي يوفّر له حياة البذخ والعبث، وهو الذي يحقّق له موائد الفسق واللهو والطرب، والسيطرة على المال من المهمّات الأساسية في ملكه، يستعين به في شراء الضمائر، والقضاء على المعارضين، والترفيه عن ولاته وبطانته وحواشيه وجواريه، والإغداق على المغنّين والمخنّثين والقيان.

يقول الأستاذ باقر شريف القرشي:

«وَجُبي له الخراج من جميع الأقاليم الإسلامية، وصارت عاصمته بغداد عروس الدنيا، ومستودع أضخم بيت للمال في العالم... وانتشر فيها الثراء الفاحش والتضخّم النقدي عند التجار والموظّفين والندماء والمطربين والمجّان، وتناثرتِ فيها القصور الرائعة التي شيّدت على طراز هندسي جميل مزيج من الذوقين العربي والفارسي، وصارت بغداد بما فيها من الحدائق الغنّاء زينة الشرق، وأعظم عاصمة لأهم إمبراطورية شاهدها التأريخ»[٢].

ولا تحسبنّ هذه الإمبراطورية جاءت لتطبيق مبادئ الإسلام أو تحكيم شريعة السماء، وإنما استغلّت استغلالاً فظيعاً للاستعلاء في الأرض، وافترضت لتلبية رغبات المجون العابث، فالشعب المسلم على قارعة الطريق يتشكّى البؤس والحرمان وفقد الحياة الكريمة، وقصور الخلفاء تعجّ بالقيان والجواري والغلمان، وأنفقت واردات الدولة في تشيد القصور الفارهة، وبددت الميزانية العامة في إغراق أتباع النظام بالأعطيات الضخمة،

---

(١) القلقشندي / صبح الأعشى ٣ / ٢٧٠.

(٢) باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر ٢ / ٢١.

وإتخام وعّاظ السلاطين بالهبات الطائلة، وكان لسوق المجّان والفسوق نصيب مما قرّره السلطان، وكانت الثروات إثرة بين هؤلاء وهؤلاء. وقد قدّر الدكتور عبد الجبار الجومرد واردات الدولة بـ«مليارين ومائتين وعشرين مليون ديناراً، وتسعمائة وستين ألف دينار»(١).

وهذا القدر العظيم في الميزانية يجعلها أضخم ميزانية في العالم آنذاك بالنسبة للقيمة النقدية المتداولة وقيمة الأسعار، فقد ذكر الدكتور أحمد أمين الأسعار في الأسواق، فذهب أنّ الكبش يباع بدرهم، والجمل بأربعة دنانير، والتمر ستون رطلاً بدرهم، والزيت ستة عشر رطلاً بدرهم، والسمن ثمانية أرطال بدرهم، وأجرة البنّاء الأستاذ بخمس حبّات، والحبّة ثلث الدرهم، والدانق سدس الدرهم(٢).

وفي هذا الضوء كان ما أبداه الجهشياري دقيقاً حينما اعتبر واردات الدولة عبارة عن: خمسمائة مليون درهم ومائتين وأربعين ألف درهم(٣).

وذلك بالدرهم الفضّي المتعارف عليه في ذلك العصر.

فأين ترى مصرف هذه الإيرادات الضخمة من قِبل السلطان؟

إنّ هذه الإيرادات الكبرى لم تكن لتصرف في وجوه البرّ والإحسان، ولا لنشر تعاليم الإسلام، ولا لإعمار البلاد، ولا لتلبية احتياج البائس الفقير، ولا في وجوهها المشروعة إلَّا لماماً، وإنما كانت تبذر في سبيل الرغبات الخاصة، والمسلمون بين جائع وعريان، وشريد وطريد، والعلماء في فقر وفاقة وإذلال، وقادة الفكر والمعرفة في بؤس وشقاء، وعامة الناس كالعبيد في ذلّ واضطهاد، يفترشون الأرض ويلتحفون السماء، إلا تلك الطبقة الأرستقراطية من الولاة وأبناء السلاطين وفقهاء البلاط، فإنها في

(١) عبد الجبار الجومرد / هارون الرشيد / ٢ / ٣٦٢.
(٢) ظ: باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر ٢ / ٢٩ وانظر مصدره.
(٣) ظ: الجهشياري / الوزراء والكتّاب / ٢٨٨.

نعيم من العيش الرغيد!! وهذا المال الذي هو مال المسملين زكاة وخراجاً، يتقاسمه المغنّون والجواري والغلمان في هبات جزيلة متتابعة، فقد غنى دحمان الأشقر الرشيد فطرب لذلك وقال له: تَمَنَّ عليَّ، فتمنّى على الرشيد ضيعتين واردهما أربعون ألف دينار فأعطاه إياهما(١).

وأنشده أبو العتاهية أبياتاً، غنّاها للرشيد إبراهيم الموصلي، فأعطى كل واحد منهما مائة ألف درهم، ومائة ثوب(٢). وغنّاه يحيى المكي فأطربه، فقال الرشيد: أعطوه ما في ذلك البيت، فكان فيه ما قيمته خمسون ألف درهم(٣). وغنّاه يحيى المكي أيضاً ببيت من الشعر، فسكر عليه حتى أمسى، وأمر له بعشرة آلاف درهم(٤).

وغنّى إسحاق الموصلي للرشيد بأبيات وصف فيها بستاناً بظهر الحيرة قيمته أربعة عشر ألف دينار، فأمر له الرشيد بأربعة عشر ألف دينار، فاشتراه(٥).

وغنّاه إبراهيم الموصلي صوتاً من مختاراته، فطرب له الرشيد طرباً شديداً، واستعاده عامة ليله... فأمر له بمائتي ألف درهم(٦).

وغنّاه إبراهيم الموصلي بعد أن أطلقه من الحبس بهذا البيت:

تضوع مسكاً بطن نعمان
إذ مشت به زينبٌ في نسوة خفرات

فأمر له بثلاثين ألف درهم(٧).

---

(١) ظ: السيوطي / تأريخ الخلفاء / ١١٦.
(٢) الأصبهاني / الأغاني ٤/ ٧٤.
(٣) الأصبهاني / الأغاني ٦ / ١٨٧.
(٤) المصدر نفسه ٦ / ١٨٥.
(٥) المصدر نفسه ٥ / ١٧٤ - ١٧٥.
(٦) كتاب التاج / ٤١.
(٧) الأصبهاني / الأغاني ٦ / ٢٠٥.

وهذا غيض من فيض سقناه على سبيل المثال لتبذير أموال المسلمين على الغناء ومجالسه فحسب، فما بالك في إعداد تلك المجالس وتهيئة مرافقها ومتطلّباتها وما يقتضي لها من الأشربة والأنبذة وآلات الطرب والفرش الوثير والوسائد والستائر، وما يتبع ذلك من الإنفاق لدى اصطفاف الموائد؟؟

أما الجواري وشراؤها، فقد بلغ حدّ الإسراف في الأسعار، والمغالاة في الاستزادة منها، وأسوق إليك هذا النموذج في عدد ما في القصر لنوع خاص من الجواري تشرف عليه زوجته أم جعفر، وقد أقبلت في زهاء ألفي جارية من جواريها!!

وسائر جواري القصر، عليهنّ غرائب اللباس، وكان قد استقلّ بجارية عنها في غاية الجمال والكمال!! فأقبلت جواري أم جعفر في قبال جواريه الأخريات، وهنّ في لحن واحد:

منفصلٌ عني.. وما قلبي عنه منفصلْ

يا قاطعي اليوم لِمَن نويتَ بعدي أن تصلْ

فطرب الرشيد، وقام على رجليه حتى استقبل أم جعفر قائلاً: لم أرَ كاليوم قط.

ثم نادى مسروراً الخادم قائلاً: يا مسرور لا تبقين في بيت المال درهماً إلا نثرته، فكان مبلغ ما نثره يومئذٍ: ستة آلاف ألف درهم[1].

وإذا لم يكن هذا عبثاً بأموال الدولة فكيف يكون العبث؟

ومع هذا كله، وفوق هذا كله، فإنّ الرشيد يسمّى أمير المؤمنين!! فيا

---

(١) الأصبهاني / الأغاني ١٠ / ١٧٢.

لله وللمسلمين، فأي أمير هذا الذي يعيش بين خابية وزقٍّ، ويحيا بين قينة ومغنيّة، ويحظى بجارية وجارية، ويشتمل قصره الملكي العامر على آلاف الجواري من مختلف الجنسيات!!

ولك أن تعجب من بخله على طبقات الشعب، ولك أن تعجب من سخائه على المجّان والمخنثين ومرتزقة الشعراء، فقد كان يجيز بعض الشعراء في قصائدهم عن كل بيت بألف دينار[1] وأعطى لأعرابي من باهلة أنشده بيتين ذكر فيهما ولديه الأمين والمأمون مائة ألف درهم[2].

وكان أشجع السلمي ثقيلاً على الرشيد، فأنشده قصيدتين طرب لهما الرشيد، فقال له:

يا أشجع؛ لقد دخلت إليَّ وأنت أثقل الناس على قلبي، وإنك لتخرج وأنت أحبُّ الناس إليَّ.

قال أشجع: ما الذي أكسبتني هذه المنزلة؟

قال الرشيد: الغنى؟ فأسأل ما بدا لك.

قال: ألف ألف درهم، قال الرشيد: ادفعوا له[3].

هذه الهبات الضخمة لشعراء مغمورين؛ فما بالك بشعراء الطبقة الأولى؟

أما تبذير الرشيد وإسرافه في شراء الجواهر والأحجار الكريمة، والقلائد الثمينة فما لا رأت عين ولا سمعت إذن، فكان خاتمه بمائة ألف دينار[4].

وقد اشترى جواهر معدودة بمائتي ألف دينار، فوهبها لدنانير البرمكية[5].

---

(١) ظ: المسعودي / مروج الذهب ٢ / ٣٨٢.
(٢) ظ: الطبري / تأريخ الأمم والملوك ٣ / ٢٦١.
(٣) ظ: طبقات الشعراء / ٢٥٢.
(٤) ظ: ابن الأثير / الكامل في التأريخ ٦ / ٤٤.
(٥) البيهقي / المحاسن والمساوي / ٥٤٤.

وكان عند الرشيد قضيب زمرّد أطول من ذراع، وعلى رأسه تمثال طائر من ياقوت أحمر لا تقدير لثمنه نظراً لنفاسته، وقد قوّم الطائر وحده بمائة ألف دينار[١].

وقد شاركته السيدة زبيدة بملحظ الإسراف في الجواهر وسواها... فأمرت أن يتخذ لوصائفها من الدّر المثقوب بالتصليب، ثم اتخذت الخفاف المرصّعة بالجوهر تلبسها في قصرها، واتخذت سبحة من يواقيت رمانيّة كالبندق، اشترتها بخمسين ألف دينار[٢]. واشترت غلاماً يضرب على العود بثلاثمائة ألف درهم[٣]. وغنّاها ابن جامع هي والرشيد بثلاثة أبيات، فأمرت زبيدة أن يدفع لابن جامع المغنّي عن كل بيت مائة ألف درهم[٤].

ووهبت زبيدة لمنصور النمري جوهرة لوصفه مدينة السلام، إغراءً بالرشيد للرجوع إليها، إذ كان يستطيب المقام بالرقّة، فأرادت عودته لبغداد، فعمل النمري بيتين استحسنهما الرشيد، فوهبت له جوهرة، ثم دست من يشتريها منه بثلاثمائة ألف درهم[٥].

وصنعت لها بساطاً من الديباج جمع صورة كل حيوان من جميع الأجناس، وصورة كل طائر من الذهب، وأعينها من يواقيت وجواهر، أنفقت عليه نحواً من ألف ألف دينار[٦].

يضاف إلى هذا العبث بذخ البرامكة المستطير، وإسرافهم في العطاء للشعراء والزعماء والأتباع ووعّاظ السلاطين، حتى عرف عنهم أنهم من

---

(١) ظ: باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر ٢ / ٤٦ وانظر مصدره.
(٢) غي لسترانج / بين الخلفاء والخلفاء / ٥٤ - ٥٥.
(٣) مصطفى جواد / سيدات البلاط العباسي / ٤٨.
(٤) الأصبهاني / الأغاني ٦ / ٧٧.
(٥) طبقات الشعراء / ٢٤٦.
(٦) الأبشيهي / المستطرف في كل فن مستظرف ١ / ٩٨.

الأجواد، فبذروا واردات الدولة في مآربهم وأغراضهم وشهواتهم وملذّاتهم، وما يكسبهم شهرة وصيتاً، عدا موائدهم العامرة بأنواع الأشربة والأطعمة، يضاف إليها أندية الخمرة والطرب.

وإذا عدنا إلى الرشيد رأيناه مولعاً بالخمر، ويدعو خواصّ جواريه إذا أراد أن يشرب، وربما تولّى السقاية بنفسه[١].

وقد ذكر السيوطي عن الذهبي أنّ الرشيد كان صاحب أخبارٍ وحكايات في اللهو واللذّات المحظورة والغناء[٢].

وللتأريخ والحقيقة المرّة، فإنّ الرشيد لم يكن ذا حراجة في دين، ولا أثر من تقوى لديه، وإنما هو الرياء المقنّع بالدجل السياسي، فقد أخرج السلفي في الطيوريات بسنده عن ابن المبارك، قال:

«لما أفضت الخلافة إلى الرشيد، وقعت في نفسه جارية من جواري المهدي. فراودها عن نفسها، فقالت: لا أصلح لك؛ إنّ أباك قد طاف بي. فشغف بها، فأرسل إلى أبي يوسف فسأله: أعندك في هذا شيء؟

فقال: يا أمير المؤمنين؛ أو كلّما ادعّت أَمَةٌ شيئاً ينبغي أن تصدّق؛ لا تصدّقها فإنها ليست بمأمونة».

قال ابن المبارك: «فلم أدرِ ممن أعجب: من هذا الذي قد وضع يده في دماء المسلمين وأموالهم يتحرّج عن حرمة أبيه؟

أو من هذه الأمة التي رغبت بنفسها عن أمير المؤمنين!!

أو من هذا فقيه الأرض وقاضيها، قال: اهتكْ حرمة أبيك، واقضِ شهوتك، وصيّره في رقبتي»[٣].

هذه صورة إجمالية عجلى من صور هارون الرشيد في البذخ والإسراف،

---

(١) الأصبهاني / الأغاني ٥ / ١٢٦.
(٢) السيوطي / تأريخ الخلفاء / ١٨٩ - ١٩٠.
(٣) السيوطي / تأريخ الخلفاء / ١٩٣.

وسأثبتك صورة في القتل والإرهاب، وصورة في الغدر والفتك، فما يغني عنه دفاع ابن خلدون وعدّه له من أئمة المسملين، وما يغني مناصرة الدكتور عبد الجبار الجومرد له، فنفى عنه شرب الخمر، ولعب النرد، وما إلى ذلك مما هو مستهتر به[١].

بينما لم نجد عصراً بلغ به العبث والتهتّك الذروة كعصر الرشيد، وقد ساد به اللهو والمجون فغمر البلاد وأفسد العباد، وعمت المحرّمات الشرعية ديار الإسلام وأقاليمه بستار رقيق من الادّعاء الديني.

يقول العلامة الدكتور مصطفى جواد رحمه الله:

«ولو قدّر لهارون الرشيد أن يبقى على أريكة الخلافة أكثر مما بقي لانحطّت الدولة الإسلامية إلى مستوى سحيق أقبح الانحطاط»[٢].

ومهما يكن من أمر، فقد بدأ هارون الرشيد خلافته «بإخراج من كان في مدينة السلام من الطالبيين إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وآله».

وكان هذا الاجراء دقيقاً في نظرته السياسية، فحكم الرشيد ببغداد بحاجة إلى الاستقرار السياسي، ولابدّ أن يصفو الجوّ من المعارضة، وأن تخلو الساحة من الرافضين لمظالم الحكم، وهذا التفكير لم يكن بعيداً عن ذهنية الرشيد الأمنية، ولا بدّ له من تحقيق ذلك، فبثّ الرصد والعيون لتتبُّع أخبار الطالبيين، وتعقّب تحرّكهم النضالي ضد النظام، بما أذكى شرارة البغضاء والضغينة بين الحيين، حتى استطال الظلمُ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وهو غير طامح في سلطان، ولا طامع في عرش، ولا متهالك على حكم، وكل ما يهمّه هو إحياء السنّة وإطفاء البدعة.

ومع الإعراض الواضح للإمام عن مظاهر الأبّهة والملك، إلا أنّ الرشيد

---

(١) ظ: عبد الجبار الجومرد / هارون الرشيد ١ / ٢٦٧.

(٢) مصطفى جواد / سيّدات البلاط العباسي / ٤٨.

قد تحيّن الفرص وافتعل الحجج لاعتقال الإمام مرة بعد مرة، وعرضه على السجون تارة بعد أخرى.

ومما يحزّ في النفس أنّ الرشيد قد يستوقف الإمام للاستجواب والمساءلة الغليظة الجافّة دون مسوّغ شرعي أو عرفي، حتى استقرّ رأيه على القضاء عليه.

وربما قيل إنّ الرشيد بادئ ذي بدء «أكرم الإمام وعظمّه»[1]. ولكن ذلك إن حصل فهو نوع من الدجل السياسي المفضوح، على أننا لم نجد شاهداً واحداً يؤكّد إكرام الإمام وإعظامه من قبل الرشيد، بلى قد تقهره الحقيقة فيعترف بما للإمام من فضل وعلم وقيادة.

ومن الوضوح بمكان أنّ الرشيد كان حاقداً على الطالبيين بعامة، وعلى الإمام بخاصة، كما تحدّثنا بذلك النصوص المتواترة في أكثر من موقع وموضع حتى لايدري البحث من أين يبدأ.

كان الإمام طيلة أيام الرشيد شديد الحذر، وكانت الرقابة الصارمة من حوله تقضي بابتعاده عن أوليائه وأصحابه، حتى أنّ تلامذته ورواة حديثه حينما يروون احاديثه وأفكاره، قد يتجنّبون التصريح باسمه الشريف، فيقول أحدهم: حدّثني الرجل، وكتبت إلى الرجل، وأجاب الرجل، وقد يذكر بكناه فيقال: قال أبو الحسن، وتحدّث أبو إبراهيم، وقد يعبّر عنه بما اشتهر من ألقابه عند خاصته، فيقال: سمعتُ العبد الصالح، وقال السيد، وتحدّث العالم، وروى الكاظم، وأمثال هذا، ويدلّ بوضوح على مدى الرصد الذي يعاني منه الإمام وشيعته، ولعلّ ذلك كان بوصية منه عليه السلام حفظاً لأوليائه من الخطر وتجنّباً لمواطن التهم باستعمال الرموز الدّالّة عليه دون التصريح بالاسم الرفيع درءاً لمكائد هؤلاء الطغاة.

(١) ابن عنبة / عمدة الطالب / ١٨٥.

وكان الطالبيون قد استتروا عن الرشيد حذر القتل وغياهب السجون، وذلك عقب العنف الثوري الذي صارع الحكم، وكانت ردّة فعل الرشيد قاسية في إجراءات نفّذت فيها الأحكام العرفية بأبشع صورها، وكنموذج عليها ما رواه عبيد الله البزّاز النيسابوري، قال: «كان بيني وبين حميد بن قحطبة الطائي الطوسي معاملة، فرحلتُ إليه في بعض الأيام، فبلغه خبر قدومي فاستحضرني للوقت.. وذلك في شهر رمضان وقت صلاة الظهر، فلما دخلت عليه... أحضرت المائدة، وذهب عنّي أنّي صائم وأنّي في شهر رمضان، ثم ذكرت فأمسكتُ، فقال لي حميد: ما لك لا تأكل؟ فقلت: أيها الأمير هذا شهر رمضان ولست بمريض، ولا بي علّة توجب الإفطار، ولعلّ الأمير له عذر في ذلك... فقال: ما بي علّة توجب الإفطار، وإنّي لصحيح البدن، ثم دمعت عيناه وبكى!!

فقلت له: ما يبكيك أيها الأمير؟

فقال: «أنفذ إليّ هارون الرشيد... أن خذ هذا السيف وامتثل ما يأمرك به الخادم!! فتناول الخادم السيف وناولنيه، وجاء بي إلى بيت بابهُ مغلق ففتحه، فإذا فيه بئر في وسطه وثلاثة بيوت أبوابها مغلقة، ففتح باب بيت منها، فإذا فيه عشرون عليهم الشعور والذوائب، شيوخ وكهول وشبان مقيّدون. فقال لي: إنّ أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء، وكانوا كلهم من العلوية من ولد علي وفاطمة، فجعل يخرج إليّ واحداً بعد واحد، فأضرب عنقه حتى أتيت على آخرهم، ثم رمى أجسادهم ورؤوسهم في تلك البئر. ثم فُتح باب بيت آخر، فإذا فيه عشرون نفساً من العلوية من ولد علي وفاطمة مقيّدون. فقال لي: إنّ أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء، فجعل يخرج إليَّ واحداً بعد واحد، فأضرب عنقه، ويرمي به في تلك البئر حتى أتيت على آخرهم. ثم فتح باب البيت الثالث، فإذا به مثلهم عشرون نفساً

من ولد علي وفاطمة مقيّدون عليهم الشعور والذوائب.

فقال لي: إنّ أمير المؤمنين يأمرك أن تقتل هؤلاءِ أيضاً، فجعل يخرج إليّ واحداً بعد واحد فأضرب عنقه، فيرمي به في تلك البئر، حتى أتيت على تسعة عشر نفساً منهم، وبقي شيخ منهم عليه شعر، فقال لي: تباً لك يا مشوم!! أي عذر لك يوم القيامة إذا قدمت على جدّنا رسول الله ﷺ وقد قتلت من أولاده ستين نفساً قد ولدهم علي وفاطمة؟؟

فارتعشت يدي وارتعدت فرائصي، فنظر إليَّ الخادم مغضباً وزبرني، فأتيت على ذلك الشيخ أيضاً فقتلته، ورمى به في تلك البئر.

فإذا كان فعلي هذا، وقد قتلت ستين نفساً من ولد رسول الله ﷺ فما ينفعني صومي وصلاتي، وأنا لا أشكّ أنّي مخلّد في النار»[1].

إنّ أمثال هذه المظالم الكبرى هي التي استنت للطغاة والجبابرة اللاحقين حتى القرن الحادي والعشرين: أساليب البطش والفتك ومعالم الإرهاب الدموي والقتل الجماعي، فإذا كان من يسمّى بأمير المؤمنين!! هذا صنعه ووكده، فما بال هؤلاء الطواغيت الصغار، وهم لا يوصفون بأكثر من كونهم حكّاماً دكتاتوريين ليس غير، على أنّ بعضهم قد زاد على الرشيد أضعافاً مضاعفة بوسيلة وأخرى حمايةً للحكم الهزيل.

أمّا تعقّب هارون الرشيد للإمام موسى بن جعفر عليه السلام فهو من أبشع مظاهر الإجرام في تأريخ الإنسانية نظراً لمكانة الإمام الدينية والقيادية واتصاله برسول الله ﷺ نسباً وسبباً، وكونه الرافد الذي لا ينضب لموارد الشريعة الغرّاء.

لقد عزل الرشيد الإمام عن شيعته، ومنعه من ممارسة طقوسه الإيجابية، ورصد عليه حياته وأنفاسه، واستطال عليه بالسلطان، وغيّبه في ظلمات

---

(١) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ١٠٨ + البحار ٤٨ / ١٧٦ - ١٧٨.

السجون، والإمام صامد صابر، والرشيد يتحين به الفرص، ويسدّ عليه المنافذ والمسالك، في معاناة رهيبة عبّر عنها الإمام في رسالة بليغة للرشيد قال فيها:

«إنّه لن ينقضي عنّي يوم من البلاء إلاّ انقضى عنك معه يوم من الرخاء، حتى نفضي جميعاً إلى يوم ليس له انقضاء يخسر فيه المبطلون»[١].

ولم يكن هذا جزعاً من الإمام، ولكنه احتجاج صارخ عن مدى ظلامته، وتعبير ناطق عما يقاسيه دون جريرة، إلّا تلك المنزلة العليا التي ينعم بها في نفوس الأبرار، وإلا فالمعروف عن الإمام أنّه كان يردّد في سجنه العبارة الآتية:

«اللهم إنّك لتعلم أنّي كنت أسألك أن تفرّغني لعبادتك، اللهم؛ وقد فعلتَ؛ فلك الحمد»[٢].

إنّ تعرّض الإمام موسى بن جعفر عليه السلام للأزمات الخانقة، ومظاهر الإرهاب السياسي، وحياة السجون المريرة من قبل الرشيد، كفيل وحده أن يخرج الرشيد من منصب الخلافة المدّعاة التي لم يمثّل منها جزءاً ضئيلاً من الشرعيّة على الإطلاق، ولم تكن تصلح له الولاية العامة على المسلمين بحالٍ من الأحوال، لأنّ ما حكم به عبارة عن أحكام عرفية طائشة صحّحها له فقهاء البلاط العباسي، وحياة فاجرة داعرة غضّ عنها الطرف القضاة والمعدلون، وموائد خمور وملاهٍ وسهر ليال أحياها له المغنّون المخنثون، وكل أولئك مشاهد حمراء أباحها حكم السيف القاطع والجور المستديم، وكان النظام مفقوداً وحياة العيّارين والشطّار عامرة، وإن ضبطوا السيطرة على الرقاب بالقسر والإكراه.

---

(١) ظ: الخطيب البغدادي / تأريخ بغداد ١٣ / ٣٢ + ابن الأثير / الكامل ٥ / ١٠٨ + ابن الصبّاغ / الفصول المهمّة / ٢٢٣ + المجلسي / البحار ٤٨ / ١٤٨.

(٢) الشيخ المفيد / الإرشاد / ٣٣٧.

وفوق هذا كله فطالما روّع الحكم الآمنين، وطالما سفكت الدماء المحرّمة بغير الحقّ، وكان الاستهتار بالقيم والتجاوز على المبادئ المقدّسة أمراً متعارفاً حتى عاد المعروف منكراً والمنكر معروفاً!! كيف لا.. وقصور الخلفاء تعجّ بالفسق ومعاقرة الخمرة، والبغاء العلني والسرّي يستشري ولا مانع ولا رادع ولا وازع، وقد تقدّم فيما سبق نهب الأموال واغتصاب الثروات والتلاعب بمقدّرات الأمّة، بلى كانت هناك شعارات يتشدّق بها الحاكمون مجاراة للناس من جهة، وتثبيتاً لدعائم الحكم من جهة أخرى، وهدف ذلك واضح للناقد البصير، وهو يتمثّل بإضفاء شيء من الشرعية جزافاً على ذلك الكيان المدّعى، وما عدا هذا الملحظ على ضالته، فإننا لا نرى صيغة حقيقية لادعاء الولاية في الدين لأولئك الذين لا يمثّلون الدين لا من قريب ولا من بعيد في نظامهم السياسي القائم على الانحلال الخلقي والتخلّي عن القيم الإسلامية على كل الأصعدة.

يقول الأستاذ محمد حسن آل ياسين:

«وكذلك اتّضحت بما لا مجال فيه بشكّ أو تردّد أيضاً حقيقة أولئك المدّعين للولاية الشرعية، فراغاً من مواصفات التأهيل، وخلواً مما يجب أن يكونوا عليه من كفايات الاستحقاق. فلم يكن لديهم فقه بالشريعة وأحكامها، ولا علم بمعاني القرآن والحديث، ولا ورع يردعهم عن محارم الله، ولا التزام يصدّهم عن متابعة الهوى وإطاعة شهوات النفس الأمّارة بالسوء»[1].

وهنا تتجلّى الفروق المميّزة بين هذا الفراغ العقائدي الهائل، وبين تلك القدرات العلمية الرائدة، وظواهر الإنابة والخشوع عند الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بما يحقّق ولايته الشرعية دون أولئك المتلاعبين بمُثُل القرآن،

---

(١) محمد حسن آل ياسين / الإمام موسى بن جعفر / ٥٤.

وقيم الإسلام، ورسالة السماء.

ولم يكن الرشيد نفسه ليجهل هذه الحقيقة الصارخة وإن تجاهلها، ولم يكن له أن يجحدها وإن ألقى بستار كثيف على نصاعتها، فالملك عقيم كما يقول الرشيد، ولا أدلّ على ذلك من اعترافه وإقراره لولده المأمون بالمنزلة العليا للإمام، وأنّه حجّة الله على خلقه، وخليفته الشرعي على عباده!!

فقد حدّث المأمون أنّ الرشيد هو الذي علّمه التشيّع!! وذلك أنّ الرشيد جلس لاستقبال الناس، ومنع أن يدخل عليه أحد إلا انتسب، فدخل الفضل بن الربيع عليه وقال: على الباب رجلٌ زعم أنّه موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

فقال له الرشيد: إئذن له، ولا ينزل إلّا على بساطي... هذا والأمين والمأمون والمؤتمن والقوّاد شهود... فاستقبله الرشيد، وقبّل وجهه وعينيه، وأخذ بيده حتى صيّره في صدر المجلس، وأجلسه معه فيه، وجعل يحدّثه، ويقبل بوجهه عليه، ويسأله عن أحواله... «وبعد استقصاء السؤال» قال الإمام موجّهاً وناصحاً للرشيد:

«إنّ الله قد فرض على ولاة عهده أن ينعشوا فقراء هذه الأمَّة، ويقضوا عن الغارمين، ويؤدّوا عن المثقل، ويكسوا العاري، ويحسنوا إلى العاني، وأنت أولى من يفعل ذلك».

فقال الرشيد: أفعل يا أبا الحسن.

ثم قام الإمام، فقام الرشيد لقيامه، وقبّل عينيه ووجهه، ثم أقبل عليَّ وعلى الأمين والمؤتمن، فقال... بين يدي عمّكم وسيّدكم، خذوا بركابه، وسوّوا عليه ثيابه، وشيّعوه إلى منزله، فأقبل أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام سرّاً بيني وبينه فبشّرني بالخلافة، وقال لي: إذا ملكت هذا الأمر فأحسن إلى ولدي، ثم انصرفنا.

يقول المأمون: وكنت أجرأ ولد أبي عليه، فلمّا خلا المجلس؛ قلت: يا أمير المؤمنين؛ من هذا الرجل الذي قد عظّمته وأجللته؟ وقمت من مجلسك إليه فاستقبلته؟ وأقعدته في صدر المجلس، وجلست دونه، ثم أمرتنا بأخذ الركاب له؟

قال: هذا إمام الناس، وحجّة الله على خلقه، وخليفته على عباده. فقلت: يا أمير المؤمنين؛ أوَليستْ هذه الصفات كلها لك وفيك؟

فقال: أنا إمام الجماعة في الظاهر بالغلبة والقهر، وموسى بن جعفر إمام حقٍّ، والله يا بنيّ إنّه لأحقُّ بمقام رسول الله ﷺ منّي، ومن الخلق جميعاً، ووالله لو نازعتني هذا الأمر لأخذت الذي فيه عيناك، فإنّ الملك عقيم»[1].

ومع معرفة الرشيد بهذا المقام الأسمى للإمام، فإنّ إصبع الاتّهام يومئ به للإمام، مما يعتبره الرشيد منافسةً في سلطان، وهو مما يلفق ويكذب به على الإمام، فقد حدّث الإمام نفسه قائلاً: «لما أمر هارون الرشيد بحملي، دخلت عليه فسلّمتُ فلم يردّ عليَّ السلام، ورأيته مُغضباً، فرمى إليّ بطومار، فقال: اقرأه.

فإذا فيه كلام، قد علم الله ﷻ براءتي منه، وفيه أنّ موسى بن جعفر يُجْبَى إليه خراج الآفاق من غلاة الشيعة ممن يقول بإمامته، يدينون الله بذلك، ويزعمون أنّه فرضٌ عليهم، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ويزعمون أنّه من لم يذهب إليه بالعشر، ولم يصلِّ بإمامتهم، ولم يحج بإذنهم، ويجاهد بأمرهم، ويحمل الغنيمة إليهم، ويفضِّل الأئمة على جميع الخلق، ويفرض طاعتهم مثل طاعة الله ورسوله، فهو كافرٌ حلالٌ مالُهُ ودمُهُ... والكتاب طويل، وأنا قائم أقرأ وهو ساكت، فرفع رأسه وقال:

اكتفيت بما قرأت، فكلّم بحجّتك بما قرأته.

---

(١) ظ: المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ١٢٩ - ١٣١ باختصار.

قلت... والذي بعث محمداً ﷺ بالنبوة ما حمل إليَّ أحدٌ درهماً ولا ديناراً من طريق الخراج، لكنا معاشر آل أبي طالب نقبل الهدية التي أحلّها الله ﷻ لنبيّه ﷺ في قوله:

«لو أهدي لي كراع لقبلت، ولو دعيت إلى ذراع لأجبت».

وقد علم أمير المؤمنين ضيق ما نحن فيه، وكثرة عدّونا، وما منعنا السلف من الخمس الذي نطق لنا به الكتاب، فضاق بنا الأمر، وحرّمت علينا الصدقة، وعوّضنا الله ﷻ الخمس، واضطررنا إلى قبول الهدية، وكل ذلك مما علمه أمير المؤمنين...»[١].

ولم يكتف الرشيد بهذا، وإنما استدعى الإمام تارة أخرى، وأدخل عليه، فقال له الرشيد:

يا موسى بن جعفر، خليفتين يُجْبَى لهما الخراج؟

قال الإمام: أعيذك بالله أن تبوء بإثمي وإثمك، وتقبل الباطل من أعدائنا علينا، فقد علمت أنّه قد كُذب علينا منذ قبض رسول الله ﷺ بما عِلمُ ذلك عندك[٢]...

ومع براءة الإمام مما نسب إليه، فهو يجتمع به، ويتظاهر ببرّه، ويسأله عن مدى حاجته، ثم يبعث إليه بصرّة فيها مائتا دينار، فيعترض عليه المأمون، فيقول له: اسكت لا أمّ لك، فإنّي لو أعطيته هذا ما ضمنته له، ما كنت آمنه[٣].

وتارة أخرى يعلل الرشيد منعه العطاء للإمام بقوله:

«ما كنت آمنه أنّ يضرب وجهي غداً بمائة ألف سيف من شيعته

---

(١) ظ: المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ١٢١ - ١٢٢ وانظر مصدره.

(٢) المصدر نفسه ٤٨ / ١٢٥ وانظر مصدره.

(٣) المصدر نفسه ٤٨ / ١٣١ وانظر مصدره.

ومواليه، وفقر هذا وأهل بيته أسلم لي ولكم من بسط أيديهم وأعينهم»[1].

ومنع أهل البيت حقّهم الطبيعي من بيت المال أسوة ببقية المسلمين على الأقل كان من الأهداف المركزية للبلاط العباسي، بل كان من أهدافه أيضاً منع أوليائهم وأصحابهم ومن يمت إليهم بصلة من أيّ نوع من العطاء، وإذا كان هذا صنيعهم مع شيعتهم، فما بالك بهم؟

وليت الرشيد اكتفى بما صنعه مع الإمام من الاستدعاء والاستنطاق الذي لا مبرّر له، ولكنه أغرى به الفجرة من أولياء بني العباس، وجلاوزة النظام الحاكم.

ذكر السيد المرتضى علم الهدى (ت ٤٣٦هـ):

«إنّه حضر بباب الرشيد نفيع الأنصاري، وحضر الإمام موسى بن جعفر عليه السلام على حمار له، فتلقاه الحاجب بالإكرام، وعجّل له بالإذن.

فسأل نفيعٌ عبدَ العزيز بن عمرو: من هذا الشيخ؟

قال: شيخ آل أبي طالب، شيخ آل محمد، هذا موسى بن جعفر.

قال: ما رأيت أعجز من هؤلاء القوم يفعلون هذا برجل يقدر أن يزيلهم عن السرير، أمّا إن خرج لأسوءنّه، قال له عبد العزيز: لا تفعل فإنّ هؤلاء أهل بيت ما تعرّض لهم أحد بالخطاب إلا وسموه في الجواب سمةً يبقى عارها مدى الدهر.

وخرج الإمام، وأخذ نفيعٌ بلجام حماره وقال:

من أنتَ يا هذا؟

فقال الإمام، يا هذا إن كنت تريد النسب؟ أنا ابن محمد حبيب الله، ابن إسماعيل ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله. وإن كنت تريد البلد؟ فهو الذي فرض الله على المسلمين وعليك ـ إن كنتَ منهم ـ الحجّ إليه. وإن كنت

(١) ظ: الملجسي / بحار الأنوار: ٤٨ / ١٣٢.

تريد المفاخرة؟ فوالله ما (رضي) مشركو قومي مسلمي قومك أكفاءً، حتى قالوا: يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قريش.

وإن كنتَ تريد الصيت والاسم؟ فنحن الذين أمر الله بالصلاة علينا في الصلوات المفروضة تقول: «اللّهم صلِّ على محمدٍ وآل محمد» فنحن آل محمد، خلِّ الحمار، فخلَّى عنه ويده ترعد، وانصرف مخزياً، فقال له عبد العزيز: ألم أقل لك؟»[1].

وهكذا كان الإمام يتجرّع الغيظ من خلفاء الجور، وولاة السوء، وبطانة السلطان، وهو صابر محتسب، وكان أشدّهم عليه ـ كما رأيت ـ هارون الرشيد في مجالات شتّى، وسترى ما جرى على يديه من استشهاد الإمام مسموماً في موقعه من الكتاب.

(١) ظ: المرتضى / الأمالي ١ / ٢٧٥ + ابن شهرآشوب / المناقب ٣ / ٤٣١ + المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ١٤٣ - ١٤٤.

الفصل الخامس

المناخ الثوري وإجراءات الإرهاب السياسي

١ـ قمع التحرّك الثوري.

٢ـ ثورة الحسين صاحب فخّ.

٣ـ انتفاضة يحيى بن عبد الله المحض.

٤ـ التصفية الجسدية للعلويين.

٥ـ موقف الإمام من العنف الثوري.



قمع التحرك الثوري

وكان سوء الإدارة العباسية سياسياً واجتماعياً ودينياً، وحياة البذخ والسرف والتبذير، وإجراءات القمع الدموي، والعمل بسنن الجبّارين، كل ذلك قد أثار مشاعر الأحرار والأخيار ضد النظام العباسي في عصر الإمام عليه السلام.

فأنّى تلفت رأيت مظاهر الابتعاد عن الإسلام، وطمس آثار شريعة الرسول الأعظم، وإعادة الخلافة ملكاً عقيماً، ومسخ المبادئ الأخلاقية، وتفجرّ المناخ الاجتماعي بثورة عارمة من العبث والمجون وإباحة الخمور، ومنع الناس حقوقهم في بيت المال، واستباحة ذمم الأولياء، واستطالة وعّاظ السلاطين، وكبت الحريات العامة، وإشغال الناس بالبعوث في جبهات القتال، وتعطيل القرآن وإطفاء السنن، وجعل الخراج دولاً بين الظلمة وأعوان الظلمة، وتسخير الناس خدماً وخولاً في مرافق الدولة ومصالح الطغاة، كل أولئك الفقرات الضخمة كانت عوامل استياء منتشر لطبقات شعبية ودينية من المجتمع، وكان الجيل الواعي لمشكلات هذه التداعيات ممن يريدون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الفروض، وممن يحاولون استنقاذ الحقوق الإنسانية قد أنكروا تلك البدع والأضاليل، وحاولوا التغيير قدر المستطاع، ولكن السجون كانت بانتظارهم، ومعتقل

«المطبق» الرهيب الذي لا يعرف فيه الليل من النهار يزجّ بالمئات من الشباب المتحفّز، ولم يطل الأمر على هذا الضيم المتوالي، فتوالت الانتفاضات، وبدأ التحرّك الثوري المسلّح وهو يقدم الشهداء قوافل، والضحايا زرافات ووحداناّ، حتى طفح الكأس بما فيه.

وكان ردّة فعل العباسيين كأعتى ما يتصوّره الفكر الإنساني قمعاً وإبادة وتقتيلاً، وأسراً وتغريباً وتشريداً، كما سنشاهد هذا من خلال الأحداث الثورية وانعكاساتها السلبية على الحاكمين.

ثورة الحسين صاحب فخ

والحسين هذا هو: الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليه.

خرج بالمدينة المنورة ثائراً مناضلاً في ذي العقدة سنة تسع وستين ومائة بعد موت المهدي، وفي خلافة ولده الطاغوت موسى الهادي في جماعة كثيرة من العلويين، فأبيدوا جميعاً شرّ إبادة[١].

ولم يكن خروجه على سلطان العباسيين اعتباطاً، ولا تحرّكه المسلّح عنتاً، ولكن السياسة العباسية الخرقاء هي التي ألجأته إلى إعلان ثورته، وما جرّت إليه من الفجائع والفظائع. فقد روى أبو الفرج الأصبهاني بأسانيد عدةٍ، قال:

كان سبب خروج الحسين أنّ الهادي ولّى المدينة إسحاق بن عيسى بن علي، فاستخلف عليها رجلاً من ولد عمر بن الخطّاب يعرف بعبد العزيز، فحمل على الطالبيين وأساء إليهم، وطالبهم بالعرض كل يوم في المقصورة. ووافى أوائل الحاج، وقدم من الشيعة نحو من سبعين رجلاً، ولقوا حسيناً وغيره، فبلغ ذلك العمري، وأغلظ أمر العرض، وألجأهم إلى الخروج؛ فجمع الحسين: يحيى صاحب الديلم، وسليمان، وإدريس صاحب إفريقيا،

(١) ظ: المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ١٦١.

وكلهم أبناء عبد الله بن الحسن، وعبد الله بن الحسن الأفطس، وإبراهيم بن إسماعيل طباطبا، وعمر بن الحسن بن علي بن الحسن المثلّث، وعبد الله بن إسحاق بن إبراهيم بن الحسن المثنّى، وعبد الله بن جعفر الصادق عليه السلام ووجهوا إلى فتيان من فتيانهم ومواليهم، فاجتمعوا ستة وعشرين رجلاً من ولد علي عليه السلام، وعشرة من الحاج، وجماعة من الموالي. فلّما أذّن المؤذّن الصبح، نادوا: أجدْ أجدْ، وصعد الأفطس المنارة، وجبر المؤذّن على قول «حيّ على خير العمل» فلمّا سمعه العمري أحسّ بالشرّ ودهش، ومضى هارباً على وجهه.

وصلّى الحسين بالناس الفجر، ولم يتخلّف عنه أحد من الطالبيين، إلا الحسن بن جعفر بن الحسن، والإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وسيأتي موقفه من هذه الثورة.

وخطب الحسين بعد الصلاة، وقال بعد الحمد لله والثناء عليه: «أنا ابن رسول الله، على منبر رسول الله، وفي حرم رسول الله، أدعوكم إلى سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله. أيها الناس أتطلبون آثار رسول الله في الحجر والمدر تمسحون بذلك، وتضيّعون بضعة منه.»[1].

فلما انتهى من هذا الخطاب أقبل عليه الناس يبايعونه على كتاب الله وسنّة نبيه، والدعوة للرضا من آل محمد صلى الله عليه وآله[2].

وهذا يعني استجابة الناس الفورية، فالناس تطمع بالخلاص ولا تجد إلى ذلك سبيلاً، حتى إذا أعلن الحسين ثورته هذه وهو من آل علي عليه السلام، كان الإقبال على البيعة تلقائياً.

وروي أنّه قال لمن بايعه:

---

(١) ظ: الأصبهاني / مقاتل الطالبيين / ٤٨٤.

(٢) ظ: الطبري / تأريخ الأمم والملوك ١٠ / ٢٥.

«أبايعكم على كتاب الله، وسنّة نبيه رسول الله، وعلى أن يطاع الله ولا يُعصى، وأدعوكم إلى الرضا من آل محمد، وعلى أن نعمل فيكم بكتاب الله وسنّة نبيه ﷺ والعدل في الرعية، والقسم بالسوية. وعلى أن تقيموا معنا، وتجاهدوا عدوّنا، فإن نحن وفينا لكم وفيتم لنا، وإن نحن لم نفِ لكم فلا بيعةَ لنا عليكم»(١).

وأنت ترى الحسين في هذه البيعة قد أعطى النصف من نفسه، وقد احتاط بذلك لدينه وأمته، فالبيعة على كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ والتأكيد على طاعة الله وعدم معصيته، والدعوة إلى الرضا من آل محمد لا لنفسه، والعمل بكتاب الله والسنة، والعدل بين الرعيّة، والإقامة معه وعدم التفرّق عنه، وجهاد الأعداء إذا وفى لهم بالتزامه، وإلاّ فلا بيعة له عليهم.

ويبدو أنّ عنصر المفاجأة كان متوافراً في الثورة، فقد اضطر الحكمُ الحسين إلى استعجالها، فما التحق به أحد من القصبات والأقاليم، ولم يتهيّأ لها مناخ إعلامي أو دعائي، بل ولم يلتف أهل المدينة حولها بالشكل المطلوب، ولم يسبق لها تمهيد سرّي تجتمع حوله الرجال وأعداء الحكم، ويبدو أنّ الرصد الأمني لأجهزة النظام كان مسؤولاً عن كثير من هذه التداعيات، وكان إحضار الطالبيين أمام المقصورة كل يوم يعني فرض الرقابة الصارمة من كل الوجوه.

ومهما يكن من شيء، فحينما أعلنت الثورة، أقبل حماد البربري وكان مسلحة للسلطان في المدينة بالسلاح، ومعه أصحابه حتى وافوا باب المسجد، فقصده يحيى بن عبد الله وفي يده السيف، فأراد حماد أن ينزل فبدره يحيى فضربه على جبينه، وعليه البيضة والمغفر والقلنسوة فقطع ذلك كله، وأطار قحف رأسه، وسقط عن دابّته، وحمل على أصحابه

(١) ظ: الأصبهاني / مقاتل الطالبيين / ٤٤٧ + البحار ٤٨ / ١٦٩ .

فتفرّقوا وانهزموا. وبايعه الناس واحتفل به أهل بيته وأصحابه احتفالاً عظيماً.

وحجّ في تلك السنة مبارك التركي، فبلغه خبر الحسين ـ ويبدو أنّ الرجل كان ذا عقل ودين ـ فبعث إلى الحسين من الليل: إنّي والله ما أحبّ أن تبتلى بي ولا أبتلى بك، فابعث الليلة إليّ نفراً من أصحابك ولو عشرة يبيّتون عسكري حتى أنهزم، وأعتل بالبيات. ففعل ذلك الحسين، ووجّه عشرة من أصحابه فجعجعوا بمبارك، وصبّحوا في نواحي عسكره، فهرب وذهب إلى مكة.

وحجّ في تلك السنة العباس بن محمد، وسليمان بن أبي جعفر، وموسى بن عيسى، فصار مبارك معهم، واعتلّ عليهم بالبيات.

وخرج الحسين قاصداً إلى مكة، ومعه من تبعه من أهله ومواليه وأصحابه، وهم زهاء ثلاثمائة رجل، واستخلف على المدينة «دينار الخزاعي»، فلما انتهى الركب إلى «فخ» وهو موضع على ستة أميال من مكة المكرمة[1].

هنالك تلقّتهم الجيوش العباسية بقيادة العباس بن محمد، فعرض العباس على الحسين الأمان والعفو والصلة، فأبى ذلك أشدّ الإباء.

وكان قادة الجيش متكوّناً من العباس، وموسى بن عيسى، وجعفر ومحمد ابني سليمان، ومبارك التركي، والحسن الحاجب، وحسين بن يقطين. وتقرّرت الحرب، وكان الالتقاء يوم التروية وقت صلاة الصبح، فكان موسى بن عيسى أول من حمل على القوم، فاستطرد لهم شيئاً حتى انحدروا في الوادي، وحمل عليهم محمد بن سليمان، وبعد معركة رهيبة طحنهم الجيش العباسي طحنة واحدة، حتى قتل أكثر أصحاب الحسين، وجعلت المسوّدة تصيح: يا حسين لك الأمان، فيقول: لا أمان أريد، وهو

---

(١) ظ: المسعودي / مروج الذهب ٣ / ٢٤٨.

يحمل عليهم حتى فاجأه سهم غادر رماه حمّاد التركي فقتله، وقتل معه سليمان بن عبد الله بن الحسن، وعبد الله بن إسحاق بن إبراهيم بن الحسن، وأصابت الحسن بن محمد نشابة في عينه فتركها وجعل يقاتل أشدّ القتال، حتى آضوه ثم قتلوه، وجاء الجند بالرؤوس وقد احتزّوها فكان عددها مائة ونيفاً[١].

وأبرد بالرؤوس إلى موسى والعباس وعندهما جماعة من العلويين وفي طليعتهم الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، فلم يسألا أحداً إلاّه، فقالا: هذا رأس الحسين؟

قال الإمام: «نعم؛ إنّ لله وإنّا إليه راجعون، مضى والله مسلماً، صالحاً، صوّاماً، وقوّاماً، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، ما كان في أهل بيته مثله». فلم يجيبوه بشيء[٢].

ودفن العباسيون قتلاهم جميعاً، وتركوا الحسين وأهل بيته وأصحابه بلا دفن ثلاثة أيام تصهرهم حرارة الشمس[٣].

وقد روي عن الإمام محمد الجواد عليه السلام أنّه قال:

«لم يكن لنا بعد الطفّ مصرع أعظم من فخّ»[٤].

وجيء بالأسرى من الحسنيين وأصحابهم، مقيّدين بالأغلال، ، وقد جمعت أيديهم إلى أرجلهم بالحديدة، وهم في حالة يرثى لها جهداً وعناءً وبلاءً، وقدّموا بين يدي موسى الهادي، فأمر بقتلهم جميعاً، فقتلوا صبراً، وصلبوا على باب الحبس»[٥].

---

(١) ظ: الطبري / تأريخ الأمم والملوك ١٠ / ٢٨.

(٢) ظ: المجلسي / بحار الانوار / ٤٨ / ١٦١ - ١٦٥ وانظر مصادره.

(٣) ظ: العيقوبي / التأريخ ٣ / ١٣٧.

(٤) ابن عنبة / عمدة الطالب / ١٧٢.

(٥) ظ: الطبري / تأريخ الأمم والملوك ١٠ / ٢٩.

قال المجلسي: وحملت الأسرى إلى الهادي فأمر بقتلهم، ومات في ذلك اليوم[١].

وكان في الأسرى رجلٌ قد أنهكته العلَّة، فقال للهادي يستعطفه: أنا مولاك يا أمير المؤمنين. فصاح به الهادي: مولاي يخرج عليَّ؟ وكان مع الهادي سكّين، فقال: والله لأقطّعنّك بهذه السكّين مفصلاً مفصلاً، ومكث الرجل ساعة، فغلبت عليه العلّة، فمات حتفَ أنفه[٢].

وبعد أن قتل الهادي أسرى «فخ» وضعت رؤوس القتلى من العلويين بين يديه، والتي أبرد بها إليه، فجعل ينشد هذه الأبيات:[٣]

بني عمّنا لا تنطقوا الشعرَ بعدما
دفنتمْ بصحراء الغميم القوافيا
فلسنا كمنْ كنتمْ تصيبونَ نيلَهُ
فيقبل ضيماً... أو يحكمَ قاضيا
ولكنَّ حكمَ السيفِ فيكم مسلّطٌ
فنَرضى إذا ما أصبح السيفُ راضيا
فإن قلتمُ إنَّـا ظُلمنا.. فلم نكنْ
ظلمنا.. ولكنّا أسأنا التقاضيا

وهكذا ذهبت هذه الدماء الزواكي جباراً، وقتل الأسرى جهاراً، ولم تكن هناك أدنى رحمة إنسانية بالرأفة والعفو المحمود.

وقد اكتوى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بلهيب هذه الثورة، فمدّتْ نحوه أصابع الاتّهام بتدبيرها، والإمام براء منها كما سيأتي.

وكان اتّهام الإمام صادراً من أعلى سلطة في الدولة العباسية من الهادي

---

(١) ظ: المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ١٦٥ وانظر مصدره.
(٢) الأصبهاني / مقاتل الطالبيين / ٤٥٣.
(٣) ياقوت / معجم البلدان ٦ / ٣٠٨.

نفسه، فحينما قضى على شهداء «فخ» وقتل الأسرى بمجزرة رهيبة دامية، أخذ يتعقّب العلويين ويتوعّدهم، ويشير إلى موسى بن جعفر بالقول: «والله ما خرج حسين إلاّ عن أمره، ولا اتّبع إلاَّ محبّته، لأنه صاحب الوصية في أهل هذا البيت، قتلني الله إن أبقيت عليه».

فقال له قاضي القضاة العباسيين أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم وكان جريئاً عليه: يا أمير المؤمنين أقولُ أم أسكت؟

فقال الهادي: «قتلني الله إن عفوت عن موسى بن جعفر، ولولا ما سمعت من المهدي فيما أخبر به المنصور بما كان به جعفر من الفضل المبرز عن أهله في دينه وعلمه وفضله ـ يعني الإمام الصادق ـ وما بلغني عن السفّاح من تقريظه وتفضيله لنبشتُ قبره، وأحرقته بالنار إحراقاً».

فقال أبو يوسف القاضي: «نساؤه طوالق، وعتق جميع ما يملك من الرقيق، وتصدّق بجميع ما يملك من المال، وحبّس دوابّه، وعليه المشي إلى بيت الله الحرام، إذ كان مذهب موسى بن جعفر الخروج، لا يذهب إليه، ولا مذهب أحدٌ من ولده.. ولم يزل يرفق به حتى سكن غضبه»[1].

وكانت هذه اللفتة من أبي يوسف كلمة حقّ عند سلطان جائر، وهي دليل حصافة رأيه، ومتانة عقله، وصدق مروءته.

وقد عاجل الموت الهادي بدعاء الإمام كما سبق بيانه في الفصل الماضي، فما استطاع تنفيذ وعيده، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

---

(١) المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ١٥١ وانظر مصدره.

انتفاضة يحيى بن عبد الله المحض

وكان يحيى هذا من أنصار الحسين (صاحب فخّ) فلما قتل الحسين وأهل بيته وأصحابه، فرّ بنفسه، واستتر عن سلاطين بني العباس حقبة من الزمن، وأخذ يجول البلدان بحثاً عن ملجأ يُلتجأ إليه ليظهر أمره فيه.

واستقرّ المكان بيحيى في بلاد الديلم، وهو المراد بقول المؤرّخين: «صاحب الديلم» فقد ظهر هناك، واجتمع عليه الناس، وبايعه أهل تلك الأعمال، وعظم أمره، وخاف الرشيد لذلك وأهمّه، وانزعج منه غاية الانزعاج، فكتب إلى الفضل بن يحيى البرمكي: «إنّ يحيى بن عبد الله قذاة في عيني، فأعطه ما شاء، واكفني أمره»[1].

ويرى أبو الفرج الأصبهاني:

إنّ الفضل بن يحيى علم بمكان يحيى بن عبد الله في بعض النواحي، فأمره بالانتقال عنه، وقصد الديلم، وكتب له منشوراً لا يعرّض له أحد، فمضى متنكّراً حتى ورد الديلم، وبلغ خبره الرشيد، وهو في بعض الطريق، فولّى الفضل بن يحيى نواحي المشرق، وأمره بالخروج إلى يحيى.

فكتب الفضل إلى يحيى: إنّي أريد أن أحدث بك عهداً، وأخشى أن

---

(١) ظ: ابن عنبة / عمدة الطالب / ١٣٩ + البحار ٤٨ / ١٨٠.

تبتلى بي وأبتلى بك، فكاتب صاحب الديلم، فإني قد كاتبته لك لتدخل إلى بلاده فتمتنع به.

ففعل ذلك يحيى، وكان صحبه جماعة من أهل الكوفة... كانوا يخالفون يحيى في أمره، وحينما ولّى الرشيد الفضل جمع كور المشرق وخراسان، أمره بقصد يحيى والجدّ به، وبذل الأمان والصلة له، إن قبل ذلك. فمضى الفضل فيمن ندب معه، وراسل يحيى فأجابه إلى قبوله، لما رأى من تفرّق أصحابه وسوء رأيهم فيه، وكثرة خلافهم عليه، إلا أنّه لم يرضَ الشرائط التي شرطت له، ولا الشهود الذين شهدوا له، وبعث بالكتاب إلى الفضل، فبعث به إلى الرشيد. فكتب له الرشيد بما أراد، وشهد له مَنْ التمس.

فلما ورد كتاب الرشيد على الفضل، وقد كتب له الأمان على ما رسم يحيى، وأشهد الشهود الذين التمسهم، وجعل الأمان على نسختين: إحداهما مع يحيى، والأخرى معه. وشخص يحيى بن عبد الله ـ بناءً على الأمان الموثّق ـ حتى وافى بغداد، ودخلها معادلةً في عماريّة على بغل، فلما قدم يحيى أجازه الرشيد بجوائز سنية. يقال: إنّ مبلغها مائتا ألف دينار، وغير ذلك من الخلع والحملان، فأقام على ذلك مدّة، وفي نفس الرشيد الحيلة على يحيى، والتتبّع له، وطلب العلل عليه وعلى أصحابه.

ثم إنّ نفراً من أهل الحجاز تحالفوا على السعاية بيحيى، وهم: عبد الله بن مصعب الزبيري، وأبو البختري وهب بن وهب، ورجلٌ من بني زهرة، ورجلٌ من بني مخروم، فوافوا الرشيد لذلك، واحتالوا إلى أن أمكنهم ذكره له، فأشخصه الرشيد إليه، وحبسه عند مسرور الكبير في سرداب، فكان في أكثر الأيام يدعوه ويناظره، إلى أن مات في حبسه، واختلف في كيفية موته، وكيف كانت وفاته؟

فقيل: إنّ الرشيد دعاه يوماً، وجمع بينه وبين ابن مصعب ليناظره، فيما

رفع إليه، فجبهه ابن مصعب بحضرة الرشيد قائلاً: إنّ هذا دعاني إلى بيعته.

فقال يحيى: يا أمير المؤمنين أتصدّق هذا عليَّ وتستنصحه؟ وهو ابن عبد الله بن الزبير الذي أدخل أباك وولده الشعب، وأضرم عليهم النار، حتى تخلصهم أبو عبد الله الجدلي صاحب علي عليه السلام، وهو الذي بقي أربعين يوماً لا يصلّي على النبي صلى الله عليه وآله في خطبته حتى التاث الناس عليه، فقال: إنّ أهل بيت سوء إذا ذكرته أشرأبت نفوسهم إليه، وفرحوا بذلك، فلا أحبّ أن أقر أعينهم بذلك، وهو الذي فعل بعبد الله بن العباس مالاخفاء به عليك، وطال الكلم بينهما حتى قال يحيى: ومع ذلك هو الخارج مع أخي على أبيك، وقال في ذلك أبياتاً منها:

قوموا ببيعتكم ننهض بطاعتنا

إنّ الخلافة فيكم يا بني حسنٍ

وقرأ القصيدة، فتغيّر وجه الرشيد عند سماع الأبيات، فحلف ابن مصعب بالله الذي لا إله إلا هو، وبإيمان البيعة: أنّ هذا الشعر ليس له، فقال يحيى:

والله يا أمير المؤمنين ما قاله غيره، وما حلفت بالله كاذباً ولا صادقاً قبل هذا، وإنّ الله إذا مجّده العبد في يمينه استحيا أن يعاقبه، فدعني أحلفه بيمين ما حلف بها أحدٌ قط كاذباً إلا عوجل.

قال الرشيد: حلّفه، قال: قل: برئت من حول الله وقوته، واعتصمت بحولي وقوتي، وتقلّدت الحول والقوة من دون الله استكباراً على الله واستغناءً عنه، واستعلاءً عليه، إن كنتُ قلتُ هذا الشعر. فامتنع عبد الله منه، فغضب الرشيد، وقال للفضل بن الربيع: هنا شيء، ما له لا يحلف إن كان صادقاً، فرفس الفضل عبد الله برجله، وصاح به: احلف ويحك، وكان له فيه هوى، فحلف باليمين، ووجهه متغيّر وهو يرعد، فضرب يحيى بين

كتفيه ثم قال: يا ابن مصعب قطعت والله عمرك، والله لا تفلح بعدها، فما برح من موضعه حتى أصابه الجذام ومات في اليوم الثالث.

قال أبو فراس الحمداني يذكر ذلك:

ذاق الزبيري غبّ الحنثِ وانكشفت

عن ابن فاطمةَ الأقوال والتهمُ

فكان الرشيد بعد ذلك يقول للفضل بن يحيى: «رأيت يا عباسي؛ ما أسرع ما أديل يحيى من ابن مصعب».

ثم جمع الرشيد الفقهاء، وفيهم محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي يوسف، والحسن بن زياد اللؤلؤي، وأبو البختري: وهب بن وهب القرشي المدني، فجمعوا في مجلس، فخرج إليهم مسرور الكبير بالأمان الذي أعطاه الرشيد ليحيى.

فبدأ بمحمد بن الحسن الشيباني، فنظر فيه، فقال: هذا أمان مؤكّد لا حيلة فيه، فصاح عليه مسرور: هاته فدفعه إلى الحسن بن زياد، فقال بصوت ضعيف: هو أمانٌ. فاستلبه أبو البختري وقال: هذا باطل منتقض، قد شقّ العصا، وسفك الدم، فاقتله ودمه في عنقي.

فدخل مسرور على الرشيد وأخبره، فقال: اذهب له وقل له: فرّقه إن كان باطلاً بيدك!!!

فجاء مسرور، وقال له ذلك، فقال: شقّه أبا هاشم!! قال مسرور: بل شقّه أنتَ إن كان منتقضاً، فأخذ سكّيناً وجعل يشقّه ويده ترتعد، حتى صيّره سيوراً، فأدخله مسرور على الرشيد، فوثب، فأخذه من يده وهو فرح، ووهب لأبي البختري (ألف ألف وستمائة ألف) وولاّه قضاء القضاة، وصرف الآخرين، ومنع محمد بن الحسن من الفتيا مدة طويلة.

وأجمع الرشيد على إنفاذ ما أراد بيحيى، وكان محبوساً في المطبق

الذي لا يعرف به الليل من النهار، فروى من كان مع يحيى، قال كنتُ قريباً منه، فكان في أضيق البيوت وأظلمها، فبينا نحن ذات ليلة كذلك، إذ سمعنا صوت الأقفال، وقد مضى من الليل هجعة، فإذا هارون قد أقبل على برذون له، فوقف ثم قال: أينَ هذا؟ يعني يحيى، قالوا في هذا البيت، قال: عليَّ به، فأدني إليه، فأخذ، فضربه مائة عصا، ويحيى يناشده الله والرحم والقرابة من رسول الله ﷺ ويقول: بقرابتي منك، فيقول: ما بيني وبينك قرابة.

ثم حُمِل فردّ إلى موضعه، فقال: كم أجريتم عليه؟ قالوا: أربعة أرغفة وثمانية أرطال ماء، قال: اجعلوها على النصف، ثم خرج، ومكث ليالي ثم سمعنا وقعاً، وإذا نحن به، فدخل وقال: عليَّ به، فأخرج ففعل به مثل فعله ذلك، وضربه مائة عصا أخرى، وقال: كم أجريتم عليه؟ قالوا رغيفين وأربعة أرطال ماء، قال: اجعلوها على النصف. ثم خرج وعاد الثالثة، وقد مرض يحيى وثقل، قال: عليَّ به، قالوا: هو عليل مدنف لما به، قال: كم أجريتم عليه؟ قالوا: رغيفاً ورطلين ماء، قال: اجعلوه على النصف، ثم خرج. فلم يلبث يحيى أن مات، فأخرج إلى الناس فدفن.

عن إبراهيم بن رياح: أنّه بنى عليه أسطوانة بالرافقة (بلدة في الرقة) وهو حيٌّ.

وعن علي بن محمد بن سليمان أنّه دسَّ إليه في الليل من خنقه حتى تلف، قال: وبلغني أنّه سقاه سمّاً.

وعن محمد بن أبي الحسناء، أنّ الرشيد أجاع السباع، ثم ألقاه إليها فأكلته.

وعن عبد الله بن عمر العلوي، قال:

دعينا إلى مناظرة يحيى بن عبد الله بحضرة الرشيد وهو يقول له: يحيى

اتقِّ الله وعرّفني أصحابك السبعين لئلا ينتقض أمانك!! وأقبل علينا فقال: إنَّ هذا لم يسمِّ أصحابه، فكلما أردت أخذ إنسان يبلغني عنه شيء أكرهه، ذكر أنه ممن أمنت.

فقال يحيى: يا أمير المؤمنين أنا رجل من السبعين فما الذي نفعني من الأمان؟ أفتريد أن أدفع إليك قوماً تقتلهم معي؟ لا يحلّ لي هذا، قال: ثم خرجنا ذلك اليوم، ودعانا له يوماً آخر، فرأيته أصفرَ اللون متغيّراً، فجعل الرشيد يكلّمه فلا يجيبه، فقال: ألا ترون إليه لا يجيبني؟ فأخرج يحيى إلينا لسانه قد صار أسود مثل الفحمة، يرينا أنّه لا يقدر على الكلام، فاستشاط الرشيد غضباً وقال: إنّه يريكم أنّي سقيته السم، والله لو رأيت قتله لضربت عنقه صبراً، ثم خرجنا من عنده، فما صرنا في وسط الدار حتى سقط يحيى على وجهه لآخر ما به.

وعن إدريس بن محمد بن يحيى كان يقول:

قتل جدّي بالجوع والعطش في الحبس.

وعن الزبير بن بكّار عن عمّه: أنّ يحيى لمّا أخذ من الرشيد المائتي الألف الدينار، قضى بها دين الحسين صاحب فخّ، وكان الحسين خلّف مائتي ألف دينار ديناً[1].

هذا مجمل ما حصل ليحيى بن عبد الله المحض في حركته وأمانه وتسييره إلى بغداد، وسجنه، حتى استشهاده، وبالإمكان إلقاء الضوء الكاشف على تداعيات هذه المأساة.

١. إنّ يحيى كان قذاةً في حلق الرشيد كما صرّح بذلك لأنّه قام بتحرّك على نطاق واسع في بلاد الديلم، ولأنه أخ الثائرين في عهد المنصور: محمد

---

(١) ظ: الأصبهاني / مقاتل الطالبيين / ٤٦٥ - ٤٨٥ بتصرّف واختصار + المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ١٨٢ - ١٨٧.

النفس الزكية، وإبراهيم أحمر العينين اللذين تحدّثنا عن ثورتيهما في كتابنا عن الإمام الصادق عليه السلام.

وظهر أنّ الرجل كان من الثائرين مع الحسين بن علي (صاحب فخ) وقد اختفى عن السلطة العباسية، حتى أثّر اختفاؤه في الحياة السياسية، وانتابت الحاكمين منه هواجس وتحسّباتُ عدة، وأنّه في اختفائه قد تنقّل متنكّراً بين عدة كور وقصبات وبلدان حتى استقرّ به المطاف في بلاد الديلم في عهد الرشيد مع سبعين من أصحابه، ولعلّ اختفاءه في أحد خانات (حلوان) شمال العراق من مظاهر هذا التواري عن أنظار السلطة.

ذكر الأستاذ باقر شريف القرشي عن أحد عيون الرشيد، قوله: «كنتُ في خان من خانات حلوان، فإذا بيحيى بن عبد الله في درّاعة صوف غليظة، وكساء صوف أحمر غليظ، ومعه جماعة ينزلون إذا نزل، ويرتحلون إذا رحل، ويكونون معه ناحية، فيوهمون من رآهم أنهم لا يعرفونه، وهم أعوانه»[1].

ويبدو أنّه في هذا المنزل كان في سبيله إلى بلاد الديلم عن طريق شمال العراق الشرقي.

٢. إنّ الرشيد قد علم بالتحرّك السريّ ليحيى، وقد عرف استجابة بعض العراقيين له، وجملة من العلويين، وكان ذلك مما يقلق الرشيد، فرماه بالفضل بن يحيى البرمكي بجيش مكثّف مدرّب على القتال، قيل إنّه بلغ خمسين ألف رجل، وأنّ أصحاب يحيى قد فزعوا من أنباء هذا الجيش، فتفرّقوا عنه، وخالفوه كثيراً، وأخيراً يبدو أنّهم قد أسلموه عند الوثبة، حتى اضطرّ إلى التفاوض مع الفضل ضمن شروط معيّنة، فيها الأمان له ولأصحابه، وقد أمضى الرشيد تلك الشروط، وأشهد عليها يحيى،

---

(١) باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر ٢ / ٩٢ وانظر مصدره.

ودعمت بالأيمان الغليظة المؤكّدة.

٣. إنّ الرشيد قد استقبله بادئ ذي بدء بالإكرام ظاهرياً، وبالعفو أمام الآخرين، وقد رحّب به ودفع له مائتي ألف دينار فأخذها،ووفّى بها ديناً للحسين صاحب فخّ، ولكن الرشيد كان يدّبر له المكيدة ويحكم الخطّة لقتله أو اغتياله، فبدأ بسجنه، وعاوده مراراً بالاستجواب، وساءله عن أسماء أصحابه وأعيانهم، فأبى عليه يحيى ذلك، لأنه علم يقيناً أنّه سيقتلهم، فلا أمان لأهل الغدر والبهتان.

٤. يبدو أنّ طبقة من أهل المكر والخيانة، وممن يتقرّب إلى السلطان بالدماء، قد ائتمروا فيها بينهم للسعاية بيحيى، فغادروا الحجاز، ووصلوا بغداد، واحتالوا بالوصول إلى الرشيد فنالوا من يحيى، فأمر الرشيد بحبسه عند مسرور الكبير في سجن المطبق.

٥. وكان الذي تولّى كبر الافتراء عليه هو عبد الله بن مصعب الزبيري، فاتّهمه بأنّه دعاه إلى الخروج معه على الرشيد، فأنكر يحيى ذلك، وجرت بينهما أيمان قاتلة، انتهت بالانتقام من الزبيري عاجلاً.

٦. وقد استدعى الرشيد جمهرة من الفقهاء الرسميين وعرض عليهم الأمان، فأبى اثنان منهم الطعن فيه، وتجرّأ أبو البختري القرشي على الطعن ولم يعدّه أماناً، فخرّق الأمان، وقطعه بسكّين سيوراً، فأجازه الرشيد على ذلك بأعطية ضخمة، وحرم محمد بن الحسين الشيباني من القضاء والإفتاء مدة طويلة، مما يؤكّد أنّ الرشيد كان يسخّر الفقهاء لإرادته ورغبته، فمن أبى عليه ذلك أبعده فوراً.

٧. وفي خاتمة المطاف رأينا الرشيد عازماً على التخلّص من يحيى، فيضربه ضرباً مبرحاً، ويحيى يناشده الله والرحم والقرابة من رسول الله ﷺ فلا يستجيب الرشيد لشيء، حتى أجهز عليه جوعاً وعطشاً، وقيل سمّاً،

ولم تكن لديه رأفة أو شفقة أو حميّة، حتى انتهت حياته بالشكل الذي ألمحنا إليه باختصار، ورحم الله أبا فراس الحمداني وهو يذكر ذلك:

يا قاصداً لمساويهم يكتّمها
غدر الرشيد بيحيى كيف ينكتمُ

لا بيعةٌ ردعتهم عن دمائهم
ولا يمين، ولا قربى، ولا رحمُ

التصفية الجسدية للعلويين

تعقب الرشيد العلويين، وتتبّع آثارهم، ورصد أعيانهم وزعماءهم، وشدّد الرقابة على من اتصل بعناصر التحرّك الثوري. فقبض على من قبض منهم، وهرب من هرب، وأكتفي بالرشيد وحده نموذجاً لبني العباس.

قال الرشيد للفضل بن يحيى: هل سمعت بخراسان ذكراً لأحد من العلويين؟ فقال: لا والله؛ لقد جهدت فما ذُكِرَ أحد لي منهم، إلا أني سمعت رجلاً يذكر أنّ موضعاً ينزله عبد الله بن الحسن بن علي بن الإمام زين العابدين عليه السلام. سمع الرشيد ذلك فاستشاط غضباً لأنّ عبد الله هذا هو الذي عهد إليه من بعده الحسين (صاحب فخ).

وبعث الرشيد بأعوانه وجلاوزته يتعقّبون عبد الله هذا، فجاؤوا به، قال له: بلغني أنّك تجمع الزيدية، وتدعوهم إلى الخروج معك؟ فأنكر عبد الله ذلك قائلاً:

«يا أمير المؤمنين، ناشدتك الله في دمي، فوالله ما أنا من هذه الطبقة، ولالي ذكر فيهم، وإنّ أصحاب هذا الشأن بخلافي، أناغلامٌ نشأت بالمدينة، وفي صحاراها أسعى على قدمي، وأتصيّد بالبواشق؛ ما هممت بغير ذلك.»

وعبد الله في هذا نفى عن نفسه أية تهمة بالخلاف تنسب إليه، وبرئ من

فكر القائلين بالخروج، وقد نشأ في المدينة على الاصطياد، إلاّ أنّ الحديث هذا لم يرق للرشيد، ولم يقتنع به، فأمر به إلى السجن، فلم يزل محبوساً حتى ضاق صدره، فبعث برسالة للرشيد ضمنها شتمه وسبابه، فلما قرأها الرشيد، دعا جعفر بن يحيى البرمكي، فأمره أن يجعله عنده، وفي اليوم الثاني كان «النوروز» فقدّمه جعفر وضرب عنقه، وغسل رأسه، وجعله في منديل، وأهداه إلى الرشيد، فلما نظر الرأس قال لجعفر: ويحك لم فعلتَ هذا؟ قال: ما علمتُ أبلغ في سرورك من حمل رأس عدوّك إليك...»[1].

وهكذا كانت الدماء تسفك سفهاً، والأرواح تزهق قسراً، وقتل الأبرياء يقع موقع الرضا من السلطان، ولم يكن هذا بأعجب من شأن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الإمام الحسن بن أمير المؤمنين عليهم السلام، فقد أفلت إدريس من وقعة «فخ» وهرب مع مولى له يقال له «راشد» فخرج به في جملة حاج إفريقيا ومصر حتى أقدمه مصر، وبقي مختفياً بهامدة وجيزة، ثم سلكا طريقاً انتهيا معه إلى فاس وطنجة، وبثّ إدريس هناك دعوته، وعظم أمره، والتفّ حوله البربر، فدعاهم إلى الدين فملّكوه عليهم، وبلغ الرشيد ذلك فغمّه الأمر حتى امتنع عليه النوم، فدعا سليمان بن جرير الرقّي فأعطاه سمّاً، وسيّره نحو إدريس، فورد سليمان على إدريس متوسّماً بالمذهب فسرّ به، ثم جعل سليمان يطلب غرّته حتى وجد خلوة من مولاه راشد، فسقاه السمّ وهرب، بعد أن حكم خمس سنين وستة أشهر، فقد بويع له في رمضان ١٧٢هـ وقضى في ربيع الثاني ١٧٧هـ[2].

وقد يتفنّن الرشيد بالتصفية الجسدية، فيقتل من يشاء صبراً، كما حصل هذا للعباس بن محمد بن عبد الله بن الإمام زين العابدين عليه السلام، إذ

---

(١) ظ: الأصبهاني / مقاتل الطالبيين / ٤٩٣ + المسعودي / مروج الذهب ٢ / ٢٣٤ بتصرف.

(٢) ظ: الأصبهاني / مقاتل الطالبيين ٤٨٧ + الطبري / التأريخ ١٠/ ٢٩.

قُبِضَ عليه، وأدخل على الرشيد، وجرى بينهما كلام طويل، فاستهان به الرشيد قائلاً: يا بن الفاعلة، فردّه العباس ردّاً عنيفاً: «تلك أمّك التي تواردها النخّاسون»!!

فغضب الرشيد غضباً شديداً، وما أكثر غضبه في هذه المجالات، وأمر بأن يدنى منه، فقام إليه بنفسه وضربه بعمود من حديد حتى قتله[1].

وكان هذا وكد الرشيد في إبادة أعيان الطالبيين، وتحرّي رجالهم والقضاء عليهم بالقتل تارة وبالسجن أخرى ثم التعذيب والسمّ والإبادة أخيراً. وقد جرى له أمثال ذلك في كل من:

١. إسحاق بن الحسن بن زيد بن الحسن بن أمير المؤمنين عليه السلام.

٢. محمد بن يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن أمير المؤمنين عليه السلام.

٣. الحسين بن عبد الله بن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

فقد قبض على هؤلاء جميعاً، وأودعهم السجون الرهيبة، وأذاقهم صنوف العذاب والتنكيل، حتى قضوا فيها صابرين محتسبين[2].

وقد أورد الأستاذ باقر شريف القرشي جملة من تفصيلات هذه المآسي التي مرّ بها العلويون في عهد الرشيد بخاصة[3].

وقد استظلّ كثير من الطالبيين بالهرب، ولاذوا بالاستتار والتخفّي من جور الرشيد وبطشه، فقد كان يجد لذّةً لا تعدلها لذّة في قتلهم، ويستشعر متاعاً أي متاع بالقضاء عليهم، وكان في طليعة الهاربين: أحمد بن عيسى بن زيد بن الإمام زين العابدين عليه السلام وكان عالماً فقيهاً كبيراً زاهداً[4].

---

(١) ظ: الأصبهاني / مقاتل الطالبيين / ٤٩٨.

(٢) ظ: الأصبهاني / مقاتل الطالبيين / ٤٩٥ - ٤٩٦.

(٣) ظ: باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر ٢ / ٨٦ - ١٠٣.

(٤) ظ: ابن عنبة / عمدة الطالب / ٢٥٩.

وقد هرب من الإرهاب الدموي العنيف إلى البصرة، والتفّ حوله الناس، ودعا إلى نفسه سرّاً، واستجاب له جملة من الأولياء، فساء ذلك الرشيد، وجدّ في طلبه، فما استطاع القبض عليه، إلا أنّ جلاوزته قبضوا على صاحبه «حاضر» وحملوه إلى الرشيد، فلما صار بباب الكرخ رفع صوته قائلاً: أيها الناس أنا حاضر صاحب أحمد بن عيسى بن زيد العلوي وقد أخذني السلطان» فمنعته الشرطة من الكلام[1].

وجيء به إلى الرشيد مقيّداً، فسأله عن أحمد وأنصاره متوعداً، فقال حاضر: والله، لو كان تحت قدمي هذه ما رفعتها عنه، وأنا شيخ قد جاوز التسعين، أفأختم عملي بأن أدلّ على ابن رسول الله حتى يقتل؟ فغضب الرشيد، وأمر بضربه ضرباً مبرحاً فمات تحت السياط، وأمر بصلبه، فصلب ببغداد[2].

فإذا كان هذا الضيم من صنع الرشيد وحده، فما بالك بأسلافه الهادي والمهدي والمنصور فيما ابتكروه من تصفية العلويين؟؟

---

(١) ظ: باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر ٢ / ١٠٤.

(٢) ظ: اليعقوبي / التأريخ ٣ / ١٥٤.

موقف الإمام من العنف الثوري

وفي ضوءِ ما رأيت من ثورة الحسين بن علي (صاحب فخ) وحركة يحيى بن عبد الله المحض (صاحب الديلم) وانتفاضات جملة من الطالبيين، إنّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، لم يستجب لهؤلاء جميعاً بالخروج معهم، أو الانضمام إلى تحرّكهم الثوري. وبغضّ النظر أنّ عليهم أن يستجيبوا له، وليس عليه الاستجابة لهم، لأنّه الإمام المفترض الطاعة، فإنّ الإمام بتجربته السياسية النافذة كان قد علم مسبقاً بما تؤول إليه هذه الانتفاضات الدموية من الفشل والخذلان، وأنها لا تستطيع أن تغيّر بحركاتها الانتحارية شيئاً من الواقع السياسي لا فعلياً ولا مستقبلياً، وإنما هي الدماء وقوافل الشهداء، وإن جلبت النقمة عاطفياً شيئاً ما، لذلك كان موقف الإمام منها موقف الحذر المتيقّظ، كما كان موقفه من الثائرين موقف الناصح والموجّه.

فقد أورد الكليني عن مولى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، قال: لما خرج الحسين بن علي المقتول بفخ، واحتوى على المدينة، دعا موسى بن جعفر عليه السلام إلى البيعة، فأتاه الإمام، وقال له: يا بنَ عم؛ لا تكلّفني ما كلّف

ابن عمك عمّك أبا عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيخرج مني ما لا أريد، كما خرج من أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ ما لم يكن يريد[١].

فقال له الحسين: إنما عرضت عليك أمراً فإن أردته دخلت فيه، وإن كرهته لم أحملك عليه، والله المستعان، ثم ودّعه وانصرف.

فقال له أبو الحسن موسى بن جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ حين ودّعه: «يا بن عمّ؛ إنّك مقتولٌ فأجدّ الضراب، فإنّ القوم فسّاق، يظهرون إيماناً، ويسرّون شركاً، وإنا لله وإنا إليه راجعون، أحتسبكم عند الله من عصبة»[٢].

وأنت ترى الإمام يدعى إلى البيعة والتأييد رفيقاً بالثائرين، مشفقاً عليهم، لا يريد أن يصطدم معهم في شيء، وبالوقت نفسه لم يثبط من العزم، ولم يقدح بالقضية، وكان صاحب فخ مرناً فيما استقبله به الإمام، فلم يرد إكراهه على شيء، وإنما عرض عليه أمراً لو شاء أن يدخل فيه لرحّب به، ولو كره ذلك لم يحمل عليه، وقد لمس الإمام تصميم صاحب فخ، فأشعره مصرّحاً بالحقيقة التي تلقّاها من فيض ذلك العلم المخزون، بأنّه مقتول، وعليه أن يجدّ في القتال، فالحاكمون فسقة يظهرون الإيمان ويسرّون الشرك، فاستقبل صاحب فخ ذلك برحابة صدر وصدق عزيمة، فهو يعلم أنّ الإمام يعني ما يقول.

يقول الأستاذ محمد حسن آل ياسين:

«ولم يكن امتناع الإمام موسى بن جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ عن تأييد ابن عمه بالخروج معه، أو حثّ الناس على بيعته، أو إعلان وجوب الانخراط في صفوف الثائرين، ناشئاً من خوف من بطش السلطة، أو إيثار للحياة على

---

(١) كان محمد النفس الزكية قد دعا الإمام الصادق عليه السلام إلى الانضمام لحركته الثورية ضد المنصور، فأبى عليه الإمام الصادق ذلك، وأخبره بفشل ثورته، كما أخبر بقتله وقتل أخيه من قبل المنصور، وكان الإخبار بالواسطة عن طريق أبيه وسواه. والإمام الكاظم يشير إلى هذا.

(٢) الكليني / الكافي ١ / ٣٦٦ + المجلسي / البحار ٤٨ / ١٦١.

الموت، أو حبّ الدنيا وزبارجها الخدّاعة، وأين منه كل ذلك؟ وهو يعيش بطش السلطة وأذاها في كل يوم، ويتمنّى لقاء الله وقدومه عليه في كل دعاء وابتهال.

«إنّ هؤلاء القادة ـ أئمة أهل البيت عليهم السلام ـ ليسوا من حيث المنطلق والمبدأ هواة حكم أو عشّاق سلطان، ولم يكن من أهدافهم في الدنيا كرسي الملك أو عرض الخلافة، وإنما يتمثّل همّهم الأكبر وشغلهم الشاغل في العمل على تطبيق أحكام الدين، وتجسيد ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله على صعيد الواقع المعاش للمسلمين، فإن علموا بتحقيق الثورة لذلك ـ ولو بالقوّة لا بالفعل كما ثورة الحسين عليه السلام ـ قاموا بها، ولم يأبهوا بفداحة الخسائر وعظم التضحيات.

وإن لم يضمنوا هذه النتيجة لا في الحال ولا في المستقبل المنظور، امتنعوا عن إراقة الدماء، وتأجيج نيران الحروب والفتن، لأنها بلا جدوى ولا مردود»[1].

وثمة ملحظ آخر جدير بالأهمية، أنّ الشعب المسلم وهو يعاني المحن والشدائد في حكم الإرهاب والجبروت، قد ضربت أغلبُ فصائله صفحاً عن السياسة ومشكلاتها، واتّجه شبابها نحو الاغتراف من نمير أهل البيت العلمي، فكانت قوافل العلماء تؤمّ ساحة أهل البيت الرعيل إثر الرعيل، للاستضاءة بنور العلم، وكانت عائدية التمتّع بهذا البرنامج المعرفي تعود بما هو أجدى نفعاً للمسلمين، وبما هو أكثر تحريراً للعقول، وهي ترفض الاعتساف السياسي، وتأبى التضحية بالنفس دون جدوى متوافرة.

إنّ ما قام به الحسين بن علي (صاحب فخ) عبارة عن إنكار للمفهوم السلطوي العام، وكان هذا الإنكار في أقصى درجاته وأعظم عطائه، وهذه

---

(١) محمد حسن آل ياسين / الإمام موسى بن جعفر / ٦١ - ٦٢.

الطريق مسنونة في إنكار المنكر والأمر بالمعروف، فقد يرى بعضهم ذلك لازماً له أنّى اتّفق حتى مع عدم أمن الضرر فيعتبره جهاداً، وهذا اجتهاد قد يخطئ فيه المجتهد وقد يصيب، أما الإمام عليه السلام فله حكمه الخاص الذي ينطلق من موازين أخرى يحدّدها تكليفه الشرعي ليس غير.

ولم يكن الإمام لينجذب للأحاسيس وهي شلاّء، ولم يكن ليتأثّر بالعواطف الصارخة وهي موقّتة، وكان عمله الفعلي الهادف يستوعب الأجيال المتعاقبة لا الأيام القليلة الزائلة، ولم يكن همّه لينحصر بالتغيير السياسي والعدّة غير متكاملة لدرئه، والنصرة غير متيسّرة لردعه، وللإمام أن يرى، ولأتباعه وأوليائه أن يمتثلوا، فالآراء لا تفرض على الإمام مهما كان مصدرها البشري إلاّ إذا اقترنت بقناعته المنطقية، لهذا نجد أنّ دأب الأئمة عليهم السلام ومنهم الإمام موسى بن جعفر استثمار توجّه الناس إليهم بالاتجاه العلمي، فأذكوا شرارته، وألقحوا جذوته، فكانت ثماره بناء الأمة عقلياً وفكرياً، وذلك هو الهدف المركزي الذي تقصر عن تحقيقه عروش الظالمين، بل وتتضاءل أمام زحفه صولة السلاطين، فقد ذهب جبروتهم أدراج الرياح كأمسِ الدابر، وخلد علم أهل البيت في مدرجة التأريخ الإنساني المتحضّر، وكان هذا الاتجاه امتداداً طبيعياً لمسيرة الأئمة في حياتهم العملية في ضوء تعليمات القرآن الكريم والسنّة النبوية لا يحيدون عنهما قيد شعرة قط.

ولك هنا أن تعرف موقف الإمام من حركة يحيى بن عبد الله المحض كما عرفت من ثورة الحسين (صاحب فخ) فكلاهما يصدران عن رافد العنف الثوري، ولم يكونا أحرص على الثورة من الإمام لو أنّ ظروفها كانت مواتية، ولمّا لم يكن الأمر بهذه السهولة واليسر، فالإمام لم يجد شرعية تتبع، ولا مشروعية تستهدف في زجِّ نفسه أو أوليائه في دوّامة محكوم عليها

بالفشل والنهاية المحزنة دون حصيلة مرجوّة في التغيير والانقلاب الجذري سياسياً وعقائدياً.

فقد روي أنّ يحيى حينما عزم على حركته كتب للإمام:

«أما بعد: فإنّي أوصي نفسي بتقوى الله، وبها أوصيك، فإنّها وصية الله في الأولين، ووصيته في الآخرين.

خبّرني من ورد عليَّ من أعوان الله على دينه ونشر طاعته؛ بما كان من تحننك مع خذلانك، وقد شاورت في الدعوة للرضا من آل محمد ﷺ وقد احتجبتها واحتجبها أبوك من قبلك، وقديماً ادّعيتم ما ليس لكم!! وبسطتم آمالكم إلى ما لم يعطكم الله!! فاستهويتم وأضللتم!! وأنا محذرك ما حذّرك الله من نفسه».

تقول الرواية فكتب إليه الإمام موسى بن جعفر في الجواب: «.... أما بعد؛ فإنّي أحذّرك الله ونفسي، وأعلمك أليم عذابه وشديد عقابه وتكامل نقماته، وأوصيك ونفسي بتقوى الله فإنها زين الكلام وتثبيت النعم، أتاني كتابك تذكر فيه أنّي مُدَّعٍ وأبي من قبل، وما سمعت ذلك مني... وذكرت أنّي ثبطت الناس عنك لرغبتي فيما في يديك، وما منعني من مدخلك الذي أنت فيه ـ لو كنت راغباً ـ ضعفٌ عن سنّة، ولا قلة بصيرة بحجة... وأنا متقدّم إليك أحذّرك معصية الخليفة، وأحثّك على برّه وطاعته، وأن تطلب لنفسك أماناً قبل أن تأخذك الأظفار....»[1].

وأنت ترى رسالة يحيى في التهجّم على الإمام، وهي بعيدة الصدور عنه، فإنّه أدرى بمنزلة الإمام ومنزلة أبيه من ذي قبل، وإذا كان يدعو للرضا من آل محمد، فالإمام هو الرضا من آل محمد.

وأنت ترى الردّ فيما نُسِب للإمام، وإذ شككنا في الأصل ثم لنا الشك

---

(١) ظ: الكليني / الكافي ١ / ٣٦٦ + المجلسي / البحار ٤٨ / ١٦٦.

فيما يتفرّع عنه.

وقد تولّى تفنيد هذه الرسالة ورواياتها الأستاذ باقر شريف القرشي: «والرواية لا يمكن الاعتماد عليها لأنها مرسلة أولاً. وقد جاء في سندها روى بعض أصحابنا، بالإضافة إلى أنّ الكثيرين من رجال السند مجهولون... فلا مجال للاعتماد عليها والتشكيك في حال يحيى»[١].

ومهما يكن من أمر، فإنّ الإمام كان قاطعاً بفشل حركة يحيى في الأساس، ولا يستطيع تأييدها في حال من الأحوال، وهو على رصد تام، ولكنه كان يرى ضرورة الثورة المضادّة للحكم العباسي سلبياً لا عن طريق العنف، فلا هدنة معه ولا تأييد له، ولا انخراط في صفوفه، فهو في مجابهة معه غير دموية. ولكنها مجابهة تجرّد الحكم عن صفة الشرعية، وهي أرقى درجات المجابهة سياسياً في مقاومة الانحراف العباسي كما سترى هذا في الفصل الآتي من الكتاب.

---

(١) باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر ٢ / ٩٩.

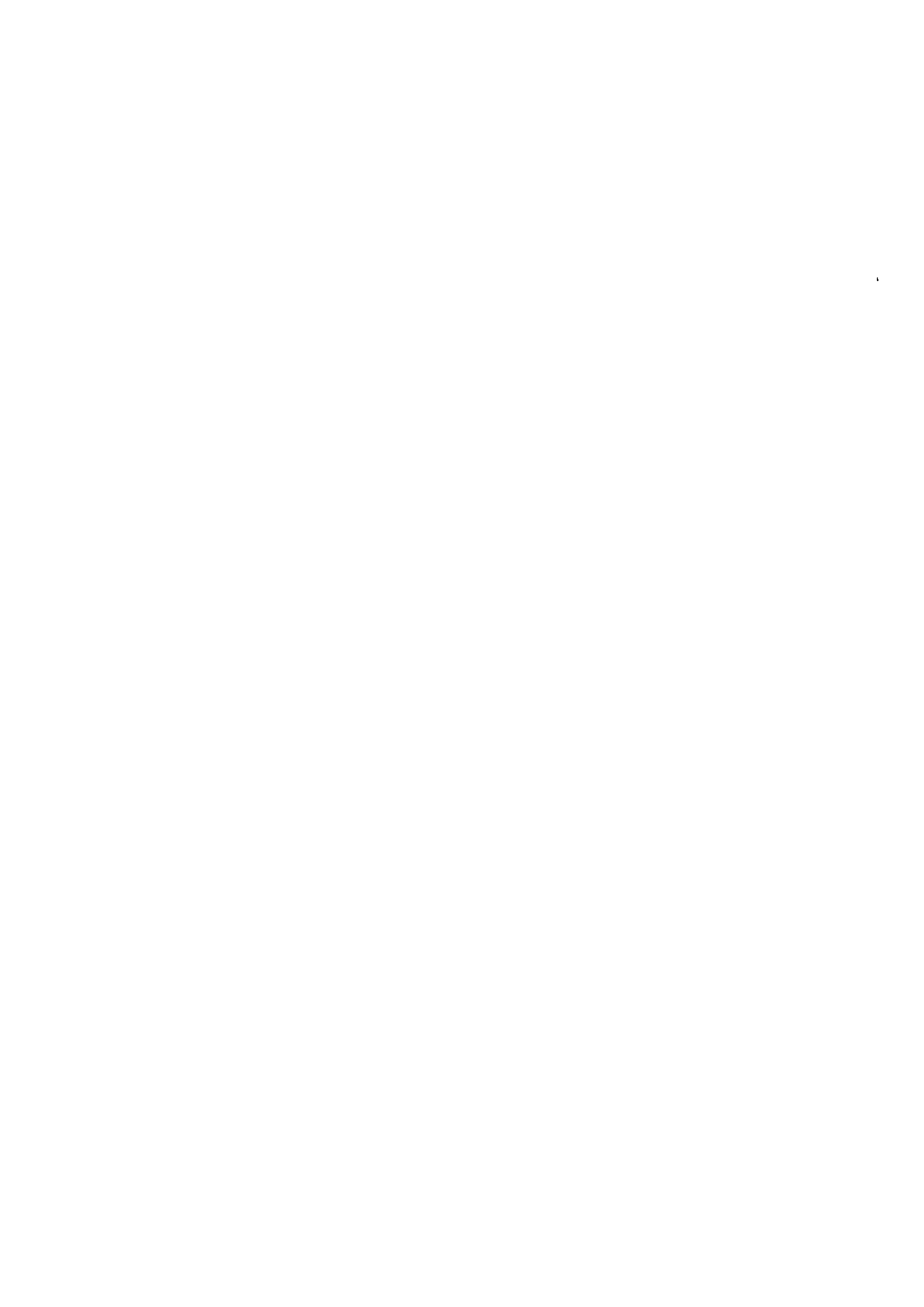
الفصل السادس

البعد الاستراتيجي لسياسة الإمام في مقاومة الانحراف العباسي

١ـ الإمام وسياسة النضال السلبي.

٢ـ الإمام واختراق النظام العباسي.

٣ـ الإمام ومجابهة الانحراف والتضليل الديني.



الإمام وسياسة النضال السلبي

في المناخ السياسي العام يبرز عاملان مهمّان في مهمة الإصلاح الديني والتغيير السياسي، وهما:

١. النضال الإيجابي، ويعنى بمقوّمات الاندماج الكلي في العالم السياسي واستيحاء إيجابياته الإيدولوجية، والإفادة بالقوة وغير القوة، وفي كل المفردات المتفرّعة عليهما، في سبيل الكسب السياسي والإنعاش الاقتصادي والاستيلاء على السلطة، فالهدف هو السلطان، فما يؤخذ بالقوة يسترجع بالقوة، والحقّ يؤخذ ولا يُعطى.

وقد يستعين هذا المبدأ بنظرية الغاية التي تبرّر الواسطة، وبالوسائل الأخرى التي تحقّق هذا المبدأ، ولا نريد أن نناقش هذا المبدأ في التسمية ولا في المكاسب المترتّبة عليه، فهو نفسه له إيجابيته وله سلبيته بوقت واحد.

وقد يتوّج النضال الإيجابي بالأسلوب الدبلوماسي، وقد يعتمد المناورة والدوران في التماس ما يراد، سواء أكان ذلك حقاً أم باطلاً!! إذ المهم العائدية بالنفع المرتقب، وقد يغلّف هذا المناخ بستار من الضبابية القاتمة، والمجاملة الكاذبة إزاء الغاية المتوخّاة بهذا المنهج أو ذاك.

٢. النضال السلبي: ويعنى بمفارقة النظام السياسي قولاً وعملاً وموضوعية،

وذلك يقتضي الإعراض حيناً، والإنكار حيناً آخر، وقد يدعو إلى المقاطعة للحكم في كل شيء فيجعل حركته مشلولةً متعثّرة، وبهذا تكون المعارضة الرافضة شعاراً ودثاراً، وقد يعنى بالمطالبة لتحقيق العدل واستنقاذ الحقوق المهدورة، وقد يدعو إلى الحياة الحرّة الكريمة في ضمن ذلك، وقد يكون مقتصراً على رفض التعاون والتعامل مع الجهات الحاكمة في مؤسّساتها ومرافقها ودواوينها بشكل عام.

وأئمة أهل البيت بالتزامهم منهج التقية لدى تفجّر حياة القسر والإرهاب الدموي، قد يلتزمون النضال السلبي خطاً في عدة طرق، فينطلقون من مبدأ إضعاف الأنظمة ورفضها، وإحكام عزلتها السياسية من قبلهم، وإشعار الشعب المسلم بإنكارهم لأعمال السلطان وأعوان السلطان.

وقد يستقبل الأئمة الوجه المشرق للنضال الإيجابي لإقامة دولة العدل، كما مثّل ذلك أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام في قتاله للناكثين والقاسطين والمارقين.

وقد يكون النضال الإيجابي إنكاراً عملياً لبسط حكام الجور وولاة السوء فيلتجئ إلى الكفاح المسلّح، كما مثّل ذلك سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليهما السلام في ثورة الطفّ.

والإمام المعصوم هو صاحب القرار وحده في هذا الاتجاه أو ذاك بما تمليه عليه ضرورة الوظيفة الرسالية الملقاة على عاتقه، دون النظر للعواطف والأحاسيس والانفعالات الذاتية، فهو بعيد منها ومنزّهٌ عنها، فهو حينما يتصرّف فبوحي من التكليف الشرعي، وبعناية من التسديد الإلهي، ناظراً المصلحة العليا وحدها دون التأثّر بالأهواء أو الانصياع للضغوط مهما كان، وكلا المنهجين الذين يسلكهما الإمام لهما منطلق واحد هو الحفاظ على بيضة الإسلام من وجه، وقيادة الأمة بأمانة وإخلاص من وجه آخر.

فالإمام إذاً مصدر القرار في الجوّ السياسي المحموم، وله البصيرة النافذة بكيفية تنفيذ القرار سلباً أو إيجاباً، فهو قد يتوسّط عند السلطان لقضاء حوائج أوليائه، واستنقاذ حقوق المسلمين، ولكّنه في الوقت نفسه يمانع ممانعة شديدة من الانضواء تحت راية السلطان، أو الانخراط في ديوانه وحاشيته وبطانته، فذلك شيء وهذا شيء آخر.

والإمام الصامد موسى بن جعفر عليه السلام قد تبنّى الأمرين، وسلك النهج بأناة وروية وتطلّع سليم.

كان لرجل من أهل الريّ بقايا أموال يطالبه بها بعض الولاة، فطلب من الإمام أن يسعفه بمفاتحة الوالي في أمره، فاستجاب الإمام ملبيّاً طلبه. وكتب إلى الوالي بالنصّ الآتي:

«بسم الله الرحمن الرحيم؛ اعلم أنّ لله تحت عرشه ظلاً لا يسكنه إلا من أسدى إلى أخيه معروفاً، أو نفّس عنه كربة، أو أدخل عليه سروراً، وهذا أخوك والسلام».

فذهب الرجل برسالة الإمام إلى الوالي فلبّى حاجته، وما اكتفى بذلك بل قاسمه ديناراً بدينار، ودرهماً بدرهم، وثوباً بثوب، وأعطاه قيمة ما لم يمكن قسمته، وهو يقول له:

يا أخي هل سررتك؟ فيقول: أي والله...[1]

ولمّا حمل الإمام موسى بن جعفر إلى هارون الرشيد، جاء إليه هشام بن إبراهيم العباسي، فقال للإمام: يا سيدي قد كُتبَ لي صكٌّ إلى الفضل بن يونس، تسأله أن يروّج أمري!!

قال: فركب إليه أبو الحسن عليه السلام، فدخل عليه حاجبه، فقال: يا سيدي! أبو الحسن موسى بن جعفر بالباب.

---

(١) ظ: المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ١٧٤ عن الاختصاص.

قال: إن كنتَ صادقاً فأنت حرٌّ....

فدخل الإمام، فخرج إليه الفضل بن يونس حافياً، ووقع على قدميه يقبّلهما، فقال له الإمام: اقض حاجة هشام بن إبراهيم فقضاها[1].

هذه الإيجابية بهذه الحدود، كانت بتقدير الإمام وساطة ناجحة لاستباق الخيرات والمسارعة بإنجازها، وقضاء حقّ من حقوق الأخوّة في الله، وفيها تنفيس كرب وإغاثة ملهوف.

ولكن الإمام يقف الموقف الصارم والحازم تجاه الانضمام لعمل السلطان، والانضواء في رفّ معيته وسطوته.

فقد حدّث زياد بن أبي سلمة، قال:

«دخلتُ على أبي الحسن موسى عليه السلام، فقال: يا زياد إنك لتعمل عمل السلطان؟

قلت: أجل؛ قال لي: ولِمَ؟ قلت: أنا رجل لي مروّة وعليّ عيال، وليس وراء ظهري شيء. فقال لي: يا زياد! لئن أسقط من حالق فأنقطع قطعة قطعة؛ أحبُّ إليَّ من أتولّى لأحد منهم عملاً، أو أطأ بساط رجل منهم، إلاّ لماذا؟ قلت: لا أدري جعلت فداك، قال: إلا لتفريج كربة عن مؤمن، أو فكّ أسره، أو قضاء دينه.

يا زياد: إنّ أهون ما يصنع الله بمن تولّى لهم عملاً أن يضرب عليه سرادق من نار إلى أن يفرغ الله من حساب الخلائق.

يا زياد: فإن وليت شيئاً من أعمالهم فأحسن إلى إخوانك، فواحدة بواحدة، والله من وراء ذلك.

يا زياد: أيمّا رجل منكم تولّى لأحد منهم عملاً ثم ساوى بينكم وبينهم فقولوا له: أنت منتحل كذّاب.

---

(١) ظ: الكشّي / الرجال / ٣١١ + البحار ٤٨ / ١٠٩.

يا زياد: إذا ذكرت مقدرتك على الناس فاذكر مقدرة الله عليك غداً، ونفاد ما أتيت إليهم عنهم، وبقاء ما أتيت إليهم عليك»[1].

إنّ هذا التحذير المخيف الصادر عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام تجاه مغبّة العمل عند السلاطين، والانخراط في صفوف الظلمة، لحريٌّ بكل مسلم أن يجعله نصب عينيه وهو يتولّى المسؤولية في الحكم، أية مسؤولية أصغيرة كانت أم كبيرة، لأنه قد ينحرف وتأخذه العزّة بالإثم، أو قد يتيه بولايته على الآخرين فيضلّ عن الطريق السوي، وما أكثر من تورّطوا في هذا الانهيار السحيق فتجاهلوا الخدمة العامة، وحدبوا على المصالح الذاتية، ولم يعيروا أذناً صاغية لظلامات الناس ومشكلات الأمة، فصاروا من جبابرة الأرض، متجاهلين أنّ المسؤولية عبارة عن نيابة فعلية عن الشعب يفترض فيها الإحسان إلى الإخوان، وتفريج كروب الإنسان، ودرء أحداث الزمن عن الأسرى وذوي الاحتياج، وما يجري هذا المجرى في ضوء توجيه الإمام.

ولو استعرضت مصادر حياة الإمام في هذا الملحظ الخاص لرأيت عجباً كبيراً فيما يستفزّ الإمام من تولية أبسط الأمور لدى الحاكمين، وقد لا نرى فيها بأساً كثيراً، ولكنه ينكرها ويشجبها ويستحسن تركها والإعراض عنها. فهذا صفوان الجمّال، ومنزلته لدى من عاصر من الأئمة غير مجهولة، وهو على قدر عظيم، ومع هذا فإنّ الإمام يتّجه نحوه بالقول:

«يا صفوان؛ كل شيء منك حسن جميل ما عدا شيئاً واحداً!!

قال صفوان: جعلت فداك؛ أيَّ شيء؟

قال الإمام: كراؤك جِمالك من هذا الطاغية (الرشيد).

قال صفوان: والله ما أكريته أشراً، ولا بطراً، ولا للصيد، ولا للهو،

---

(١) الكليني / الكافي ٥ / ١٠٩ + المجلسي / البحار ٤٨ / ١٧٢ - ١٧٣.

ولكن أكريته لهذا الطريق ـ يعني طريق الحجّ ـ ولا أتولاه بنفسي، ولكن أبعث معه غلماني.

فقال له الإمام: أيقع كِراك عليهم؟

قال صفوان: نعم جعلت فداك.

قال الإمام: أتحبّ بقاءهم حتى يخرج كراك؟

فقال الإمام: من أحبّ بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم كان وارداً للنار»[1].

فما كان من صفوان إلا أن باع جماله وترك المهنة. وكان هذا النكير من الإمام والتشديد فيه لئلا ينتظم أولياؤه في عداد أولياء الظلمة وأعوانهم، وهو ما تحرّمه الشريعة الغراء.

ولئن حقّق الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عزل النظام في نضاله السلبي هذا، فإنّه قد اخترق هذا النظام من الداخل بما لم يسبق إليه تأريخ الإمامية السياسي، وكان ذلك بإقرار من الإمام، حيث استطاع اولياؤه المقرّبون أن يصلوا إلى أعالي مراكز السلطة، وأن يكافحوا أمن النظام العباسي ضدهم بالأمن المضادّ الذي ستراه في المبحث الآتي.

---

(١) ظ: الكشّي / الرجال / ٢٧٦.

الإمام واختراق النظام العباسي

واختُرِقَ النظام العباسي من الداخل على يد أولياء الإمـام وبعلم من الإمـام، وكان ذلك يحظى باهتمامه ورعايته ومباركته فيما توصّلنا إليه.

فهذا عليّ بن يقطين ذو الشرف الأصيل والولاء العريق لأهل البيت، وكان أبوه من دعاة الدولة العباسية، ونشأ ولده بالقرب منهم، فكانت ثقة العباسيين به متناهية، وإخلاصه ـ في الظاهر ـ لهم متواتراً، فكان من رجال الدولة أيام المهدي والهادي، وتقلّد منصب الوزير الأول في عهد الرشيد، والإمام يسدّد خطاه، ويخترق بوجوده النظام، ويدعو له، ويعضد سيرته في إغاثة الملهوفين، والدفع عن الضعفاء، وقد طلب الإذن من الإمام أن يتخلّى عن منصبه هذا، فنهاه الإمام عن ذلك نهياً شديداً، معلّلاً ذلك، ومبرمجاً له، بقوله عليه السلام:

«لا تفعل، فإنّ لنا بك أنساً، ولإخوانك بك عزّاً، وعسى أن يجبر الله بك كسيراً، ويكسر بك نائرة المخالفين عن أوليائه، يا عليُّ: كفارة أعمالكم الإحسان إلى إخوانكم، اضمن لي واحدة وأضمن لك ثلاثاً، اضمن لي أن لا تلقى أحداً من أوليائنا إلا قضيت حاجته وأكرمته، وأضمن أن لا يظلّك سقف سجن أبداً، ولا ينالك حدُّ سيف أبداً، ولا يدخل الفقر بيتك أبداً، يا

عليٌّ من سرّ مؤمناً فبالله بدأ، وبالنبي ﷺ ثنّى، وبنا ثلّث»[١].

والإمام بهذا النحو من التوجيه، يبدي تفهّمه الدقيق لمهمّة عليّ بن يقطين من خلال موقعه الخطير، وهو يشجّعه على البقاء فيه، وهو ينهاه عن الاستقالة منه، وهو يتوسّم فيه جبر الكسير وإطفاء نائرة المخالفين عليه، والإمام يلمس منه إيجابية مطلقة، فيبيّن له ما يكفرّ به عن عمل السلطان في الإحسان إلى الإخوان، وقضاء احتياج المؤمن، ويحدّد له بعض الآثار الوضعية في إكرامه لأولياء الله، ويلخصها له في ثلاث:

الاعتصام من السجن، والاحتراز من السيف، والاستعاذة من الفقر، فليت أولياء الإمام التزموا بذلك لدى تسلّمهم لبعض المناصب في الدولة، ونظروا ببصائرهم لهذه المكاسب الكبرى التي يحقّقها من عمل بنصح الإمام وتوجيهه الكريم.

إننا نلمس في سيرة علي بن يقطين ألقاً من هدي أهل البيت ووهجاً من عمق تطلّعهم لحقائق الأشياء، فهو القدوة في هذا المجال الرفيع، ومع ذلك نراه يضيق ذرعاً بعمل السلطان لئلا يقصّر بالتزامه الإنساني، ويكتب للإمام:

«إنّ قلبي يضيق مما أنا عليه من عمل السلطان، فإن، أذنت لي جعلني الله فداك، هربت منه»؟

ويرد عليه جواب الإمام بالنصّ:

«لا آذن لك بالخروج عن عملهم، واتقِّ الله...»[٢].

لقد تراءى للإمام بلمح بعيد يعسر رصده على الكثيرين، أنّ بقاء علي بن يقطين في موقعه هو الأصلح لأمور الدنيا والدين، فهو لا يأذن له في الخروج منه، ومع ذلك فهو يأمره بتقوى الله، تأكيداً على مراقبة النفس من

---

(١) المجلسي / بحار الأنوار ٤٨/ ١٣٩ وانظر مصدره.

(٢) ظ: المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ١٥٨ يرويه عن قرب الإسناد / ١٧٠.

الاصطدام بالأهواء.

ولما قدم الإمام عليه السلام إلى العراق في إحدى استدعاءاته من قبل الرشيد، زاره علي بن يقطين، فشكا إلى الإمام حاله، وطلب منه الإذن في التخلّي عن منصبه فنهاه الإمام، وقال له: «يا عليُّ، إنّ لله أولياءً مع أولياء الظلمة ليدفع بهم عن أوليائه، وأنت منهم يا عليُّ»[١].

إنّ هذا الاعتداد بعلي بن يقطين يعني أنّ الإمام قد أخلصه لمهمة رسالية يتعاهدها، ويؤدّيها على الوجه الأمثل، فهو يعتمده في اختراق النظام لا لإرادة الحكم بل لإنعاش حياة المضطهدين، ـ وما أكثرهم ـ وإنقاذهم من جور السلطان، وللنظر في شأن أولياء الله من وراء ستار حديدي من السرّيّة التامة من خلال هذا الجندي المجهول، فهو في الظاهر من رجال النظام، وهو في الواقع من أولياء الإمام، وأيّ ولي هذا والإمام يشهد له بالجنة، ويدعو له أن يكون في أعلى علّيين.

أورد الأستاذ باقر شريف القرشي: إنّ ابن يقطين أقبل على الإمام ذات مرة، فقال الإمام:

من أراد أن يرى رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فلينظر إلى هذا المقبل، وأشار إلى علي، فقال بعض من حضر:

أو في الجنّة؟ قال الإمام: أما أنا فأشهد أنّه من أهل الجنّة. وقال الإمام في مورد آخر: ضمنت لعلي بن يقطين أن لا تمسّه النار أبداً. بل وأكثر من هذا، فقد دعا له الإمام، وهو على الصفا بقوله:

«إلهي؛ في أعلى علّيين، اغفر لعلي بن يقطين»[٢].

إنّ هذه الرعاية التامّة لهذا الرجل تعبّر عن مدى ما قدّمه من خدمات

---

(١) ظ: باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر ٢ / ٢٨٧.

(٢) ظ: باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر ٢ / ٢٨٧.

للأمة، وما وفّى به من التزامات للإمام، وما أسداه من أعمال جبّارة تجاه الشعب الضائع في عواصف النظام، مما استحقّ معه هذا الثناء العاطر والدعاء العظيم.

وهذا يُلزمنا جميعاً أن نتوجّه هذا التوجّه في رعاية شؤون الناس، ومتابعة احتياج الآخرين، كلٌّ بحسب موقعه من المنصب والمكانة والجاه، وإلاّ فهي الأيام القصيرة مهما طالت، ومن ورائها المساءلة والمحاسبة فيما قدّم الإنسان وما ترك.

ولسنا ندري بالضبط حجم هذه المكرمات التي انتهجها ابن يقطين في خلال منصبه، ولسنا نعلم مدى اتّساع عطائه الإنساني وهو على رأس السلطة، لأنّ أعماله محاطة بكثير من الكتمان لئلا يفتضح أمره لدى السلطان، إلا أننا نستشعر أهميتها القصوى من خلال اعتداد الإمام به، ومتابعته من قبله في تصرّفاته، وتسديده له في كثير من شؤونه التي يقصر إدراكها إلا بعد حين، ناظرين بذلك ما ذكرهُ الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ) وهو أقرب إلى عهد الإمام، وما يرويه لنا نعتبره من أصول الروايات.

أولاً: روى عبد الله بن إدريس عن ابن منّان، قال: حمل الرشيد في بعض الأيام إلى علي بن يقطين ثياباً أكرمه بها، وكان في جملتها درّاعة خزّ سوداء من لباس الملوك.

فأنفذ ابن يقطين بالدرّاعة وبعض الثياب إلى الإمام الكاظم عليه السلام ومعها خمس ماله، فلما وصلت، قَبَلَ الإمام الثياب والمال، وردّ الدرّاعة... وكتب إليه: أن احتفظ بها....

فلمّا كان بعد أيام تغيّر علي بن يقطين على غلام فصرفه... فسعَى به إلى الرشيد، وقال: إنّه يقول بإمامة موسى بن جعفر، ويحمل إليه خمس ماله في كل سنة، وقد حمل إليه الدرّاعة... فأنفذ الرشيد إلى ابن يقطين من

يحضره... فحضر... قال له: ما فعلت بالدراعة؟.. قال هي عندي في سفط مختوم...

قال الرشيد: أحضرها الساعة،

فاستدعى بعض خدمه وقال له:... افتح الصندوق الفلاني، وجئني بالسفط الذي فيه بختمه، فلم يلبث الغلام أن جاءه بالسفط مختوماً، فوضع بين يدي الرشيد... ففتح ونظر إلى الدرّاعة فيه بحالها... فقال لعلي بن يقطين: أرددها إلى مكانها، وانصرف راشداً، فلن أصدّق عليك بعدها ساعياً، وأمر أن يُتّبع بجائزة سنية، وتقدّم بضرب الساعي ألف سوط، فضرب نحواً من خمسمائة سوط، فمات في ذلك[1].

ولك أن تسأل: أنّى توافر هذا العلم بهذه الحال في الاستدعاء والسؤال عن الدرّاعة من قِبَل الإمام؟ وكيف احتاط الإمام لذلك بهذه الصورة التي حكمت ببراءة ابن يقطين بمثّل هذا الموقف الحرج؟

ولنا أ ن نجيب: إنّ هذا العلم لدى الإمام قد فتح عليه كما تقدّم في موارد علم الإمام ـ من ذلك الباب الذي فتح لجدّه أمير المؤمنين عليه السلام «علّمني رسول الله ألف باب من العلم، يفتح لي من كل باب ألف باب»[2].

وإذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك، فقد انتفى الاستغراب والعجب والاستبعاد، وليس هو بأعجب مما ترويه الحادثة الأخرى في الموضوع نفسه.

ثانياً: روى محمد بن إسماعيل عن محمد بن الفضل، قال: اختلفت الرواية بين أصحابنا في الوضوء، فكتب علي بن يقطين بذلك للإمام، فكتب إليه الإمام: فهمتُ ما ذكرت من الاختلاف في الوضوء، والذي أمرك

(١) ظ: الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ٣٢٩ - ٣٣٠.

(٢) ظ: الشيخ المفيد/ الاختصاص ٢٨٢ - ٢٨٣ في طرق وأسانيد هذا الحديث، وبما روي فيه عن الأئمة عليهم السلام بعبارات متقاربة.

به في ذلك:.... أن تغسل وجهك ثلاثاً، وتخلّل شعر لحيتك، وتغسل يدك من أصابعك إلى المرفقين، وتمسح رأسك كله... وتغسل أصابعك إلى المرفقين.

فلما وصل الكتاب عجب بما رسمه له... ثم قال: مولاي أعلم بما قال، وأنا ممتثل أمره...

وسعي بعلي بن يقطين لدى الرشيد، فقيل له: اختبره بالوضوء... فلما دخل وقت الصلاة، وقف الرشيد وراء حجاب ينظر وضوءه، فتوضّأ على الصورة التي رسمها له الإمام.

فقال الرشيد: كذب يا علي بن يقطين من زعم أنك من الرافضة.

وورد على ابن يقطين كتاب الإمام عليه السلام:

«ابتداءً من الآن يا علي بن يقطين توضّأ كما أمر الله، اغسل وجهك مرّة فريضة، وأخرى إسباغاً، واغسل يديك من المرفقين كذلك، وامسح مقدم رأسك، وظاهر قدميك من فضل نداوة وضوئك، فقد زال ما كان يخاف عليك، والسلام»[1].

ومع كل هذه المنزلة لعلي بن يقطين عند الإمام، فقد يجابهه بما يصحّح سيرته، ويخفّف من غلوائه، رائده في ذلك إيقافه عند المنهج السويّ الذي لا يُحاد عنه، فقد حجبه، وامتنع عن مقابلته، لأنه حجب إبراهيم الجمّال، وهو من أولياء الإمام.

فقال علي بن يقطين للإمام موسى بن جعفر: يا سيدي ما ذنبي؟

فقال عليه السلام: حجبتك لأنك حجبت أخاك إبراهيم الجمّال.

وقد أبى الله أن يشكر سعيك، أو يغفر لك إبراهيم الجمّال.

فدخل علي بن يقطين على إبراهيم داره، وقال له: إنّ المولى أبى أن

---

(١) ظ: الشيخ المفيد / الإرشاد / ٣٣٠ - ٣٣١.

يقبلني أو يغفر لي.

فقال إبراهيم: يغفر الله لك، فألحّ علي بن يقطين عليه أن يطأ خدّه، ففعل ذلك بعد ممانعة، فقبله الإمام بعد هذا[1].

ومن هنا نستشعر أنّ رعاية الإمام لعلي بن يقطين لم تكن لذاته، وإنما كانت لأسباب موضوعية أهمها أن يكون عند حسن ظنّ القاصدين من ذوي المشكلات، وأن يكون في تواضع المؤمن لدى استقبال ذوي الدين، وأن يكون لإخوانه حصناً منيعاً تردّ به عادية الزمن.

وبتوافر هذه الشروط وأمثالها، يكون العمل عند السلطان مبرّراً، ويكون الاندماج كلياً بهذهِ الشروط ضرورياً لتنفيذ ذلك، فبهذا وذاك دفع الظلامة وإقرار العدالة وتلبية الاحتياج، وهذا كلّه هو الذي يسوّغ اختراق النظام من الداخل لهدف أسمى.

وهكذا تمكّن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وبشكل إيجابي بنّاء، أن يتجاوز كثيراً من العقبات التي اعترضت مسيرته النضالية والعملية من خلال أوليائه الأمناء.

---

(١) ظ: المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ٨٥.

الإمام ومجابهة الانحراف والتضليل الديني

ومع الصورة الناصعة لأدب المجاملة الفاعل لدى الإمام، وحفاظه المتكامل على شعيرة التقية الواجبة، إلا أننا نجده وبإصرار قد يجابه المركز الأول في السلطة مجابهة صريحة صارمة، إذا اقتضت الضرورة الدينية ذلك، وإذا كان لابدّ من الإصحار بالرأي الخارق للأباطيل.

نلمس هذا الاتجاه عند الإمام متجاوب الأصداء إذا حاذر من التضليل الديني وخداع المسلمين، ليصدّ بذلك الانحراف المتعمّد، ويصون الحقيقة الكبرى من الابتذال والضياع.

ومبدأ المجابهة لإعلاء كلمة الحقّ لدى الإمام من خصائصه الثابتة التي أذهلت الكثيرين في عصره، لأنها ـ عادةً ما ـ تكون بأشدّ اللحظات حراجة، وعند أصعب المجالات محاججة، وهي قد تستلزم التضحية، وتتطلّب الجرأة العالية، وتعني قطع خطوط العلاقات القائمة.

وسجلُّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حافل بهذا التوجّه الفريد إذ كان لا بدّ منه لتمييز الواقع من الدجل، وتخليص الحقّ من الشوائب، وكشف الأقنعة دون محاباة.

فحينما دخل الرشيد المدينة توجّه إلى زيارة النبي ﷺ ومعه الناس، فتقدّم الرشيد نحو القبر وقال:

السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا بن العمّ ـ مفتخراً بذلك على غيره ـ فتقدّم الإمام موسى بن جعفر إلى القبر، وقال:

السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبتاه.

فتغيّر وجه الرشيد، وتبيّن الغيظ فيه[1].

إنّ الملحظ الدقيق لهذه الحادثة يُشيرُ إلى أنّ الرشيد أراد إضفاء صيغة الشرعية على خلافته، لأنه ابن عمّ رسول الله ﷺ فأراد الإمام إبطال ذلك، واحتجّ على الرشيد بلغته نفسها، فسلّم على النبي ﷺ باعتباره أباه، فهو أولى بالشرعية ـ إذاً ـ من الرشيد.

وكان الرشيد كثيراً ما يفتح الحوار مع الإمام، بيد أنّه يتحرّى مواطن الإحراج في ذلك، وكان الإمام بين خيارين: إمّا أن يغضب السلطان، وإمّا أن تشوّه الحقائق، فكان الإمام عليه السلام يختار الخيار الأول، وكان هذا قدره عند الحاكمين.

قال الرشيد للإمام: لم زعمتم أنكم أقرب إلى رسول الله ﷺ منّا، وأنتم بنو علي... والنبي جدّكم من قبل أمكم؟

فقال الإمام: لو أنّ النبي ﷺ نشر فخطب إليك كريمتك هل كنت تجيبه؟

فقال الرشيد: سبحانَ الله! ولِمَ لا أجيبه؟ بل أفتخر على العرب والعجم وقريش بذلك.

فقال الإمام: لكنه عليه السلام لا يخطب إليَّ، ولا أزوّجه.

فقال: لِمَ؟

---

(١) الطبرسي / الاحتجاج / ٢١٤ + البحار ٤٨ / ١٠٣.

فقال الإمام: لأنّه ولدني ولم يلدكم[١]...

وفي رواية: إنّ الإمام قال للرشيد في هذه المسألة أو سواها:

هل يجوز أن يدخل على حرمك ـ يعني النبي ـ وهنّ منكشفات؟

فقال لا، قال الإمام: لكنه يدخل على حرمي كذلك، وكان يجوز له[٢].

ويبدو أنّ مسألة النسب كانت الذريعة الوحيدة لبني العباس، لإثبات أنهم أولى بالنبي من أهل بيته، لكثرة ما سألوا الإمام عن ذلك عسى أن يفحم، ولكنهم كانوا في وهم، فمتى كَلَّ الأئمة عن الإجابة في شيء؟

سأل الرشيد الإمام: كيف قلتم أنّا ذرية النبي، والنبي لم يعقّب، وإنما العقب للذكر لا للأنثى، فائتني بحجّة من كتاب الله...

فقال الإمام: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾[٣].

من أبو عيسى؟ فقال: ليس لعيسى أبٌ.

فقال الإمام: «إنما ألحقناه بذراري الأنبياء عليهم السلام من طريق مريم وكذلك أُلحقنا بذراري النبي صلى الله عليه وآله من قِبَل أمّنا فاطمة.

وزاده الإمام قوله (تعالى): ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[٤].

ولم يدّعِ أحد أنّ النبي أدخل تحت الكساء إلا علي بن أبي طالب،

---

(١) ظ: المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ١٢٧ - ١٢٨.

(٢) ظ: الآبي / نثر الدرّ ١ / ٣٥٩.

(٣) سورة الأنعام / ٨٤ - ٨٥.

(٤) سورة آل عمران / ٦١.

وفاطمة، والحسن والحسين، وكان تأويل قوله ﷻ «أبناءنا» الحسن والحسين، ونساءنا فاطمة، وأنفسنا علي بن أبي طالب، إنّ العلماء قد أجمعوا على أنّ جبرئيل قال يوم أحد: يا محمد إنّ هذه لهي المواساة من علي. قال: لأنّه مني وأنا منه، فقال جبرئيل: وأنا منكما يا رسول الله، ثم قال: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلاّ علي...»[١].

وكان الرشيد قد جنّد لقضية البنات ووراثة الأعمام شعراء البلاط العباسي وفقهاء السلاطين، لإثبات أنّ قرابتهم للنبي أولى من قرابة أئمة أهل البيت عليهم السلام، وقد تولّى كبر ذلك مروان بن أبي حفصة قائلاً:

أنّى يكونُ وليس ذاك بكائنٍ
لبني البنات وراثة الأعمام

فردّه جعفر بن عفّان الطائي، وكان يلعن مروان ويقبح قوله، وأجابه:

لِمَ لا يكون وإن ذاك لكائنٌ
لبني البنات وراثة الأعمامِ

للبنت نصفٌ كاملٌ من مالِهِ
والعمُّ متروكٌ بغير سهامِ

ما للطليق.. وللتراث.. وإنما
صلّى الطليقُ مخافة الصمصَامِ[٢]

وهي قضية باءت بالفشل، ولم تكن لتنطلي على الشعب المسلم.

وكان الأسلوب الاستفزازي للرشيد الذي يجابه به الإمام، يدعو الإمام أن يجيب بصراحة متناهية، وذلك بسبب من الإحراج الكبير الذي تثيره هذه الأسئلة، فتجعل الإمام مضطراً لبيان الأمر الواقع على حقيقته المجرّدة،

---

(١) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ٨١ + البحار ٤٨ / ١٢٨.

(٢) ظ: الأصبهاني / الأغاني ١٠ / ٩٤ وما بعدها.

ولكنه يسنده إلى القرآن العظيم الذي هو عدله.

قال الرشيد للإمام موسى بن جعفر: أسألك عن العباس وعلي، بم صار عليٌّ أولى بميراث رسول الله ﷺ من العباس، والعباس عمُّ رسول الله، وصنو أبيه؟

قال الإمام: «إنّ النبي ﷺ لم يورِّث من قدر على الهجرة فلم يهاجر، وإنّ علياً عليه السلام آمن وهاجر، وقال الله:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾»[1].

«فالتمع وجه الرشيد وتغيّر»[2].

وأضاف في البحار، فسأله الرشيد: أسألك يا موسى، هل أفتيت بذلك أحداً من أعدائنا؟ أو أخبرت أحداً من الفقهاء في هذه المسألة بشيء؟

فقال الإمام: «اللهم لا....»[3].

وتارة أخرى يحرج الرشيد الإمام بتنطعه في السؤال، وقد يستعفيه الإمام من ذلك، ولكن الرشيد يصرّ إصراراً كبيراً، ويعطي الإمام الأمان، فكان لابدّ للإمام من الجواب.

قال الرشيد: لِمَ ادّعيتم أنكم ورثتم النبي ﷺ والعمّ يحجب ابن العمّ، وقبض رسول الله ﷺ وقد توفي أبو طالب قبله والعباس حيٌّ؟...

قال الإمام: إنّ في قول علي بن أبي طالب عليه السلام: إذ ليس مع ولد الصلب ـ ذكراً كان أو أنثى ـ لأحد سهمٌ إلا للأبوين والزوج والزوجة، ولم يثبت للعمّ مع ولد الصلب ميراث، ولم ينطق به الكتاب[4].

وبمثل هذا العنت، وبمثل هذه الأسئلة، وبمثل هذه الإجابة، كان قلب

---

(١) سورة الأنفال / ٧٢.

(٢) ابن شعبة / تحف العقول / ٣٠٢.

(٣) المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ١٢٧.

(٤) المصدر نفسه ٤٨ / ١٢٦.

الرشيد يمتلئ حقداً على الإمام، والإمام يعلم ذلك، ولا يستطيع إلا قول الحقّ، إذ ليس مما ليس منه بدٌّ، وهكذا يشكّل الإمام موقفاً حاسماً لا تردّد فيه ولا اضطراب.

ولم تكن مجابهة الإمام عليه السلام لفقهاء البلاط العباسي بأقلّ شأواً من مجابهته للسلاطين، فقد أورد الشيخ المفيد: إنّ محمد بن الحسن الشيباني سأل الإمام موسى بن جعفر بمحضر من الرشيد وهم بمكة؛ قال له: أيجوز للمحرم أن يظلّل عليه محمله؟

فقال الإمام عليه السلام: لا يجوز له ذلك مع الاختيار. فقال محمد بن الحسن: أفيجوز أن يمشي تحت الظلال مختاراً؟

فقال له الإمام: نعم، فتضاحك محمد بن الحسن من ذلك.

فقال له الإمام الكاظم عليه السلام: أفتعجب من سنّة النبي صلى الله عليه وآله وتستهزئ بها؟ إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كشف ظلاله في إحرامه، ومشى تحت الظلال وهو محرم، وإنّ أحكام الله يا محمد لا تقاس، فمن قاس بعضها على بعض فقد ضلّ سواء السبيل. فسكت محمد بن الحسن لا يرجع جواباً[1].

وقد يفجأ الإمام هؤلاء بنوع من علمه لا تصل إليه أحلامهم، ولا ترقى إلى إدراكه عقولهم، فقد ورد في عدة مصادر:

أنّ أبا يوسف القاضي ومحمد بن الحسن الشيباني زارا الإمام في السجن، وقال أحدهما للآخر: نحن على أحد أمرين؛ إمّا أن نساويه أو نشكله، فجلسا بين يديه، فجاء رجل كان موكلاً بالإمام من قبل السندي، فقال: إنّ نوبتي قد انقضت وأنا عليَّ الانصراف، فإن كان لك حاجة أمرتني حتى آتيك بها في الوقت الذي تخلفني النوبة؛ فقال: مالي حاجة.

فلما أن خرج، قال الإمام لأبي يوسف وصاحبه:

---

(١) الشيخ المفيد / الإرشاد / ٣٣٤ - ٣٣٥.

ما أعجب هذا؟ يسألني أن أكلّفه حاجة من حوائجي ليرجع، وهو ميّتٌ في هذه الليلة!!

فقاما، وقال أحدهما للآخر: إنا جئنا لنسأله عن الفرض والسنّة؛ وهو الآن جاء بشيء آخر كأنّه من علم الغيب!!

ثم بعثا برجل مع الرجل، فقالا: اذهب حتى تلزمه، وتنظر من أمره في هذه الليلة... فمضى الرجل فنام في مسجد في باب داره، فلمّا أصبح سمع الناعية ورأى الناس يدخلون داره، فقال: ما هذا؟

قالوا: مات فلان في هذه الليلة... فانصرف الرجل إلى أبي يوسف ومحمد وأخبرهما الخبر، فأتيا أبا الحسن عليه السلام، فقالا: قد علمنا أنك أدركت العلم في الحلال والحرام، فمن أين أدركت أمر هذا الرجل الموكل بك أنّه يموت الليلة؟

قال الإمام عليه السلام: من الباب الذي أخبر بعلمه رسول الله صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالب عليه السلام.

فلمّا ردّ عليهما هذا، بقيا لا يحيران جواباً[1].

وهذا باب ملتئب لدى الإمام فيه عشرات الأحداث شواهد على الإخبار بعلم المنايا وآجال الناس، وكأنها مرهونة بكلامه، ولا تخطئ ولا مرة واحدة، ودلائلها منتشرة في أمهات المصادر، وقد تقدّم قسم كبير منها علم الإمام الموهبي، ومنها:

عن إسحاق بن عمّار، قال: سمعت العبد الصالح أبا الحسن عليه السلام ينعى إلى رجل نفسه، فقلت في نفسي: وإنّه ليعلم متى يموت الرجل من شيعته؟

فقال الإمام شبه المغضب: يا إسحاق قد كان رُشيد الهجري يعلم علم

---

(١) ظ: الراوندي / الخرائج والجرائح / ٢٠٢ + البحار ٤٨ / ٦٤ - ٦٥.

المنايا والبلايا، فالإمام أولى بذلك[1].

وفي رواية أخرى عن إسحاق أيضاً قال:

كنت عند أبي الحسن عليه السلام، ودخل عليه رجل فقال له أبو الحسن: يا فلان إنّك تموت إلى شهر.

قال: فأضمرت في نفسي كأنه يعلم آجال شيعته؟

فقال الإمام: «يا إسحاق، وما تنكرون من ذلك؟ وقد كان رشيد الهجري مستضعفاً، وكان يعلم علم المنايا والبلايا، فالإمام أولى بذلك، ثم قال: يا إسحاق تموت إلى سنتين، ويتشتّت أهلك وولدك وعيالك، وأهل بيتك....»[2].

ولا نريد الاسترسال في هذا الشأن لئلا نخرج عن صلب الموضوع.

وفي ضوء ما تقدّم يبدو لنا أنّ الإمام في اللحظات الحاسمة؛ لا يتردّد مطلقاً في إبداء الحقائق مجرّدةً حذر التضليل.

---

(١) الصفار / بصائر الدرجات ٦ / ٧٣.

(٢) المجلسي / البحار ٤٨ / ٥٤ عن المصدر السابق ٦ / ٧٣.



الفصل السابع

الإمام في غياهب السجون

١ ـ رؤية مجهرية لأسباب سجن الإمام.

٢ ـ إيديولوجية تنقّل الإمام بين عدة سجون.

٣ ـ حياة الإمام في طوامير السجون.

٤ ـ الإمام يوصي بأمواله ويوقف أراضيه.



رؤية مجهرية لأسباب سجن الإمام

رأيت فيما سبق بيانه في الفصول المتقدّمة، ما كان عليه الإمام من عظيم المنزلة وسموّ الذات، وما احتلّ من شعبية عند الجماهير، وما هو عليه من كيان رفيع لدى العلماء وقادة الفكر وحملة القرآن ورجال الحديث، وما امتاز به من الخلق العظيم وكريم الشمائل، وما جبل عليه نفسه من كظم الغيظ وضبط النفس وسخاء اليد، وما عرف به من الحلم والصبر الجميل. وفوق هذا كله توجّه النظر العقلي إلى قيادته الدينية وإمامته الشرعية، يضاف إلى ذلك اندماجه الكلّي في ذات الله، ونفاذ بصيرته بأمر الله، وتمتعه بتلك القابليات الفذة من العلم الفيّاض بشقّيه الكسبي واللدنّي، وكونه الإمام الماثل الذي تشخص نحوه الأبصار عند الأزمات والملمّات.

وقد رأيت فيما مضى آراء الأساطين والفحول وهي تقوّم فضله وتشيد بمكارم أخلاقه وتنصّ على خصائصه ومميزاته.

كلّ أولئك مؤشّرات بارزة السمات في حياة الإمام، وقيادة الإمام، ومكوّنات شخصية الإمام.

والرشيد في تركيبه النفسي المعقّد، وفي طبيعة ما جبلت عليه ذاته

من الأنانية، وما اشتملت عليه تصرّفاته الدالة على حقده الدفين لأهل البيت عليهم السلام، وهو في قرارة نفسه يعلم من هو الإمام، ويقرّ بما للإمام من مُثل وقيم لا تتوفّر في سواه، وهو يرى تدافع الفقهاء والمحدّثين وأهل العلم على جامعة الإمام، وهو يرى مدرسة الإمام تشقّ طريقها في التشريع والحياة والاجتماع، وهو يرى شطر المسلمين يقولون بإمامة موسى بن جعفر عليه السلام، حتى عاد الإمام حديث المجالس والأندية، وشغل المحافل والدواوين.

وهذا كلّه من أبرز العوامل المساعدة على استفزاز الرشيد. والرشيد أحرص الناس على الحياة، وأحبّ الناس للسلطان، وأشدّ الناس طلباً للملك، فقد تسلّمه بعد هن وهن، فهو لهذا لا يتورّع عن اقتراف أية جريمة مهما كان نوعها، للإبقاء ـ فيما زعم ـ على الحكم، وقد هاله هذا الزخم الهائل من فضائل الإمام، وقد روّعه ذلك الرصيد الشعبي للإمام، فهو يحمي ملكه، ويبقي على نفسه، فيما يعتقده عندما يقدم على اعتقال الإمام.

يقول الأستاذ باقر شريف القرشي:

«لقد كان هارون يقظاً، فكان يخرج بغير زيّه متنكّراً ليسمع أحاديث العامة، ويقف على اتجاهاتهم ورغباتهم، فكان لا يسمع إلاّ الذكر العاطر للإمام والثناء عليه، وحبّ الناس له، ورغبتهم في أن يتولّى شؤونهم، فلذلك أقدم على ارتكاب الموبقة»[1].

وكانت البنية الخلفية للرشيد تتكئ على تركيب متدهور مريض، يفيض لؤماً وحساسية من أهل هذا البيت الكريم، وهذا موسى بن جعفر زعيم العلويين وكبير الطالبيين، وهذا هو موقعه من الأمة وتلك مآثره في الآفاق، وأولاءِ شيعته في الحياة، فلماذا يبقى طليقاً؟ وهو مصدر قلق وهلع، ولماذا

---

(١) باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر ٢ / ٤٥٠.

لا يسجن؟ عسى أن تتفرّق الجموع، وتتلاشى المخاوف، ويثبت السلطان.

على حين رأينا الإمام في سيرته ومسيرته: صاحب دين لا صاحب دنيا، ورائد إيمان لا رائد سلطان، ورجل رسالة لا رجل سلطة. ولم تكن هذه الحقائق لتثني الرشيد عن عزمه في القضاء على الإمام.

وكان للسعاية والوشاية أثرهما في حنق الرشيد على الإمام، فبعض الأخبار تعزو سبب ذلك ليحيى بن خالد البرمكي، فقد سعى بالإمام لدى الرشيد، لأنّ الرشيد جعل ابنه الأمين في حجر جعفر بن محمد بن الأشعث وهو إمامي، فساء ذلك يحيى، واعتقد أنّ دولته ودولة أبنائه ستنتهي لدى تولّي الأمين الخلافة، فهو سيستوزر ابن الأشعث باعتباره أستاذه، فسعى به إلى الرشيد بحجة: أنه لا يصل إليه مال إلا أخرج خمسه ووجّه به إلى موسى بن جعفر... فبعث الرشيد من يكتشف له أمر هبة أعطاها لابن الاشعث وهي عشرون ألف دينار، فأدخل عليه بعد الترويع ليلاً.... قال له: إنّك تبعث إلى موسى بن جعفر من كلَ ما يصير إليك بخمسه، وإنك قد فعلت ذلك في العشرين ألفاً، فأمر بإحضارها على حالها.

وجعل يحيى يحتال في إسقاط جعفر، فأرسل إلى علي بن إسماعيل بن جعفر (وقيل محمد بن جعفر) وقال له: أخبرني عن عمّك، وعن شيعته، وعن المال الذي يحمل إليه... فقال: إنّ من كثرة ماله أنّه اشترى ضيعة بثلاثين ألف دينار، فقال البائع: لا أريد هذا المال، وأريد نقداً آخر، فأمر بها الإمام فصبت ببيت ماله، وأعطاه ذلك النقد الآخر... فلما أراد الرشيد الرحلة إلى العراق، بلغ الإمام أنّ علياً ابن أخيه يريد الخروج مع السلطان، فأرسل إليه: مالكَ والخروج مع السلطان؟ قال: لأنّ عليّ ديناً.

قال الإمام: دينك عليّ. قال: وتدبير العيال؟

قال: أنا أكفيهم.

فأبى إلا الخروج، فأرسل إليه الإمام بيد أخيه محمد بن جعفر بثلاثمائة دينار، وأربعة آلاف درهم، فقال:

إجعل هذا في جهازك ولا توتم ولدي[١].

وفي رواية أخرى أنّ محمد بن جعفر دخل على الرشيد ثم قال له:

ما ظننت أنّ في الأرض خليفتين حتى رأيت أخي موسى بن جعفر يسلّم عليه بالخلافة.

وكان ممن سعى بالإمام يعقوب بن داود وكان يرى رأي الزيدية[٢].

وقيل: إنّ الواشي بالإمام عند الرشيد: محمد بن إسماعيل بن جعفر[٣].

وقد تعتبر هذه الوشاية أو تلك بداية المبرّرات لسجن الإمام من قبل الرشيد، أو في الأقل من المشجّعات عليه.

بينما يرى الأستاذ محمد حسن آل ياسين أنّ سبب سجن الإمام كان مرتبطاً بحجّ الرشيد أول مرة بعد استخلافه، وزيارته قبر النبي، وقوله: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا بن العمّ.

فتقدّم الإمام إلى القبر، فقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبه.

فتغيّر وجه الرشيد، وتبيّن الغيظ فيه فكتمه، وقال: هذا هو الفخر يا أبا الحسن.

والمستنبط من مجموع روايات هذه الحادثة، وقد وردت في عدد غير قليل من المصادر المعتمدة[٤] أنّ الرشيد قد صدمته هذه المفاخرة الصريحة أو المباهلة الجريئة، فأفسدت عليه مشاعر التعالي ولذة المباهلة، وحرمته

---

(١) ظ: الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ٦٩ باختصار.

(٢) المصدر نفسه ١ / ٧٢.

(٣) ابن شهرآشوب / المناقب ٣ / ٤٣٦.

(٤) رويت هذه الحادثة في أكثر من عشرين مصدراً معتمداً.

من توهّم قدرته على خداع السامعين والمشاهدين بأنّه أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ ويكون الأحقّ بالخلافة بحكم هذه القربى المتّصلة الوشائج.

ويبدو أنّ الإمام قد أحسّ بهدف الرشيد من هذا الإعلان، فبادر إلى إعلام جماهير الحاضرين: بأنه الأقرب رحماً ونسباً، والألصق لحمة وسبباً، وأنّه ابن رسول الله ﷺ حقّاً على رغم زيف المزيفين، وتضبيب المضببين. وتدلّنا الأخبار المعنية بهذا الموضوع أنّ الرشيد بعد أن كتم غضبه وغيظه، لم يستطع نسيان ذلك أو إغفال أمره، بل يظهر بجلاء أنّ تلك المجابهة العنيفة المؤدّبة من الإمام موسى بن جعفر، قد هيمنت على نفس الخليفة وأفكاره فأصبحت شغله الذهني الشاغل[١].

ومهما يكن من أمر، فقد يكون هذا هو السبب الرئيسي في اعتقال الإمام، ويضاف إليه: أنّ لشخصية الإمام القيادية أثراً كبيراً في اعتقاله، لأنّه صاحب الكيان المتميّز في الشعب المسلم.

ولحقد الرشيد أثره الفاعل في اعتقال الإمام، وللسعايات أثرها في التعجيل باعتقال الإمام، ولحاشية السوء وبطانة الشرّ الأثر الكبير في تهييج الأحاسيس المضادّة للإمام، كما أنّ للأطماع سبيلها إلى ذلك كله، فقد أجيز علي بن إسماعيل بمائتي ألف درهم، فجيء بها إليه وهو في النزع الأخير، إذ زحر زحرة خرجت بها حشوته وأمعاؤه، فقال: ما أصنع بالمال وأنا في الموت[٢].

وقد اعتبر الأستاذ باقر شريف القرشي أنّ أهمّ أسباب اعتقال الرشيد للإمام: سموّ شخصية الإمام ـ حقد هارون على الإمام ـ حرص الرشيد على الملك ـ بغضه للعلويين ـ الوشاية بالإمام ـ احتجاج الإمام على الرشيد ـ

---

(١) محمد حسن آل ياسين / الإمام موسى بن جعفر / ٧٠ - ٧١.

(٢) ظ: المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ٢٣٢.

تعيين الإمام لحدود فدك ـ صلابة موقف الإمام موسى بن جعفر[١].

وأخيراً أقدم الرشيد على فعلته النكراء فكان سفيهاً حقّاً، فحجّ البيت مبتدئاً بقبر النبي ﷺ مخاطباً له:

«يا رسول الله؛ إنّي أعتذر إليك من شيء أريد أن أفعله، أريد أن أحبس موسى بن جعفر، فإنّه يريد التشتّت بين أمتك وسفك دمائها»[٢].

ولست أدري كيف يقبل عذره؟ أو يقبل رسول الله عذره؟ وهو يريد اعتقال بضعة منه، ومن ذا الذي يصدّق هذا السفه اللا مسؤول الذي أطلقه الرشيد على عواهنه؟ ومتى أراد الإمام تشتيت الأمة وهو الداعي إلى وحدتها، ومتى أراد سفك دمائها؟ والحلّ والعقد بيد أبناء الطلقاء من العباسيين.

إنّ هذا الاعتداء السافر على حرمة رسول الله ﷺ كان على مسمع ومشهد من المسلمين، وهم يستمعون ذلك ويسخرون منه، والرشيد ينتهك الحرمة ومقاييس الأدب بحضرة الرسول الأعظم، والإمام تقطع عليه صلاته ولا يمهل لإتمامها، ويؤخذ مكبّلاً بالحديد من مسجد جدّه، وهناك قبتان ضربت من دونهما الأشعار، لا يعلم الإمام بأيهما هو، وتؤخذ واحدة بطريقها إلى البصرة، والأخرى نحو الكوفة، ليعمى على الناس خبره، وكان الإمام في التي مضت إلى البصرة[٣]. وهكذا يُنتزع الإمام جهاراً من مدينة جدّه، ويتولّى شؤونه في مسيره هذا زمرة من الغلاظ الشداد، حيث تنتظره معتقلات الطاغية. وكان الإمام قد استدعي إلى بغداد في عهد المهدي وسجن في بغداد، فليس السجن على الإمام بجديد[٤].

---

(١) ظ: باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر ٢ / ٤٤٣ - ٤٦٠.

(٢) المجلسي / البحار ٤٨ / ٢٣٢.

(٣) ظ: تفصيلات ذلك: المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ٢٣٢.

(٤) ظ: الخطيب البغدادي / تأريخ بغداد ١٣ / ٢٧ + ابن كثير / البداية والنهاية ١٠ / ١٥٣

إيديولوجية تنقل الإمام بين عدة سجون

كان الهدف الاستراتيجي من عملية سجن الإمام ـ فيما يحسب الرشيد ـ هو تضييع خبر الإمام، وإيقاف زحفه الهادر، عسى أن يتناساه الناس، وتمَّحي صورته عن الذاكرة، ومن ثم يتمّ تنفيذ المخطّط اللا إنساني باغتياله مع سبق الإصرار، دون أدنى ريب.

ولم يكن الإمام بالشخص الذي يتجاهل تأثيره الحكّام ولا الطغاة، ولا هو بالرجل الاعتيادي الذي إن حضر لا يعدّ، وإن غاب لا يفتقد، فالصورة على العكس تماماً، فهو في ضمير الناس أمثولة تقتدى، وهو في حياة الناس الإمام البرّ التقي النقي، وهو في الميدان العام سيد الموقف ورائد الحقّ الصريح، والسجن في مثل هذا الواقع الشاخص لا يغيّر شيئاً من منزلة الإمام، ولا يطوي صفحة لذكر الإمام، ولا يحقّق غاية يسعى لها النظام، فآثار الإمام في حياة المجتمع المسلم لا تختفي بحال من الأحوال.

ولم يكن الاستعجال بقتل الإمام يمثّل خطة سليمة في نظر الرشيد، فكان السجن هو الاختيار الأمثل عنده، عسى أن يكون السجن بديلاً يستطيع فيه القضاء على ذيوع شهرته، وعسى أن يقال: مرض، واعتلّ، أو

+ القندوزي / ينابيع المودّة / ٣٨٢.

مات حتف أنفه، ليتخلّص من أية مسؤولية.

هكذا أراد الرشيد، وهكذا خطّط الرشيد.

وذهبت مصادر دراسة حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام إلى أنّ سجونه قد تعدّدت وتكرّرت، وأنّ مواضعها قد تنوعت وتوزّعت، وأنّه سجن في البصرة مرةً، وسجن في بغداد مرّات. وكان في البصرة في سجن عيسى بن جعفر بن المنصور الدوانيقي، وهو والي البصرة من قبل الرشيد، وقد نظر في شأن الإمام وأمره، فذهل الرجل بعبادته وإنابته، وأعجب بصبره وخلقه الرفيع، واستمع إلى الإمام في دعائه، وإذا به يقول:

«اللّهم، إنّك تعلم أنّي كنت أسألك أن تفرّغني لعبادتك، اللّهم وقد فعلت، فلك الحمد»[1].

وكان عيسى بن جعفر ـ فيما يبدو ـ عاقلاً متأنّياً، فما أراد أن يتورّط في شيء من أمر الإمام، ويبدو أنّ الإمام كان عنده موسّعاً عليه في سجنه، وقد أتيحت له فيه الحرية بعض الشيء، إذ تمكّن جملة من رواة الحديث من الاتصال بالإمام والاستماع إليه، وكان منهم ياسين الزياتي، فقد روى عن الإمام بعض الأحكام وهو في سجن البصرة.

ومكث الإمام في سجن البصرة سنة، فتململ عيسى بن جعفر بذلك، ثم كتب إلى الرشيد: أن خذه مني، وسلّمه إلى من شئت، وإلاّ خلّيت سبيله، فقد اجتهدت بأن أجد عليه حجّة فما أقدر على ذلك، حتى إني لأتسمّع عليه إذا دعا، لعلّه يدعو عليَّ أو عليك، فما أسمعه يدعو إلاّ لنفسه، يسأل الرحمة والمغفرة. فوجّه الرشيد من تسلّمه منه[2].

ويبدو أنّ هذه الرسالة من عيسى إلى الرشيد قد كتبت بعد أن اضطرب

---

(١) ابن شهرآشوب / المناقب ٣ / ٤٣٢ + البحار ٤٨ / ١٠٧.

(٢) ظ: المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ٢٣٣.

الوضع بالبصرة احتجاجاً على سجن الإمام، وقد بلغ الرشيد ذلك، فبادر بالطلب إلى عيسى أن يقوم باغتيال الإمام عليه السلام فجمع عيسى مستشاريه وعرض عليهم أمر الرشيد، فحذّروه من قتل الإمام فاستجاب لهم، وقد كان كارهاً لذلك، وكتب إلى الرشيد يستعفيه من هذه المهمّة، ويدلّ على هذا الرسالة المفصّلة التي بعث بها عيسى إلى الرشيد، يقول فيها:

يا أمير المؤمنين، كتبتَ إليَّ في هذا المجال، وقد اختبرته طول مقامه بمن حبسته معه عيناً عليه، لينظروا حيلته وأمره وطويّته ممن له المعرفة والدراية، ويجري من الإنسان مجرى الدم، فلم يكن منه سوء قطّ، ولم يذكر أمير المؤمنين إلاّ بخير، ولم يكن عنده تطلّع إلى ولاية، ولا خروج، ولا شيء من أمر الدنيا، ولا دعا قط على أمير المؤمنين، ولا على أحد من الناس، ولا يدعو إلاّ بالمغفرة والرحمة له ولجميع المسلمين، مع ملازمته للصيام والصلاة والعبادة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يعفيني من أمره، أو ينفذ من يتسلّمه مني، وإلاّ سرّحت سبيله، فإنّي منه في غاية الحرج[1].

ويبدو من عرض هذه الرسالة وأسلوبها الرقيق أنّ عيسى بن جعفر أراد أن يخفف ما في نفس الرشيد عن الإمام، فأنبأه بأنّه في ظلّ رقابة صارمة، وأنّ عيناً عليه في السجن يلحظه بدقة متناهية، ينظر في أمره ويوافيه بأخباره، وأنّه لم يذكر الرشيد إلاّ بخير، وأنّه اختبره فوجده عازفاً عن السلطان، لا يتطلّع إلى ولاية، وليس من رأيه الخروج على الرشيد، وطلب إليه تخلية سبيله، وإطلاقه من سجنه، وإلاّ أطلق سراحه.

وكان الإمام قد قضى سنة كاملة في سجن عيسى، واستجاب الرشيد لطلب عيسى فنقله إلى الفضل بن الربيع في بغداد[2].

---

(١) ظ: الأصبهاني / مقاتل الطالبيين / ٥٠٢ + الشيخ المفيد / الإرشاد / ٣٣٧ + الإربلي / كشف الغمة ٣ / ٢٥.

(٢) ظ: المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ٢٣٣.

ولكن الذي يبدو من الأخبار، ويظهر للبحث أنّ الرشيد أودع الإمام معه في قصره لدى جلبه إلى بغداد، ومن ثم سلّمه لمدير شرطته عبد الله بن مالك الخزاعي، وهو ما رواه المسعودي، وأكّده ابن طاووس، ونقله ابن خلّكان، وذُكرَ عند القندوزي، وابن حجر، وأورده المجلسي، وفي هذا السجن لدى مدير الشرطة تمّ إطلاق سراح الإمام، ويبدو أنّه الإطلاق، ثم قبض عليه، وأودع سجن الفضل بن الربيع.

هذا ما توصّل إليه البحث، فقد حدّث عبد الله الخزاعي بسند صحيح قال: دعاني هارون... فقال امضِ إلى تلك الحجرة وخذ من فيها، واحتفظ به إلى أن أسالك عنه، فدخلتُ وإذا هو موسى بن جعفر، فحملته وأدخلته داري، وكنتُ أتولّى خدمته بنفسي، ومضت الأيام فلم أشعر إلاّ برسول الرشيد يقول:

أجب أمير المؤمنين، فذهبت إلى الرشيد، وأذن لي بالدخول، فوجدته قاعداً على فراشه، فسلّمت، فسكت ساعة، ثم قال لي:

يا عبد الله أتدري لم طلبتك في هذا الوقت؟ إنّي رأيت الساعة حبشياً قد أتاني ومعه حربة، فقال: إن لم تخلِّ عن موسى بن جعفر الساعة، نحرتك بهذه الحربة.

فاذهبْ فخلِّ سبيله. فقلت: أطلق موسى بن جعفر؟ ثلاثاً، قال: نعم؛ إمض الساعة حتى تطلق موسى بن جعفر، وأعطه ثلاثين ألف درهم، وقلْ له: إن أحببت المقام قبلنا فلك عندي ما تحبّ. وإن أحببت المضي الى المدينة فالأذن في ذلك إليك. قال: فمضيت إلى الحبس... وخلّيتُ سبيله[1].

وإذا صحّت هذه الرواية بإطلاق سراح الإمام فإنّه قد أبقي في بغداد

(١) ظ: المسعودي / مروج الذهب ٣ / ٢٦٥ - ٢٦٦ + ابن طاووس / مهج الدعوات / ٢٤٥ + ابن خلّكان / وفيات الأعيان ٤ / ٩٢٤ + القندوزي / ينابيع المودّة / ٣٦٣ + ابن حجر / الصواعق المحرقة / ١٢٢.

في ظلّ إقامة جبرية، حتى استثنى الرشيد من قراره فاعتقله عند الفضل بن الربيع أحد وزرائه، فصيّره في داره، ويبدو أنّ الفضل كان متحرّجاً من سجن الإمام، أو في الأقلّ كان مرفهاً عليه في سجنه، فقد أعجب الفضل بعبادة الإمام، واطلع على ذلك عبد الله الشزويني (القروي) وهو على سطح داره، وحدّثه عنه بقوله: «إنّي أتفقّده الليل والنهار، فلم أجده إلاّ على الحال التي أخبرك بها: إنّه يصلّي الفجر، ويعقّب ساعة، ويسجد سجدة لا يزال بها حتى تزول الشمس... ثمّ يثب لصلاة الظهر... إلى أن يفرغ من صلاة العصر... فإذا غابت الشمس وثب فصلّى المغرب... ولا يزال في صلاته وتعقيبه إلى صلاة العتمة، ثم يفطر على شوى... ثمّ يقوم فلا يزال يصلّي في جوف الليل حتى يطلع الفجر... فإذا طلع وَثَبَ لصلاة الفجر[1].

وأراده الرشيد على قتل الإمام فأبى ذلك[2].

وقال القروي للفضل: «اتّقِ الله ولا تحدث في أمره حدثاً يكون منه زوال النعمة... فقال الفضل: قد أرسلوا إليَّ غير مرة يأمرونني بقتله فلم أجبهم لذلك، وأعلمتهم أنّي لا أفعل ذلك، ولو قتلوني ما أجبتهم إلى ما سألوني»[3].

ويبدو أنّ الفضل بن الربيع أراد منَ الرشيد إطلاق الإمام، وعاتبه على التضييق عليه في الحبس، فأجابه هارون: هيهات لابّد من ذلك.

ويبدو أنّ هارون قد أطلق الإمام بما رواه حاجب الفضل بن الربيع عن الفضل نفسه، إذ دخل عليه مسرور الكبير، قائلاً: أجب الأمير... فخرج معه إلى الرشيد فقال له: تداخلك رعب؟ قلت: نعم، قال: صرْ إلى حبسنا، فأخرج موسى بن جعفر بن محمد.... وخيّره بين المقام أو الرحيل، فقلت:

---

(١) المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ٢١١.

(٢) ظ: الإربلي / كشف الغمة ٣ / ٢٥.

(٣) الصدوق / الأمالي / ١٤٦ + البحار ٤٨ / ٢١١.

تأمر بإطلاق موسى بن جعفر، قال: نعم؛ ويلك تريد أن أنكث بالعهد[١].

وأطلق سراح الإمام موقناً، وقبض عليه، فسجن عند الفضل بن يحيى. فوسع على الإمام وأكرمه ـ في رواية ـ فاتّصل ذلك بالرشيد وهو في الرقّة، فكتب إليه الرشيد ينكر عليه توسيعه على الإمام، وأمره بقتله، فتوقّف الفضل، ولم يقدم على ذلك[٢].

فأنفد الرشيد مسروراً الخادم إلى بغداد على البريد، وأمره من فوره أن يدخل إلى موسى بن جعفر فيعرف خبره، فإن كان الأمر على ما بلغه أوصل كتاباً منه إلى العبّاس بن محمد وأمره باعتقاله، وأوصل كتاباً آخر إلى السندي بن شاهك يأمره بطاعة العبّاس.

فقدم مسرور فنزل دار الفضل بن يحيى، ولا يدري أحدٌ ما يريد، ثم دخل على الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فوجده على ما بلغ الرشيد من السعة والرفاهية، فأوصل لهما الكتابين، فلم يلبث الناس أن خرج الرسول يركض إلى الفضل بن يحيى فركب معه، وخرج مشدوهاً دهشاً حتى دخل على العباس، فدعا بسياط وعقابين، فوجّه ذلك إلى السندي بالفضل فجرّد، ثم ضربه مائة سوط، فخرج الفضل متغيّر اللون خلاف ما دخل، فأذهبت نخوته، فجعل يسلم على الناس يميناً وشمالاً.

وكتب مسرور بالخبر إلى الرشيد فأمر بتسليم الإمام إلى السندي بن شاهك، وجلس مجلساً حافلاً سبّ به الفضل بن يحيى وأمر بلعنه، حتى تدارك ذلك أبو يحيى بن خالد، فساوى الأمر[٣].

وهذه المرويّات تشير أنّ الفضل بن يحيى قد وسع على الإمام لما رآه من حسن سمته، ورفيع عبادته، وانقطاعه إلى الله تعالى، وعزوفه عن الدنيا

---

(١) ظ: المسعودي / مروج الذهب ٣ / ٢٦٥.

(٢) ظ: الإربلي / كشف الغمة ٣ / ٢٦.

(٣) ظ: الأصبهاني / مقاتل الطالبيين / ٥٠٣ + الطوسي / الغيبة / ٢٢.

والجاه والسلطان.

بينما تقول بعض الروايات: إن البرامكة بما فيهم الفضل وأبوه كانوا من أعداء الإمام، حتى روي أنّ الفضل قدّم للإمام مائدة فيها السمّ، واستدعي له الطبيب، فأراه الإمام راحته وكانت خضرة، تدلّ على أنه قد سمَّ، فانصرف الطبيب قائلاً: والله لهو أعلم بما فعلتم به منكم[1].

وقد ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا تصديق ذلك، فقد قال لأحمد بن محمد بن أبي نصر من حديث:

«إنّ الله يدافع عن أوليائه، وينتقم لأوليائه من أعدائه، أما رأيتَ ما صنع الله بآل برمك، وما انتقم لأبي الحسن عليه السلام»[2].

هذا ملخص تأريخي إجمالي بسجون الإمام في عهد الرشيد، وقد تناوب عليها: في سجن عيسى بن جعفر بن المنصور في البصرة، ونقل إلى بغداد فسجن فيها عدة مراتٍ، فكان من سجونه قصر الرشيد، ثم سلّمه إلى مدير شرطته والموكّل بقصره: عبد الله بن مالك الخزاعي، ثم أطلق، وأبقي في بغداد، وقبض عليه وسجن عند الفضل بن الربيع مرفّهاً عليه، ثم أطلق لكرامة له، وقبض عليه أخيراً، فسجن عند الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي، فوسع على الإمام، وعاقبه الرشيد على ذلك، وقيل على العكس من هذا، ثم أمر به إلى سجن السندي بن شاهك، وكان سجنه من أضيق السجون معاملة مع الإمام، ومن أشدّ المعتقلات عليه.

وكان موقع هذا السجن في دار المسيّب قرب باب الكوفة، وباب الكوفة يقع اليوم ـ كما في خارطة بغداد ـ في منطقة «الوشاش» وهي إحدى أحياء محلة الكرخ ببغداد.

---

(١) ظ: المجلسي / البحار ٤٨ / ٢١٢ عن الصدوق / الأمالي / ١٤٦.
(٢) ظ: المجلسي / البحار ٤٨ / ٢٤٩.

يقول الأستاذ باقر شريف القرشي:

«وسمعت من الأفواه أنّ المحلّ الذي سجن به الإمام معروف لدى الأوساط البغدادية، وهو أحد قصور آل الباچچي»[١].

وقيل: إنّ الإمام سجن في دار السندي بن شاهك نفسه، وقد يدلّ على ذلك أنّ أخت السندي سألت أخاها أن تتولّى أمر هذا العبد الصالح في حبسه ـ وكانت من المتديّنات ـ فوافق على ذلك فكانت على خدمته، وحُكي أنها قالت:

«كان إذا صلّى العتمة حمد الله ومجّده ودعاه، فلم يزل كذلك حتى يزول الليل، فإذا زال الليل قام يصلّي حتى يصلّي الصبح، ثم يذكرحتى تطلع الشمس، ثُم يقصد إلى ارتفاع الضحى، ثم يتهيّأ ويستاك، ويأكل، ويرقد إلى الزوال، ثم يتوضّأ ويصلّي، ثم يذكر في القبلة حتى يصلّي للمغرب، ثم يصلّي ما بين المغرب إلى العتمة، فكانت تقول: خاب قوم تعرّضوا لهذا الرجل»[٢].

وقد ضيّق السندي على الإمام أشدّ التضييق بأمر مباشر من هارون الرشيد، وأوعز إليه أن يقيّده بثلاثين رطلاً من الحديد، ويُقفل الباب في وجهه، ولا يدعه يخرج إلاّ للوضوء، فامتثل السندي ذلك، ونفّذ ما أراد الرشيد[٣].

وكان القبض على الإمام قد تمّ من قبل الرشيد لأول مرة لعشر ليال بقين من شهر شوال عام ١٧٩هـ، وما انفك كما رأيت، ينقل بين السجون، حتى توفي مسموماً في سجن السندي بن شاهك لخمس بقين من شهر رجب عام

---

(١) ظ: باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر ٢ / ٤٨٧.

(٢) ظ: الخطيب البغدادي / تأريخ بغداد ١٣/ ٣١ + ابن الأثير / الكامل ٥/ ١٠٨ + أبو الفداء / التأريخ ٢/ ١٥ + الذهبي / سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٧٣.

(٣) ظ: القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر ٢ / ٤٨٧.

١٨٣هـ على المشهور[1].

وعلى هذا فقد قضى الإمام في غياهب السجون خمس سنوات إلا شهرين ونصفَ الشهر بالضبط.

وكانت هذه المدة حقبة انقطاع للإمام عن شيعته إلاّ لماماً، وكانت حياته في السجن حياة ابتهال وتهجّد وصلوات ودعاء، ولم تكن تقتصر على ذلك من النشاط الروحي، فهناك أنشطة ذات بال ستراها في المبحث الآتي.

(١) ظ: الطبري / تأريخ الأمم والملوك ١ / ٧٠ + ابن الأثير / الكامل ٦ / ٥٤ + الخطيب البغدادي / تأريخ بغداد ١٣ / ٣٢ + ابن خلكان / وفيات الأعيان ٢ / ٧٣ + الكليني ١ / ٤٧٦ + المجلسي / البحار ٤٨ / ٢٠٦.

حياة الإمام في طوامير السجون

أرأيتَ طهر السماءِ، ونقاء الأفق، وصفاء البحر؟ ذلك هو الإمـام موسى بن جعفر في ضميره الزكي النابض، وإذا به يمنى بعصف الرياح، وتلبّد الأجواء، ومرارة الإرهاب.

أرأيت عزّة الخليل، ومهابة الكليم، وقداسة المسيح؟ ذلك هو الإمام موسى بن جعفر، وهو يعايش سلاطين الجور، وجلاوزة الطغيان، وأجهزة القمع.

أرأيت محمداً في قيادته، وعلياً في شجاعته، والزهراء في عفّتها، والحسن في صبره، والحسين بنضاله، وزين العابدين في دعائه، ومحمداً الباقر في أصالته، وجعفر الصادق في علمه؟ ذلك هو الإمام موسى بن جعفر، وارثهم جميعاً؛ مغيباً بين جدران السجون، ومكبّلاً بأثقال الحديد، يتجرّع الغصص والاغتراب.

هكذا أراد الرشيد، وهو القائل عن الإمام:

«أما إنّ هذا من رهبان بني هاشم».

فقيل له: فما لك قد ضيّقت عليه في الحبس؟.

قال: هيهات، لابدّ من ذلك[1].

أجل، لقد ضيّق الرشيد على الإمام، وفي سجن السندي بالذات، فما بدا من الإمام اعتراض، ولا حاول إطلاق سراحه بوسيلة، بل ترفّع عن التنازل لهارون، وأبى وساطة أيّ إنسان في شأنه، وامتنع عن تلبية الراغبين بذلك، وقال لهم:

«حدّثني أبي عن آبائه، أنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى داود: يا داود ما اعتصم عبد من عبادي بأحدٍ من خلقي دوني، وعرفت ذلك منه، إلاّ قطعت عنه أسباب السماء، وأسختُ الأرض من تحته»[2].

وكان منهجه في السجن المواظبة المثلى على العبادة الخالصة، والإنابة والخشوع والتسليم، قال الشيخ المفيد، وهو يتحدّث عن حال الإمام في السجن:

«وكان عليه السلام مشغولاً بالعبادة، يحيي الليل كله صلاة، وقراءة قرآن، ودعاءً، واجتهاداً، ويصوم النهار أكثر الأيام، ولا يصرف وجهه عن المحراب»[3].

وفي قِبال هذا التوجّه العبادي، كان الإمام محاطاً بزمر أهل المعاصي ومرتكبي الكبائر، ولا حول ولا طول لديه على التغيير. فقد حدّث كاتب عيسى بن جعفر، والإمام سجين لديه، قال: «لقد سمع هذا الرجل الصالح ـ يعني الإمام ـ في أيامه هذه؛ في هذه الدار التي هو فيها من ضروب الفواحش والمناكير ما أعلم ولا أشكّ أنه لم يخطر بباله»[4].

وكانت الحياة العلمية وهو سجين تنام وتستيقظ، فقد يسمح السندي

---

(١) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ٩٥.

(٢) اليعقوبي / التأريخ ٣ / ١٢٥.

(٣) المفيد / الإرشاد / ٣٣٨.

(٤) المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ٢٢١ وانظر مصدره.

بلقاء الإمام من قبل العلماء، وقد يسمح بتبليغه الرسائل من أوليائه، وقد يوصل الأجوبة من قبل الإمام إلى السائلين.

ويعتبر الأستاذ محمد حسن آل ياسين: أنّ هذه الأساليب التي سلكها السندي من جملة طرائقه في التغطية والتمهيد لقتل الإمام[١].

وقد يكون ذلك من بواعث التعتيم على معاناة الإمام لجملة الضغوط والمضايقات، فيشاع أنه يتمتّع بحريّة واستقلالية، بحيث تصله رسائل شيعته، وحيث يجيب عليها بمحض إرادته واختياره.

فقد روي عن علي بن سويد الطائي، قال:

كتب إليَّ أبو الحسن الأول عليه السلام في كتاب:

«إنّ أول ما أنعى إليك نفسي في لياليّ هذه، غير جازع، ولا نادم، ولا شاك فيما هو كائن، مما قضى الله وحتم، فاستمسك بعروة آل محمد، والعروة الوثقى الوصي بعد الوصي، والمسالمة والرضا بما قالوا»[٢].

وكما في رواية الحسين بن المختار، قال:

«خرجت إلينا ألواح من أبي الحسن موسى، وهو في الحبس...»[٣].

وقد تتأخّر إجابة السؤال من قبل الإمام لأسباب أمنية فرضت عليه، أو لأسباب تتعلّق بالإمام، فعن علي بن سويد، قال: كتبت إلى أبي الحسن موسى عليه السلام وهو في الحبس كتاباً، أسأله عن حاله، وعن مسائل كثيرة، فاحتبس الجواب عليَّ أشهراً!! ثم أجابني بجواب مفصّل، ورد فيه بعد حمد الله والثناء عليه، قوله: «أمّا بعد؛ فإنك امرؤ أنزلك الله من آل محمد بمنزلة خاصة، وحفظ ما استرعاك من دينه، وما ألهمكَ من رشده، وبصرك من أمر دينك...»

---

(١) محمد حسن آل ياسين / الإمام موسى بن جعفر / ٨٨.
(٢) الحميري / قرب الأسناد / ١٩٢ + البحار ٤٨ / ٢٢٩.
(٣) الكليني / الكافي ١ / ٣١٢.

ثم نعى الإمام نفسه لابن سويد، وأجابه عن عدة مسائل فقهية في الغصب والشهادات، ومسألة كلامية في مدى علم أهل البيت[١].

وكانت مدرسة الإمام قد انتشر روّادها في الآفاق وهو في السجن، فكانت إجابات الإمام يذاع خبرها بانتظام رغم الرصد والعيون، وسبب ذلك أنّ التشيّع قد استطار في الأقاليم الإسلامية وشاع، وكان العلماء والوكلاء يقومون بالمهمّات في التبليغ والدعوة، ويتعاونون على تسلّم الحقوق المالية ويصرفونها في مواقعها الشرعية، كما أشار لمواليه بالإمام من بعده، ونصّ على ولده عليّ الرضا قائلاً: «إنّ ابني «عليّ» أكبر ولدي، وآثرهم عندي، وأحبّهم إليَّ، وهو ينظر معي في الجفر، ولم ينظر فيه إلا نبيّ أو وصي نبيّ»[٢].

وكما عن الحسين بن المختار، قال: خرجت إلينا ألواح من أبي الحسن موسى عليه السلام وهو في الحبس: عهدي إلى أكبر ولدي[٣].

وبذلك لم يترك الإمام الأمة سدى بل نصّ على حجّة الله في خلقه. وأدّى الأمانة التي استحفظ عليها، كما أوصى وأوقف وحرّر كما سنرى.

---

(١) الكليني / الكافي ٨ / ١٢٤ - ١٢٦ + البحار ٤٨ / ٢٤٢ - ٢٤٤.

(٢) المفيد / الإرشاد / ٣٤٣.

(٣) المصدر نفسه / ٣٤٣.

الإمام يوصي بأمواله ويوقف أراضيه

وشعر الإمام عليه السلام بدنّو أجله ونهاية أيامه واخترام عمره الشريف فـ«لكل أجلٍ كتاب» ولكل بداية نهاية، ولأنّه يتعايش مع الخطر المحدق به ليل نهار، يصبّح الوحدة القاتلة في سجنه، ويمسّي الغربة الموحشة في ليله.

وكان هذا الشعور من الإمام يمثّل انقداحاً روحياً في لمح الغيب القريب، فأعدّ لذلك عدّته في وصية كثبية، أشهد عليها الأعيان من أهل بيته وأصحابه، وكانت هذه الوصية نموذجاً فريداً لما ينبغي على المسلم لدى إحساسه بالموت.

أشهد الإمام الشهود، وأشهد نفسه:

«أنه يشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور، وأنّ البعث بعد الموت حقّ، وأنّ الحساب والقصاص حق، وأنّ الوقوف بين يدي الله عزّ وجلّ حقّ، وأنّ ما جاء به محمد صلى الله عليه وآله حقّ، وأنّ ما نزل به الروح الأمين حقّ، على ذلك أحيا، وعليه أموت، وعليه أبعث إن شاء الله، أشهدهم أنّ هذه وصيتي بخطي... وأوصيت بها إلى «عليّ» ابني، وبنيّ بعده

إن شاء وأنس منهم رشداً، وأحبّ إقرارهم فذلك له، وإن كرههم وأحبّ أن يخرجهم فذلك له، ولا أمر لهم معه.

وأوصيت إليه بصدقاتي وأموالي وصبياني الذين خلفت وولدي... وإلى عليّ أمر نسائي دونهم، وثلث صدقة أبي وأهل بيتي يضعه حيث يرى، ويجعل منه ما يجعل ذو المال في ماله... وإن أحبّ أن يبيع، أو يهب، أو ينحل، أو يتصدّق على غير ما وصيته فذاك إليه، وهو أنا في وصيتي في مالي، وفي أهلي وولدي.

وإن رأى أن يقرّ إخوته الذين سميّتهم في صدر كتابي هذا أقرّهم، وإن كره أن يخرجهم غير مردودٍ عليه، وإن أراد رجل أن يزوّج أخته فليس له أن يزوّجها إلا بإذنه وأمره.

وأيّ سلطان كشفه عن شيء، أو حال بينه وبين شيء مما ذكرت في كتابي، فقد برئ من الله تعالى ومن رسوله...

ولي عنده مال، وهو مصدّق فيما ذكر من مبلغه إن أقلّ أو أكثر، فهو الصادق... وليس لأحد أن يكشف وصيتي، ولا ينشرها وهي على ما ذكرت وسمّيت... ومن أساء فعليه، ومن أحسن فلنفسه، وما ربّك بظلاّم للعبيد»[1].

وأنت ترى ما في هذه الوصية ـ وقد اختزلتها لك اختزالاً ـ من التأكيد على عقيدة التوحيد، والنبوة، والمعاد يوم القيامة، وما يستلزم ذلك من بعث ونشور وحساب ووقوف بين يدي الله تعالى، وأنّ ما نزل به الروح الأمين من القرآن والشريعة حقّ، وأنّه يحيا ويموت ويبعث على هذا.

والملفت في الوصية حقّاً تأكيده الشامل على ولده الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، في تمييزه على ولده، ورعايته لشؤونه، وعنايته بإدارته، وإقراره على إدارة أمواله وصدقاته والقصّر من أبنائه، بل على جميع ولده،

---

(١) المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ٢٧٦ - ٢٨٠.

كما جعل له أمر نسائه وأخواته دونهم، وبصرف ثلث صدقة أبيه أنّى يرى، وحيث يشاء، كما خوّله تخويلاً مطلقاً بأمواله، وما يصنع فيها من هبة أو نحلة أو بيع أو صدقة ونحو ذلك فيما لم تشتمل عليه الوصية. ثم اعتبره نفسه في الوصية والمال والأهل والولد، وله إقرار أبناء الإمام الذين ذكرهم في وصيته، وله أيضاً إخراجهم. وجعل أمر بناته بيده، ولا يزوّج أحدٌ إحداهنّ إلاّ بإذن الرضا وأمره، ولا سلطان لأحد عليه في جميع وصيته، وأيّ سلطان حال بينه وبين تنفيذها فقد برئ من الله ورسوله، وأبان الإمام في ختام الوصية أنّ له مالاً عند ولده الرضا، وهو مصدّق فيما ذكره عنه قلّ أو كثر، وشهد بحقّه بأنّه الصادق.

ويبدو بكل وضوح من لوازم هذه الوصية ونصوصها وفقراتها، أنّها نصّ لا يقبل الشكّ على إمامة ولده الرضا، وهو كذلك، ويأتي هذا بعد أن نصّ عليه أمام جماعات كثيرة وأشهدهم على ذلك.

ويبدو أنّ للامام موسى بن جعفر عليه السلام صدقات جارية، وأراضي زراعية عامرة، نصّ على جعلها وقفاً ذرياً في وصيته قال فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما تصدّق به موسى بن جعفر، تصدّق بأرضه مكان كذا وكذا.... كلّها، نخلها، ومائها، وأرجائها، وحقوقها، وشربها من الماء، وكل حقٍّ هو لها، في مرفع، أو مظهر، أو عنصر، أو مرفق، أو ساحة، أو مسيل، أو عامر، أو غامر، تصدّق بجميع حقّه من ذلك على ولده من صلبه الرجال والنساء، يقسّم ما أخرج الله عزّ وجلّ من غلتها ـ بعد الذي يكفيها في عمارتها ومرافقها، وبعد ثلاثين عذقاً يقسم في مساكين أهل القرية ـ بين ولد موسى بن جعفر، للذكر مثل حظّ الأنثيين، فإن تزوّجت امرأة من ولد موسى بن جعفر، فلا حقّ لها في هذه الصدقة حتى ترجع إليها بغير زوج، فإن رجعت كان لها مثل حظّ التي لم تتزوّج

من بنات موسى، ومن توفّي من ولد موسى وله ولد، فولده على سهم أبيهم للذكر مثل حظّ الأنثيين على مثل ما شرط موسى بين ولده من صلبه، ومن توفّي من ولد موسى ولم يترك ولداً ردّ حقّه على أهل الصدقة.

وليس لولد بناتي في صدقتي هذه حقّ، إلاّ أن يكون آباؤهم من ولدي. وليس لأحد في صدقتي حقّ من ولدي وولد ولدي وأعقابهم ما بقي منهم أحد، فإن انقرضوا ولم يبق منهم أحد، فصدقتي على ولد أبي من أمي - ما بقي منهم أحد - ما شرطت بين ولدي وعقبي، فإن انقرض ولد أبي، وأعقابهم ما بقي منهم أحد، فإن لم يبق منهم أحد، فصدقتي على الأولى فالأولى حتى يرث الله الذي ورثها وهو خير الوارثين.

تصدّق موسى بن جعفر بصدقته هذه، وهو صحيح صدقةً حبيساً بتاً بتلاً، لا مثنوية فيها ولا ردّ أبداً، ابتغاء وجه الله تعالى والدار الآخرة، ولا يحلّ لمؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيعها، أو يبتاعها، أو يهبها، أو يغيّر شيئاً مما وضعتها عليه، حتى يرث الله الأرض ومن عليها»[1].

ويخلص لنا من هذه الوقفية أنّ الإمام عليه السلام بضبطها وإحكامها، وتفصيلها وجزئياتها، وإدخال من أراد إدخاله، وإخراج من أراد إخراجه، إنّما يريد أن يوجّهنا في أعمالنا ووصايانا وأموالنا وصدقاتنا الوجه الصحيح المحكم، بحيث يكون ما يريده صاحب المال هو الأصل فيما يعمل به، وأن تكون الوصية جامعة مانعة فلا يدخل فيها ما يراد إخراجه، ولا يخرج منها ما يراد إدخاله، وأنّ ذلك جميعاً ابتغاء وجه الله تعالى واليوم الآخر.

ومن هنا نعرف أنّ موارد سخاء الإمام وعطاياه وهباته وصراره ومنحه، إنّما كانت من خالص ماله وطيّب حلاله.

---

(١) المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ٢٨١ - ٢٨٢.



الفصل الثامن

الإِمام في مدارج الشهادة

١ ـ فزع الرشيد من منزلة الإمام.

٢ ـ اغتيال الإمام بالسمّ.

٣ ـ الإشهاد على وفاة الإمام.

٤ ـ تجهيز الإمام وتشييعه إلى مقرّه الأخير.



فزع الرشيد من منزلة الإمام

انتشر ذكر الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في الأقاليم الإسلامية انتشار النار في الحطب الجزل، فقد تناقل الناس أخباره في العلم والحلم والورع والتقوى والإنابة والإخبات لله تعالى.

وكان الرشيد أعرف الناس بهذه الحقائق، وأجرأ الناس على تغافلها، وكان الترف السياسي قد طفح الكأس بأنبائه بين صفوف الشعب، وبلغ الاستياء حدّه من الأثر والطغيان اللذين طبع عليهما النظام العباسي، وانكمش الناس من الجور والاستعباد، وسئم المجتمع العراقي بخاصة من حياة اللهو والعبث والمجون.

هذا وأمثاله كاد أن يطوي بساط الشرعية من تحت هارون وولاته وعمّاله في الميدان السياسي، أمّا في الميدان الديني فلا شرعية للحكم من قبل أبناء الطلقاء تجاه أئمة أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

وكان لابدّ للرشيد من إشغال الناس عن النظر في شأن الحكم، فأعلن الأحكام العرفية ليقمع كل تفكير ـ فضلاً عن التحرّك ضد النظام في مآسي الحكم وشؤون الدولة حتى قال الناس: انجُ سعد فقد هلك سعيد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى عمد الرشيد إلى سياسة التبعيد والتشريد مضافاً

إلى سياسة كبت الحرية، فقد قذف بالشباب المسلم في لهوات الحروب، وأشغل الفكر العام بالبعوث وإرسال الكتل البشرية نحو الثغور، وهو لا يهمّه بذلك أمر الإسلام في شيء، وإنما همّه الوحيد هو تثبيت دعائم الملك.

وكانت شعبية الإمام موسى بن جعفر عليه السلام تخترق كل الحواجز التي وضعها الرشيد في سبيله، لا بقوّة عسكرية، وإنما بذلك التغلغل العقائدي الذي تنطوي عليه قلوب المسلمين ولاءً وإيماناً وحبّاً بقيادة أهل البيت عليهم السلام، وهنا مصدر الخطر على السلطة حيث أنّ هذا التغلغل في الفكر والضمير إنما يكتسب نفوذه العام من خلال قناعات ثابتة، تجعل القوّة إلى جنب الكتاب في استيحاء الأسس الفكرية للإسلام، وهذا ما يخيف الحاكمين ويجعلهم في فزع وهلع شديدين، لأنّ هذا المنظور الخارق إنما ينطلق من صميم المشاعر الإنسانية دون تأثير خارجي، أو دعم سلطوي، أو إجراء سياسي، فهو انطلاق داخلي يجري في الإنسان مجرى الدم في الأوردة والشرايين.

وكان الرشيد يعرف هذا جيداً بالنسبة للإمام موسى بن جعفر عليه السلام، فهو وريث هذه الأطروحة الضخمة التي تجعل مصير السلطان في مهبّ الريح، وتجعل أتباعه وأولياءه في قلق مستمر، إذاً الدولة في نظره في معرض الخطر من هذه الأحاسيس التي يمتلك أمرها الإمام.

ومع علم الرشيد أن ليس من وكد الإمام ولا من شأوه نشدان الحكم ولا تطلّب السلطان، إلا أنّ هواجس الخوف والذعر من مكانة الإمام تجعله يفكّر جدّياً في التخلّص منه بشتّى الوسائل، دون أن يثير حفيظة المتسائلين أو الاهتمام الجماهيري.

وكان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام من أدرى الناس بهذه الإرهاصات لدى الرشيد، فقد يجامله مرةً، وقد يتّقيه أخرى، وقد يتقرّب منه ثالثة، وقد يذكّره الرحم فيمسّه سوى ذلك، وقد يروى له في ذلك «أنّ الرحم إذا مسّت الرحم تحرّكت واضطربت»[1] كما قد يجابهه في مرارة وإصرار إذا اقتضت المصلحة العليا ذلك[2].

وقد رأيت فيما سبق أنّ الرشيد كان مصمّماً على سجن الإمام فسجنه حتى انتهى به المطاف إلى سجن السندي بن شاهك، فكانت كرامات الإمام يتّصل بعضها ببعض، وفضائله تسير مسير الشمس، فاستنجد الرشيد بيحيى بن خالد البرمكي، وقال له:

«يا أبا علي؛ أما ترى ما نحن فيه من هذه العجائب؟

ألا تدبّر في أمر هذا الرجل تدبيراً يريحنا من غمّه؟

فقال يحيى بن خالد: الذي أراه لك أن تمنّ عليه، وتصل رحمه، فقد والله أفسد علينا قلوب شيعتنا.

فقبل ذلك منه، وأمره بفكّ القيود عنه وإطلاقه بشرط الاعتراف بالإساءة. فامتنع الإمام عليه السلام، وقال ليحيى:

يا أبا علي؛ أنا ميّت، وإنما بقي من أجلي أسبوع...

يا أبا علي؛ أبلغه عنّي، يقول لك موسى بن جعفر:

رسولي يأتيك يوم الجمعة، فيخبرك بما ترى، وستعلم غداً إذا جاثيتك بين يدي الله مَنْ الظالم والمعتدي على صاحبه؟ والسلام.

فأخبر يحيى الرشيد بذلك، فقال الرشيد:

---

(١) ظ: المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ١٢٦.

(٢) ظ: على سبيل المثال: المجلسي / بحار الأنور ٤٨ / ١٢٨، ١٢٩، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨... الخ.

«إن لم يدّعِ النبوّة بعد أيام، فما أحسن حالنا».

فلمّا كان يوم الجمعة توفي الإمام[1].

ومهما يكن من أمر، فإنّ الإمام قضى في سجن السندي أضيق أيام حياته، ولم يمكث بعدها في السجن، إذ قضى عليه الرشيد بالسم. وهذا ما يحتاج إلى شيء من العرض الدقيق.

(١) ظ: ابن شهرآشوب / المناقب ٣ / ٤٠٨ - ٤٠٩ + المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ٢٣٠ - ٢٣١.

اغتيال الإمام بالسم

ذهب أغلب المؤرخين إلى أنّ الإمام مات مسموماً في سجن السندي بن شاهك، وانفرد أبو الفرج الأصبهاني بأنّ الإمام لفّ في بساط وهو حيٌّ، فجلس عليه السجّانون حتى توفي[1].

ووافقه ابن عنبة بالقول: بأنه لفّ في بساط وغمز حتى مات[2].

إلا أنّ الروايات الأكثر شيوعاً: أنّ الإمام دسّ له السمّ في سجن السندي بأمر الرشيد فمات مسموماً، وهذه الروايات يمكن تصنيفها كالآتي:

١. إنّ السندي بن شاهك حضر، بعدما كان بين يدي الإمام السمّ في عشر رطبات، وأنّه عليه السلام أكلها.

فقال له السندي: تزداد؟ فقال عليه السلام له: حسبك فقد بلغت ما يحتاج إليه في ما أمرت به.

ثم إنّ السندي أحضر القضاة والعدول قبل وفاته بأيام، وأخرجه إليهم، وقال: إنّ الناس يقولون: إنّ أبا الحسن موسى في ضنك وضرّ، وها هو ذا لا علّة به ولا مرض، ولا ضرّ.

---

(١) الأصبهاني / مقاتل الطالبيين / ٥٠٤.

(٢) ابن عنبة / عمدة الطالب / ١٨٥.

فالتفت الإمام عليه السلام، فقال لهم: اشهدوا على أنّي مقتول بالسمّ منذ ثلاثة أيام، اشهدوا أنّي صحيح الظاهر لكني مسموم، وسأحمرّ في آخر هذا اليوم حمرة شديدة منكرة، وأصفرّ غداً صفرة شديدة منكرة، وأبيضّ بعد غدٍ، وأمضي إلى رحمة الله ورضوانه، فمضى عليه السلام كما قال في آخر اليوم الثالث[1].

٢. إنّ يحيى بن خالد البرمكي خرج على البريد حتى وافى بغداد، فماج الناس وأرجفوا بكل شيء، وأظهر أنه ورد لتعديل السواد، والنظر في أمور العمّال، وتشاغل ببعض ذلك أياماً، ثم دعا السندي بن شاهك، فأمره بأمره فامتثل، وكان الذي تولّى به السندي قتله عليه السلام، سمّاً جعله في طعام قدمّه إليه.

ويقال: إنّه جعله في رطب أكل منه، فأحسّ بالسمّ، ولبث بعده ثلاثاً موعوكاً منه، ثم مات في اليوم الثالث[2].

٣. إنّ يحيى بن خالد البرمكي هو الذي سمَّ الإمام بأمر الرشيد مباشرة: فعن عبد الله بن طاووس، قال:

قلت للرضا عليه السلام: إنّ يحيى بن خالد سمّ أباك موسى بن جعفر صلوات الله عليهما؟ قال: نعم، سمّه في ثلاثين رطبة[3]...

٤. وفي عيون الأخبار جاء النصّ الآتي:

«ثم حبس ـ يعني الإمام موسى بن جعفر ـ وسلّم إلى السندي بن شاهك، فحبس، وضيّق عليه، ثم بعث إليه الرشيد بسمّ في رطب، وأمره أن يقدّمه إليه، ويحتم عليه في تناوله منه، ففعل، فمات صلوات الله

---

(١) ظ: المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ٢٤٧ - ٢٤٨ عن عيون المعجزات / ٩٥.
(٢) المفيد / الإرشاد / ٣٣٩ + الأربلي / كشف الغمة ٣ / ٢٧.
(٣) النجاشي / الرجال / ٣٧١ + المجلس / البحار ٤٨ / ٢٤٢.

عليه»[1].

وكانت هنالك محاولة سابقة لسمّ الإمام في الرطب في رواية عمر بن واقد، قال:

إنّ هارون الرشيد لمّا ضاق صدره مما كان يظهر له من فضل موسى بن جعفر عليه السلام، وما كان يبلغه من قول الشيعة بإمامته، واختلافهم في السّر إليه بالليل والنهار خشية على نفسه وملكه، ففكّر في قتله بالسمّ، فدعا برطب فأكل منه، ثم أخذ صينية فوضع فيها عشرين رطبة، وأخذ سلكاً فعركه في السمّ، أدخله في سم الخياط، وأخذ رطبة من ذلك الرطب، فأقبل يردد إليها ذلك السمّ بذلك الخيط، حتى علم أنّه قد حصل السمّ فيها، فاستكثر منه، ثم ردّها في ذلك الرطب، وقال لخادم:

احمل هذه الصينية إلى موسى بن جعفر، وقل له: إنّ أمير المؤمنين أكل من هذا الرطب، وتنغّص لك به، وهو يقسم عليك بحقه لمّا أكلتها عن آخر رطبة... فتحاشى الإمام هذه الرطبة في حديث طويل، فباءت المحاولة بالفشل[2].

ولئن باءت هذه المحاولة بالفشل فما باءت المحاولات الأخرى.

ومهما يكن من أمر فإنّ الوثائق التأريخية المعتمدة تشير أنّ الإمام عليه السلام مات مسموماً على يد السندي بأمر الرشيد[3].

ومما يؤكّد هذا الرأي ما رواه الشيخ المفيد:

---

(١) الصدروق / عيون أخبار الرضا ١ / ٨٥ + البحار ٤٨ / ٢٢٢.

(٢) ظ: المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ٢٢٣ وانظر مصدره.

(٣) ظ: المفيد / الإرشاد / ٣٣٩ + المسعودي / مروج الذهب ٣ / ٢٧٣ + ابن الطقطقى / الفخري / ١٧٢ + الطوسي / التهذيب ٦ / ٨١ + ابن شهرآشوب / المناقب ٣ / ٤٣٧ + ابن خلكان / وفيات الاعيان ٤ / ٣٩٥ + ابن حجر / الصواعق المحرقة / ١٢٢ + ابن الصباغ / الفصول المهمة / ٢٢٢ + القندوزي / ينابيع المودّة / ٣٦٣ + المجلسي / البحار ٤٨ / ٢٠٧.

إنّ الإمام لمّا حضرته الوفاة سأل السندي بن شاهك أن يحضر مولى له مدنياً ينزل عند دار العباس بن محمد في مشرعة القصب ليتولّى غسله وتكفينه ففعل ذلك.

قال السندي: فكنت أسأله في الإذن أن أكفّنه فأبى، وقال: «إنّا أهل بيت مهور نسائنا، وحج صرورتنا، وأكفان موتانا، من طاهر أموالنا، وعندي كفني، وأريد أن يتولّى غسلي وجهازي مولاي فلان، فتولّى ذلك منه»[1].

وهكذا تنطوي حياة الإمام في ظلّ الإرهاب السياسي.

---

(١) الشيخ المفيد / الإرشاد / ٣٣٩.

الإشهاد على وفاة الإمام

وحينما وقعت الجريمة النكراء باغتيال الإمام مسموماً، قام الرشيد والسندي كلاً على سبيله، وفي طريقته الخاصة، بحملة إعلانية لغرض التعتيم على الحدث، والتستّر على الجريمة، وذلك باستدعاء الشهود، وإيقافهم على جثمان الإمام ليشهدوا أنّه مات حتفَ أنفه.

أورد الصدوق عن محمد بن صدقة العنبري، قال:

«لمّا توفي أبو إبراهيم موسى بن جعفر عليه السلام، جمع هارون الرشيد شيوخ الطالبية، وبني العباس، وسائر أهل المملكة، والحكّام؛ وأحضر أبا إبراهيم موسى بن جعفر فقال:

هذا موسى بن جعفر قد مات حتفَ أنفه، وما كان بيني وبينه ما أستغفر الله منه في أمره، يعني في قتله، فدخل عليه سبعون رجلاً من شيعته، فنظروا إلى موسى بن جعفر وليس به أثر جراحة أو خنق»[1].

وقام السندي بدوره عندما أخذ السمّ يسري في بدن الإمام، وهو في سبيله إلى الشهادة، فقد روي أنّ السندي جمع ثمانين رجلاً من الوجوه ممن ينسب إلى الخير، فأدخلهم على الإمام موسى بن جعفر، وقال: يا

---

(١) ظ: الصدوق / كمال الدين وإتمام النعمة ١ / ١١٩ + عيون أخبار الرضا ١ / ١٥.

هؤلاء انظروا إلى هذا الرجل هل حدث به حدث؟ فإنّ الناس يزعمون أنّه قد فعل مكروه به، ويكثرون في ذلك، وهذا منزله وفرشه موسّعٌ عليه غير مضيّق، ولم يرد به أمير المؤمنين سوءًا، وإنما ينتظره أن يقدم فيناظره أمير المؤمنين، وها هو ذا صحيح موسّع عليه في جميع أمره فاسألوه.

قال الراوي: ونحن ليس لنا همٌّ إلا النظر إلى الإمام، وإلى فضله وسمته، فقال الإمام: أمّا ما ذكر من التوسعة وما أشبه ذلك فهو على ما ذكر، غير أنّي أخبركم أيها النفر:

«أنّي قد سُقيتُ السمّ في تسع تمرات، وإنّي أخضرّ غداً، وبعد غدٍ أموت».

قال الراوي: فنظرت إلى السندي بن شاهك يرتعد ويضطرب مثل السعفة[1].

وفي رواية عمر بن واقد، قال: أرسل إلي السندي في الليل يستحضرني... فحضرت، فقال: أتعرف موسى بن جعفر؟ فقلت: أي والله إنّي لأعرفه. وبيني وبينه صداقة منذ دهر.

فقال: مَنْ ههنا ببغداد يعرفه ممن يقبل قوله؟

فسميتُ أقواماً... فبعث وجاء بهم، وقال: هل تعرفون أقواماً يعرفون موسى بن جعفر؟ فسمّوا له قوماً فجاء بهم، فأصبحنا ونحن في الدار (نيّف وخمسون)[2] رجلاً ممن يعرف موسى بن جعفر عليه السلام وقد صحبه... فأدخلنا، فقال لي: يا أبا حفص؛ اكشف الثوب عن وجه موسى بن جعفر، فكشفته فرأيته ميتاً فبكيت واسترجعت.

ثم قال للقوم؛ انظروا إليه؛ فدنا واحد بعد واحد فنظروا إليه؛ ثم قال:

---

(١) ظ: الكافي ١ / ٢٥٨ + المناقب ٣ / ٤٤١ + البحار ٤٨ / ٢١٢.

(٢) كذا في الأصل.

تشهدون كلكم أنّ هذا موسى بن جعفر؟ فقلنا نعم نشهد... فقال: أترون به أثراً تنكرونه؟ فقلنا: ما نرى به شيئاً ولا نراه إلاّ ميتاً[١]. وفي ذلك أورد اليعقوبي: أنّ السندي أحضر القواد والهاشميين والقضاة، ومن حضر ببغداد من الطالبيين»[٢]. لغرض الشهادة أنّ الإمام مات حتفَ أنفه.

وفي رواية أنّ السندي أدخل على الإمام الفقهاء ووجوه بغداد، وفيهم الهيثم بن عدي وغيره، فنظروا إليه لا أثر به من جراح ولا خنق، وأشهدهم أنّه مات حتف أنفه، فشهدوا على ذلك[٣].

وحينما أخرج جثمان الإمام، وضع على الجسر ببغداد، ونودي عليه: هذا موسى بن جعفر قد مات، فانظروا إليه، فجعل الناس يتفرّسون في وجهه وهو ميّت؛ وقد كان قوم زعموا في أيام موسى عليه السلام أنّه القائم المنتظر، وجعلوا حبسه هو الغيبة المذكورة للقائم، فأمر يحيى بن خالد أن ينادى عليه عند موته:

«هذا موسى بن جعفر الذي تزعم الرافضة أنّه هو القائم الذي لا يموت، فانظروا إليه، فنظر الناس إليه ميتاً»[٤].

واستمرّ هذا التضليل الإعلامي بالتمويه، أنّ الإمام مات حتف أنفه حتى نقله إلى مثواه الأخير، ووضعه على شفير القبر، فقد أمر السندي بن شاهك خليفته وكان مع الجنازة، وقد وضعت على شفير القبر، أن اكشف وجهه للناس، قبل أن تدفنه حتى يروه صحيحاً لم يحدث به حدث قال: فكشفت عن وجه مولاي حتى رأيته وعرفته، ثم غطي وجهه....»[٥].

---

(١) ظ: الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ٩٧ + المجلسي / البحار ٤٨ / ٢٢٦.
(٢) اليعقوبي / التأريخ ٣ / ١٤٥.
(٣) ظ: ابن الطقطقى / الفخري / ١٧٢ + الشبلنجي / نور الإبصار / ١٣٩.
(٤) الشيخ المفيد / الإرشاد / ٣٣٩.
(٥) الطوسي / الغيبة / ٢٠ + المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ٢٢٩.

وهكذا تمرّ هذه المأساة الإرهابية في ظلّ إجراءات إرهابية، فالشهود إن لم يشهدوا فمصيرهم القتل أو السجن أو التشريد، والنظام ممعنٌ بالتغطية خوف الفتنة فيما يزعمون، والإمام تنتهك حرمته دون أن يهتزّ لذلك الضمير العباسي، والناس لا حول لهم ولا طول، فالإرهاب أفظع ما يدركه التصوّر قسوةً وشدّةً.

والأعظم مصاباً، والأبلغ وقعاً، أنّ الإمام بقي مسجى في جثمانه الشريف ثلاثة أيام لم يدفن[1].

وكان هذا الإجراء للتحقيق في وفاته، واستدعاء الشهود، ووضعه على الجسر ببغداد، والمنادي ينادي عليه بذلك النداء الفظيع[2]. بغيةَ إطفاء نور الله تعالى:

﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[3].صدق الله العلي العظيم

---

(١) ابن عنبة / عمدة الطالب / ١٨٥.

(٢) ظ: المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ٢٢٧.

(٣) سورة التوبة / ٣٢.

تجهيز الإمام وتشييعه إلى مقره الأخير

وانتخى سليمان بن أبي جعفر المنصور، وهو عمّ الرشيد، فتولّى بنفسه الإشراف على تجهيز الإمام وتشييعه، بعد أن استمع إلى شرطة الرشيد تنادي على جثمان الإمام بما لا نستطيع ذكره.

سمع سليمان ـ إذاً ـ الضوضاء في النداء، ورأى تجمّعاً غير معهود على الجسر، فقال لولده وغلمانه: ما هذا؟ قالوا:

السندي بن شاهك ينادي على موسى بن جعفر على نعش.

فقال لولده وغلمانه: يوشك أن يفعل هذا به في الجانب الغربي، فإذا عُبِرَ به، فانزلوا مع غلمانكم فخذوه من أيديهم، فإن مانعوكم فاضربوهم، وخرّقوا ما عليهم من السواد...

فامتثل الغلمان ذلك... ووضعوا الجثمان في مفترق أربعة طرق، ونادوا: ألا من أراد أن يحضر الطيّب ابن الطيّب موسى بن جعفر فليخرج، وحضر الخلق، فكان التشييع الجماهيري.

وكان هذا الموقف المشرّف من سليمان؛ إمّا بدافع الغيرة والحمّية، وإمّا بدافع الرحم الماسّة، وإما بدافع سياسي، أو بشعور إنساني، أو بذلك بعضه أو كله.

ومهما يكن من أمر، فقد كان ذلك بتقدير من الله ﷻ لرفع الظلامة عن الإمام في حرمة جثمانه الطاهر، فأتاح لذلك سليمان، فقام بما قام.

وجُهّز الإمام على خير ما يكون غسلاً وتحنيطاً وكفنّه سليمان بكفن فيه حبرة استعملت له بألفين وخمسمائة دينار، عليها القرآن كله، ومشى في جنازته مستلباً مشقوق الجيب إلى مقابر قريش[١].

وتناهى الإعلام بوفاة الإمام إلى الناس فتنادوا بذلك، وسارت المواكب الكبرى تشقّ طريقها في بغداد إلى مثواه الأخير في مقابر قريش حيث ضريحه المقدَّس اليوم في الكاظمية زادها الله شرفاً ببركته وبركة حفيده الإمام محمد الجواد بن الرضا عليهما السلام.

وكانت وفاة الإمام عليه السلام في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رجب عام ١٨٣هـ كما هو المشهور عند الإمامية، وعليه العمل، وعند أغلب المؤرخين[٢].

وقيل كان ذلك عام ١٨٦هـ، وقيل كان ذلك عام ١٨١ هـ[٣].

ودفن الإمام في «مقابر قريش» غربي بغداد، بما يسمّى اليوم بـ«الكاظمية» المقدّسة، وضريحه وضريح حفيده محمد الجواد من المشاهد المنوّرة في تلك الروضة البهيّة التي ضمّت الجثمانين الطاهرين، ويعتمر فيه يومياً عشرات الآلاف من الزائرين والوفاد من مختلف الأقاليم، وعليه قبتان ذهبيتان، إلى جانبهما أربع منائر ذهبية تطلاّن على بهوين عظيمين، يشرفان عليهما وعلى الصحن الشريف، وداخل الحرم مزيّن بالكاشاني المعرّق،

---

(١) الشيخ الصدوق / كما الدين ١ / ١١٨ + عيون أخبار الرضا ١ / ٩٩.

(٢) ظ: اليعقوبي / التأريخ ٣ / ١٤٥ + الطبري / التأريخ ٨ / ٢٧١ + الكليني / الكافي ١ / ٤٨٦ + المفيد / الإرشاد / ٣٣٩ + الطوسي / التهذيب ٦ / ٨١ + الخطيب البغدادي / التأريخ ١٣ / ٣٥ + ابن خلكان / الوفيات ٤ / ٣٩٥.

(٣) ظ: الكليني / الكافي ١ / ٤٧٦ + المفيد / الإرشاد / ٣٠٧ + المناقب ٣ / ٤٣٧.

والفسيفساء والأحجار الكريمة، واستنارته تتمثّل بمئات الشموع والمصابيح الكهربائية، وأرضه ذات بلاط مرمري جذّاب يرتفع تدريجياً إلى الحيطان من كل جوانب الحرم الشريف بما يقارب ثلاثة أذرع، حيث تتبع ذلك الزخارف والمرايا وقطع الزجاج الملوّن حتى يتّصل بسقف الحرم الشريف، فإذا أنير بالكهرباء وقناديل الإنارة، التمست الشعاع يصطدم بالشعاع، والنور يقترن بالنور، بما يسرّ الناظر، وتدخل روعته في الضمائر، وهذا الحرم الشامخ يحتضن في وسطه مشبّكاً فضّياً دقيق الصنع، ينتهي في أعلاه إلى زخارف فضّية وذهبية بأشكال متنوّعة، وفي داخله صندوقان ثمينان صنعا من الخشب الثمين الموصل بالعاج على شكل مثلّثات ومربّعات ومخمّسات، هذان الصندوقان وضعا على قبري الإمامين عليهما السلام. وقد وصف هذا المشهد قبل ثمانية قرون ابن خلّكان فقال: «وعليه مشهد عظيم فيه من قناديل الذهب والفضّة، وأنواع الآلات والفرش ما لا يحدّ»[1].

وقد فرش الحرم الشريف بأنواع السجّاد الإيراني المعروف بنفاسته ودقته، وتحوط بالحرم أربعة أروقة من الجهات الأربع، تتصل بالشمال بالمسجد الصفوي، وعلى يمين الداخل لها من الشرق ضريح صغير عليه مشبّك فضّي للشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان العكبري اشتمل على قبره وقبر أستاذه أبي جعفر بن قولويه. وعلى يسار الداخل مما يلي الرأس الشريف ضريح في الرواق الغربي لنصير الدين الطوسي، وهنالك في الأروقة حجر صغيرة في بناء هندسي جميل ضمّت أضرحة العلماء والأولياء والأسر الكاظمية العريقة.

والمشهد يتوسّط الصحن الكاظمي في سعته وروعته وفضائه الرحب، وتحيط به الغرف والحجر من جوانبه الأربعة، وهي تتقلّص من الجانب

(١) ابن خلّكان / وفيات الأعيان ٤ / ٣٩٥.

الشمالي بحسب هندسة البناء، وهذه الغرف كانت قد أعدّت للزائرين، ومن ثم كانت لطلاب العلم من الوافدين، وهي اليوم مقرّ لقبور العلماء ومشاهير الناس.

وللصحن الشريف أبواب متعدّدة، أهمها: ثلاثة أبواب من جهة القبلة، وبابان من الجهة الشرقية، وبابان من الغرب. أما الجانب الشمالي فقد التصق بعمارة الحرم الطاهر.

وحسبك في مشهد الكاظمين عليهما السلام، **أنّه** ملاذ الأمة، وكعبة الوفّاد، ومجتمع المبتهلين وأهل الدعاء، حتى قال شيخ الحنابلة: أبو علي الحسن الخلاّل.

«ماهمّني أمر فقصدت موسى بن جعفر فتوسّلت به إلاّ سهّل الله تعالى لي ما أحبّ»[1]

وقال الإمام الشافعي: «قبر موسى الكاظم الترياق المجرّب»[2].

وقال عبد الباقي العمري:

لـذْ واسـتجرْ متوسّلاً
إن ضاق أمرُكَ أو تعسّرْ
بـأبي الرضا... جدّ الجوا
دِ محمد... موسى بن جعفرْ[3]

وقد وصف كاتب هذه السطور ضريح الإمام وقبته الذهبية، كما أبان منزلة الإمام وعظمته بقصيدة ستجدها بعد هذا البحث.

وعادة الاستجارة بمشهد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حقيقة روحية لدى المسلمين بعامة، لا يختلف بعائديتها اثنان مع تعدّد المذاهب

(١) الخطيب البغدادي / تأريخ بغداد ١ / ١٢٠.

(٢) بحر العلوم / تحفة السالم ٢ / ٢٠.

(٣) عبد الباقي العمري / الديوان / ١٣٣.

والمشارب حتى قال القائل في مدح يحيى بن جعفر[1]:

وفي الجانب الشرقي يحيى بن جعفر
وفي الجانب الغربي موسى بن جعفر

فذاك إلى الله الكريم شفيعنا
وهذا إلى المولى الإمام المطهّر

وما هذا إلاّ لتمكن حبّ الإمام من قلوب العباد، ولتلك الكرامة الباهرة بقضاء حاجة من استجار به في الشدائد والملمّات.

والحمد لله أولاً وآخراً على حسن توفيقه في إكمال هذا السفر، ذاكراً شاكراً مصلّياً على النبي المصطفى وآله الطيبين الطاهرين.

(١) ظ: باقر شريف القرشي / حياة الإمام موسى بن جعفر ١ / ٥٣.

قصيدتان للمؤلف في الإمام

نظّم المؤلّف قصيدتين في الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، كانت الأولى بتأريخ نيسان عام ١٩٧٥م، وكانت الثانية في شوال ١٤٢٢هـ.

الإمام موسى الكاظم عليه السلام

الشعرُ عـيٌّ... والعواطفُ ضُلّعُ
وأمامَك الفكرُ المحلّفُ يخشعُ

وتمرُّ ألسنةُ البيانِ بليغةً
فإذا أتتكَ ثنى الزمامَ المطلعُ

ماذا أحدّثُ عنك يا بن محمدٍ
ولأنتَ أسمى.. والمكانة أرفعُ

شرفٌ على شرفٍ يضمّك مجدُهُ
وحقيقة تبقى.. وذكرٌ أروعُ

يستقبل التأريخ منك مواهباً
بالعبقرية تستفيض فيكرعُ

العالم العلويُّ فيها ناطقٌ
والكوكبُ الأرضي فيها يصدعُ

فكأن (عيسى) في تراثك عائدٌ
والشمس قد ردّت.. وذاتك (يوشعُ)
وعصا (ابن عمرانَ) الكليم بكفِّهِ
فكأن (موسى) جنب (موسى) يرفعُ
ما نارُ (إبراهيمَ) إلاَّ جذوةً
خمدتْ لنورٍ من جبينِكَ يسطعُ
وعليك من نور النبيِّ صباحةٌ
في المشرقين سناؤها يتشعشعُ
ومن (الإمام المرتضى) آثارُهُ
وبنوهُ تثرى.. والأئمةُ تتبعُ
سرُّ الشهادةِ من (حسين) رمزُهُ
ألِقٌ بسجنك يستطيل فيلمعُ
وعصارةٌ (للمجتبىٰ) من سُمّهِ
أحشاؤه كحشاكَ إذ تتقطّعُ
ذريةً من بعضها.. قد أنجبت
بعضاً فمنْ (كسرى) هناك و(تبّعُ)

***

يا بن النبي المصطفى.. ووصيّهِ
حقاً.. ومن في حبّه نتذرّعُ..
لله من كيد الزمانِ وغدرِهِ
ومن الحسابِ.. وما بهِ نتوقّعُ
بابُ الحوائجِ والإمام المرتجى
في النائبات... ومن به نستشفعُ

موسى بن جعفر.. وهي أعظم نسبةٍ
نفحاتُها بطيوبِه تتضوّعُ
ما مرَّ ذكرُكَ في الرؤى إلاّ هفا
مني الفؤاد.. وسال هذا المدمعُ
فرحاً بحبّكَ.. فالضميرُ يشدُّني
حبلاً.. ويدفعُني الولاءُ فأُدفعُ
لله أمرٌ باصطفائِكَ إنّه
رمزُ الوجود.. وسرّهُ المستودعُ
ما سعّرت منكَ الكفاحَ جوانحٌ
إلاّ وطيفُكَ للطغاةِ المُفزعُ
حتى انطوى ذاك الضلالُ، وما انطوى
إلاّ وقبرُكَ للهداةِ المَفْزَعُ
تتعفّرُ الجبهاتُ في أعتابِهِ
وقعاً... وتلثمه القلوب فتخشعُ
ويزينُ سدّتَه (الجوادُ) طلاقةً
فيهشّ مكلومٌ.. ويوسرُ مدقعُ
نورٌ على نورٍ.. وتلكَ مشيئةٌ
لله.. أن طاب الجنابُ الممرعُ
فكأنهُ النجمُ المحلّقُ في السما
يعنو له طرف.. ويومئُ إصبعُ
يتموّج الضوءُ البهيّ بأفقِهِ
ويفوحُ مجمرُهُ الذكّي ويفرعُ

وتـؤمُّـهُ غـرُّ الـمـلائـك سجّداً
وتـحـلُّ ساحته الملوك فتركعُ

يـا أيّـهـا الـبَـطـلُ الـمـوّحـدُ أمـةً
والليلُ داجٍ... والطريق مـروِّعُ
عاصرت جمهرةَ الطغاةِ.. فما ونى
عـزمٌ.. ولا وهـنَ الجهادُ الأروعُ
تحيا من المِحنِ الصِعابِ.. وترتمي
غضباً على المتجبّرينَ يـوزّعُ
وتقيتكَ الأزمـاتُ صلبَ عقيدةٍ
عصماء.. لا تلوى ولا تتزعزعُ
حتى دعـاكَ السجنُ تعركُ قيدهُ
وتعيش وحدته.. ونهجُكَ مهيعُ
متلفعاً بـضـراوةٍ مـن بأسه
صلتَ الجبينِ.. وربَّ ثاوٍ يهطعُ
قضَّيت عمرَك بالسجون.. وإنّـهُ
مـجـدٌ بـكـل كَـريـمـةٍ يتلفعُ
حتى سُقيتَ السمَّ تجرعُ كأسَهُ
غصصاً.. وترتقبُ الخلاصَ فتكرعُ
صبراً على مضض الحتوف.. وإنما
طـبـعُ الـزمـانِ بـكـلِّ حـرٍّ مولعُ
ما قيمةُ الدنيا إذا هي زُيِّنتْ
بالأمنيات.. وطـالَ دهـرٌ ممتعُ

إبمثلِ (موسى) تستخفّ عصابةٌ
وهو الهزبرُ المستميتُ المصقعُ
رجلُ العقيدة والهدى بنهارهِ
وبليله قدّيسها المتورّعُ
ما مرّ في خلدٍ.. ولا في مسمعٍ
مثلٌ له.. والوترُ أنّى يشفعُ
يتدفّق القرآنُ في نبراتِهِ
وهوَ الإمام العبقريّ الأورعُ
دنياه تزخر بالعطاء.. وعمرُهُ
خصبٌ.. وعمرُ ذوي الدخائلِ بلقعُ
ما مرّت (الخمسون) إلاّ توجّتْ
بالطّيبات.. وفاضَ ذاك المنبعُ
بعلوم آل محمدٍ.. وتراثه
وبما يلذّ السامعينَ ويمتعُ
فكأنَّ روحَ (محمدٍ) في جنبِهِ
وهدى (عليٍّ) في يديهِ مجمّعُ

في رحابِ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام

بضريحِهِ أَنِخِ الركابا
وافتحْ من البركات بابا
(موسى بن جعفر) من أشا
دَ بكلِّ مكرمةٍ قِبابا

هـو بـابُ (حِـطّـةَ) لـلـذنـو
ب فـعـنـده ازدلـفـوا اقـتـرابـا
مـن عـنـدَهُ فـصـلُ الـخِـطـا
بِ.. فليسَ يـبـلـغُـهُ خِطابا
وبـه حـمـى الله (الـعـرا
قَ) مـن الـمـكـارهِ أن يصابا
وبـتـلـكـمُ الأعـتـاب فـالـ
تـمـسـوا دعـاءً مستجابا
وبـظّـلـهـا ادّرئـوا الـعـقـا
بَ.. وعندها اطّـلـبـوا الثوابا
فـبـهـا نـجـاةُ الـلائـذيـ
ـنَ حـمـىً، وقـربـىً، وانتجابا
أَنـزِلْ بـسـاحـتِـهِ الـمـنـى
واظـفـرْ بـأفـضـلِـهـا طِـلابـا
وأقـمْ بـحـضـرتـه الـزَّكـيَّـ
ـةِ مـسـتـجـيـراً أو مـتـابـا
هـي بـقـعـةٌ قـدسـيـ
ـةٌ بـالـمـجـد عـامـرةٌ جـنـابـا
رَوحُ الـجِـنـانِ يـفـوحُ من
جـنـبـاتـهـا أرجـاً مـذابـا
وشـذا الإمـامـة بـالـكـرا
مـةِ.. ينضحُ الطيبَ انسيابا

سبحان ربّك.. ما أعزّ
شموخه.. صقراً.. عُقابا
يجتاح كلّ طريدةٍ
ويبزّ ناطحةً سحابا[1]
(بابُ الحوائج) ما أتا
هُ — قاصداً — أحدٌ فخابا
رجلُ الصّلابةِ والأصا
لةِ ما استلان ولا استجابا
يتجرّعُ الغصصَ العظا
مَ ويصطلي المِحنَ الصعابا
المستميتُ بحيث كلُّ
الناس تضطرب اضطرابا
حتى إذا ضاق (الرشيـ
دُ) به مقاماً... واستراباً
أحصى له الأنفاس لو
مَرَّ النسيمُ بها لآبا
ورماهُ بالحكم الرَّهِيـ
ـبِ يعيشُ نفياً.. واغترابا
متنقّلاً بين السّجو
نِ كأنّ فيهنّ الرّغابا

(١) قال زكريا بن آدم، وهو من وجوه أصحاب الأئمة للإمام الرضا: إني أريدُ الخروج عن أهل بيتي، فقد كثر السفهاء فيهم، فقال الإمام الرضا: لا تفعل، فإن أهلَ (قم) يُدفعُ عنهم بك، كما يُدفع عن أهل بغداد بأبي الحسن عليه السلام، يعني الإمام موسى بن جعفر.

يحيا حياةَ الشامخيـ
نَ تعضّ بالقيدِ الرقابا
وتُكبَّلُ الأصفادُ والـ
أغلالُ أطرافاً غِضابا
ويطالُها بالعسفِ والإر
هابِ أعصاباً صِلابا
حتى إذا انقلبَ الزما
نُ... ولا حقَ الدهرُ الذِئابا
قُلبتْ موازينُ الحيا
ةِ وَمسَّتِ الشّمسُ الضّبابا
فإذا الطغاة بمأزقٍ
يحترُّ بالذلِّ العذابا
ولو ارعويتَ مصيرَهمْ
أثراً.. وعوداً.. واختطابا
لعلمتَ أنّ اللهَ بالـ
مرصاد... أعجزهم غِلابا
حتى تعودَ ديارُهُمْ
قفراءَ موحشة.. يبابا
وينزّل النقماتِ بالـ
ـلعناتِ تنصبُّ انصبابا
من كانَ يؤخذ بالحنا
نِ.. غداً سيأخذُهُ اغتصابا

حتى يعودَ كيانُهُ
ظِفراً لمنتقمٍ ونابا
ويصبّ فوق الرأس من
غصصِ الحميمِ لظىً مذابا
كالمُهلِ يغلي في البطو
نِ.. وحسبه منه شَرابا
والمتقونَ بجنّةٍ
فيحاء.. ظِلاً وانجذابا
تجري بها الأنهارُ بالـ
ألبانِ تنسابُ انسيابا
والخمر والعسل المُصَـ
فَّى راق مصطحباً وطابا
و«الحورُ» في جنباتهم
أدنى من القوسين قابا
من «قاصراتِ الطّرف عِيْـ
نٍ» لا اكتحالاً أو خضابا[1]
وأجلُّ منها.. قطفهم
رضوانَ ربِّكَ والثوابا
هذا هوَ الحرمُ الذي
من حولِهِ طوفوا احتسابا
والقبّةُ الزهراءُ فو
قَ ضراحِهِ التبرُ التهابا

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴾ الصافات / ٤٨

ومنائرٌ ذهبيةٌ
غمرتْ أشعَّتُها الهضابا
تهدي المضلّينَ السَّبيـ
لَ.. وتستبيحُ الإرتيابا
ما الشمسُ إذ تبدي السَّنا
إلاّ كضاربةٍ نِقابا
وإذا بدتْ شهب السَّما
ءِ رأيت بينهما حجابا
وتساقطُ الأمطار يَبْـ
عَثُ من لآليها الرِّطابا
يجلو ملامحَ ضوئِها
كالفجرِ لطفاً وانسكابا
وكأن مثقلةَ الغيو
مِ.. بجنبها.. خِلٌّ تصابى
يتعانقانِ إذا بدا
شبحَ الأصيلِ لها اقترابا
فاضرب بطرفِك حيث شِئْـ
تَ ترى به الصِوَرُ العِذابا
نورُ (الجوادِ) ونارُ «مو
سى» حقّقا العجبَ العِجابا
وكذاك «أهل البيتِ» مَنْـ
زِلَةً..ومجداً.. وانتسابا

فـي كـلِّ قـلـبٍ مـنـهـمُ
جـذواتُ حُـبٍّ لـن تـشـابـا
وبـكـلِّ بـيـتٍ قِـبـلَـةٌ
بَـنَـتِ الـمـحـاريـبَ الـرحـابـا
ولـئـن حـجـجـنـا شـطـرهـا
فـزنـا بـأوفـرهـا نِـصـابـا
أنـا لا أغـالـي.. إنّـمـا
أزجـي عـلـى الـدهـرِ الـعـتـابـا
أَلِـمِـثْـلِ هـذيـنِ الإمـا
مـيـنِ الـزمـانُ نـضـا الـحِـرابـا؟
(والـكـاظـمـيـةُ) روضـةٌ
غـنّـاءُ.. تـحـتـضـنُ الـشِّـعـابـا
أمّـا الـنـسـيـمُ.. فـإنـهُ
أرجٌ بـمـاءِ الـوردِ ذابـا
وصـبـاحُـهـا ومـسـاؤُهـا
يـتـسـابـقـان بـهـا عِـرابـا
وشـبـابُـهـا وشـيـوخُـهـا
يـتـبـاريـانِ بـهـا غِـلابـا
بـ«الـمـرتـضـى» عِـلـمـاً، وبـالـشَّـ
ـيْـخِ «الـمـفـيـدِ» لـهـا شـهـابـا
وطـلائـعِ الأبـرارِ مـمَّـنْ
شـيّـدوا الـشُـمَّ الـصِـلابـا

أمـــنـــاءِ ديـــنِ اللهِ هَـــدْ
يـــاً واحـــتـــســـابـــاً واكـــتـــســـابـــا
الـــحـــامـــلـــيـــنَ رســـالـــةَ الـــ
إســـلامِ والـــعِـــلـــمَ الـــلّـــبـــابـــا
والإجـــتـــهـــادُ عـــلـــى الـــجـــمـــو
دِ يـــقـــودُ ثـــورتَـــه انـــقـــلابـــا
والـــفِـــكـــرُ يـــبـــرز كـــالـــسّـــنـــا
سَـــيـــفـــاً.. ويـــنـــزعـــه قـــرابـــا
أُولاءِ أســـــرارُ الـــحـــيـــا
ةِ.. وكـــنـــزُ مـــعـــدِنِـــهـــا عِـــيـــابـــا
قـــد تـــوّجـــوا الـــتـــأريـــخَ إكْـــ
لِـــيـــلاً وغـــاراً واعـــتـــصـــابـــا
و«بـــآلِ يـــاســـيـــن» زهـــا
عـــلـــمـــاً وحـــلـــمـــاً وانـــتـــجـــابـــا(١)
مـــا فـــيـــهـــم إلاَّ الـــنـــقـــ
يُّ لـــوجـــهِ بـــارئِـــهِ أنـــابـــا
أخـــلاقـــهـــم زهـــرُ الـــرَّبِـــيْـــ
عِ تـــكـــاد تـــرشِـــفُـــهُ رِضـــابـــا
والـــعـــلـــمُ فـــي نـــداوتِـــهـــم
كـــالـــبـــحـــرِ تـــمـــخـــرهُ عُـــبـــابـــا

---

(١) آل ياسين: الأسرة العلمية الشهيرة في الكاظمية، برز منها العلماء الأعلام والمراجع العظام، كان أشهرهم المرجع الأعلى الآية الكبرى الشيخ محمد رضا آل ياسين قدس سره.

وهداةُ «آلِ الصدر» تَحْـ

تَضِنُ العقيدة والصوابا[1]

كانوا مع الإسلامِ آ

سَاداً تحصّنُ مِنهُ غابا

ويريك «آل الحيدريِّ»

لكلِّ مسألة جوابا[2]

عازوا إلى الدين الشبا

بَ.. وأفعموا منه الوطابا

و(الخالصيّ) وما اصطفت

كفَّاه.. سيفاً أوكتابا[3]

رجلَ العراق.. ونجلَهُ

علمَ الشريعةِ والمهابا

وشبيبةٌ رأدُ الضحى

من دون روعتها انجذابا

وكذلك المجدُ المؤثلُ

يبعث الدنيا شبابا

---

(١) آل الصدر: الأسرة الموسوية العريقة في الكاظمية برز منها السيد حسن الصدر صاحب (تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام) والسيد إسماعيل الصدر والسيد محمد باقر الصدر صاحب (فلسفتنا) و(اقتصادنا) وسواهم.

(٢) آل الحيدري: من أعرق الأسر العريقة في الكاظمية، برز منهم السيد مهدي الحيدري من قواد الثورة العراقية، والسيد علي نقي والسيد محمد طاهر والسيد محمد الشهير بالخلاني.

(٣) الإمام الشيخ مهدي الخالصي الكبير قائد الثورة العراقية، وولده الأكبر الشيخ محمد الخالصي قدس سره.

خاتمة المطاف والنتائج

كانت هذه الرحلة المباركة قد اصطحبت الإمام الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام، في حياته الخاصة وحياته العامة، فوجدت الإمام عليه السلام باختصار: مُلك قيادته وأمته لا ملك نفسه، وخلصت إلى نتائج موضوعية في رؤية معاصرة لتأريخ الإمام العلمي والعقلي والسياسي والنضالي بما أوضح صورة الإمام دون تزيّد أو إضافة، وإنما هو الحقيقة القائمة على أساس المنهج التحليلي للوقائع والأحداث والقيم، في أسلوب جديد، وعرض جديد في ثمانية فصول رئيسية:

١. كان الفصل الأول متحدّثاً عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في سماته ومميزاته الأساسية منذ الولادة الطاهرة، فالنشأة المباركة، وتسليط الضوء على تلك المكانة المرموقة، مروراً بحكم التأريخ في مرآته الكاشفة عن رؤية الإمام لدى أصحاب الرأي والقرار الثابت النزيه في أبعاد شخصية الإمام، ومن ثمّ إبراز الخصائص المميزة للإمام في الورع والتقوى والحلم والزهد وكظم الغيظ وسخاء النفس، بما يعتبر المشترك الأعظم في خصائص الأئمة.

٢. وكان الفصل الثاني قد تناول المسيرة العلمية الرائدة للإمام في إيجاز وتكثيف ملحوظين اقتصر فيهما البحث على مدرسة أهل البيت الأولى في ريادتها التراثية: سنناً وتشريعاً ومعارف، وموقع الإمام البارز البصمات على المدرسة، متعقّباً مصادر علم الإمام الكسبية والموهبية في أدلّتها وشواهدها البرهانية؛ ناظرة إلى سيرورة علم الإمام في الآفاق وذيوعه في الأقاليم رغم الرقابة الصارمة والتضبيب الإعلامي، مؤكّدةً الدور البارز الذي نهض به تلامذة الإمام في التأليف والتصنيف، ونشر تراث أهل البيت، وختم الفصل بشذرات من تعليمات الإمام وهو يقود الأمة تهذباً وتنظيماً وهدايةً.

٣. وكان الفصل الثالث حافلاً بظواهر الحياة العقلية المتطوّرة، بما تلمس به من لذة فكرية ومتاع عقلي رصين، فقد كشف عن اهتمام الإمام بالعقل الإنساني واستقلاليته بالإدراك، وحرص على تتبّع الاضطراب في المناخ العقلي في عصر الإمام، واتّجاهات التعدّدية في المذاهب الكلامية والاحتجاجية والفلسفية، والإشارة إلى الانشقاق الداخلي في فرق الشيعة مما أوجد حالة جديدة من العبء والمسؤولية اضطلع بها الإمام بقيادته الفذّة، وهو يخوض خضمّ التيار الكلامي المتقلّب، أَلِقَ الجبين، أصيل الرأي، قوي الحجّة، بما يعبّر تعبيراً رسالياً عن رأي الإسلام المشرق في هذا المناخ.

٤. وكان الفصل الرابع حاشداً بمفارقات عصر الإمام في ظل الطواغيت من السلاطين والملوك، وهم يتسنّمون مناصب الدولة العليا، ويدّعون الخلافة الشرعية دون حقّ، والجور والطغيان يملأ الأرض ويتعالى إلى عنان السماء، في أرقام طويلة من الاستئثار بكل شيء دون الشعب المضطهد، وباستعلاء لا مثيل له إلاّ في تأريخ الفراعنة والأباطرة

والقياصرة، واستخفاف بالقيم والمثل لا نظير له إلاّ في العهد الجاهلي، والإمام يعاني بصبر تارة، وبكفاح تارة أخرى، وبمعتقلات سواهما، من تلك الإفرازات البغيضة الثقيلة التي مثّلت الإرهاب والظلم المقيت من خلال أبي جعفر المنصور، والمهدي العباسي، وموسى الهادي، وهارون الرشيد، بما يخرّق أسطورة العصر الذهبي المزعوم.

٥. وكان الفصل الخامس ملتهباً بحريق المناخ الثوري ضد النظام العباسي الجائر، وما قوبل به هذا المناخ من إجراءات الإرهاب الدموي، وقمع التحرّك السياسي بأعنف الأساليب، وأقسى صنوف القتل والتعذيب، ومجابهة ذلك التوجّه الثوري لصاحب فخّ وصاحب الديلم وأنصارهما بالحرب الضروس والإبادة الشاملة، وقطع رؤوس القتلى، وتسيير الأسرى مكبلين بالحديد، وهدم البيوت، ومصادرة الممتلكات، وقتل الأسرى جميعاً دون استثناء.

وأعقب هذا وذاك التصفية الجسدية المنظّمة لأقطاب المعارضين من العلويين، حتى استطال المهدي والرشيد إلى سجن الإمام، بعد الاتّهام بتأييد الثائرين، وهو براء من ذلك، فالإمام لا يتحرّك بدافع من العواطف، ولا يؤيّد العنف الثوري، وهو يهدر دون أية عائدية.

وكان موقف الإمام جلياً في الترقّب والانتظار، وآراؤه مبرمجة بالنصح الكريم وتحاشي الإِثارة الدموية، حفاظاً على أرواح الشعب البريء الأعزل من الإزهاق.

٦. وكان الفصل السادس كفيلاً باستيحاء البعد الاستراتيجي الدقيق، والتخطيط المنهجي الرائد لسياسة الإمام في مقاومة الانحراف العباسي، واتخاذه سياسة النضال السلبي طريقاً لمقاطعة النظام والقول بعدم شرعية

الحكم، والابتعاد عن معالم السلطان والولاة والقضاة ووعّاظ السلاطين، في حين يخترق الإمام النظام العباسي من الداخل بأعيان من أصحابه لهم الأثر البارز في تحقيق الحدّ الأدنى من دفع الظلم الاجتماعي عن الناس، وقضاء مهمات أولياء الله وأنصاره والمستضعفين في الأرض، هذا في الوقت الذي نجد فيه الإمام يشمّر عن ساعديه في الموقف الحاسم الذي تدعو له الضرورة الشرعية، فيجابه التضليل الديني ببيان الحقائق، ويقاوم الانحراف السياسي بإبداء الرأي الجريء.

٧. وكان الفصل السابع حافلاً بمعاناة الإمام في غياهب السجون، وهو يقاسي العزلة والاغتراب في تلك الأقبية، فبحث باستيضاح الرؤية المجهرية لدوافع سجن الإمام، وكشف الأسباب الكامنة وراء تنقّل الإمام في عدة سجون، ومن ثمّ الرصد الاستقرائي لحياة الإمام في السجن، وهو يرفع راية العبادة المجرّدة، ويعطف بالعلم النافع على مريديه، ويوصي بأمواله وصدقاته، وقد لاحت إمارات انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

٨. وكان الفصل الثامن مقتصراً على تسنّم الإمام لمدارج الشهادة بصبر وثبات، بعد أن أذهلت الرشيد جماهيرية الإمام وتأثيره في الأمة، فدأب مخططاً لاغتيال الإمام مرة بعد مرة، حتى أقدم على قتله بالسمّ، وأساغ لجلاوزته أسلوب الدجل السياسي المفضوح بالإشهاد على وفاة الإمام بأنّه مات حتف أنفه، ومن ثمّ كان الحديث عن مراسم تجهيز الإمام وتشييعه الى مثواه الأخير في مقابر قريش حيث ضريحه المقدّس مع وصف ميداني للمشهد والروضة والصحن الكاظمي والقبتين والمنائر الأربع.

وارتأى البحث أن يكمل هذه المسيرة الحافلة للإمام بإثبات قصيدتين

للمؤلف قالهما في حقّ الإمام وشموخه ونضاله واحتسابه حتى كتب له الخلود السرمدي، وعاد بحقّ شهيد عظمته، وقتيل منزلته الكبرى.

وآخر دعوانا أن الحمدُ لله رب العالمين.

النجف الأشرف

محمد حسين علي الصغير



المصادر والمراجع



المصادر والمراجع

١. القرآن العظيم.
٢. الآبي / أبو سعيد / منصور بن الحسين الوزير. نثر الدر / الهيئة المصرية للكتاب / القاهرة / ١٩٨٠م.
٣. الأبشيهي / شهاب الدين / محمد بن أحمد المحلي (ت ٨٥٠هـ).
٤. ابن الأثير / أبو الحسن / علي بن أبي الكرم / محمد بن محمد الجزري (ت ٦٣٠هـ) الكامل في التأريخ / دار الكتاب العربي / بيروت / د.ت.
٥. أحمد أمين / الدكتور / أستاذ في الجامعة المصرية. ضحى الإسلام / مطبعة الاعتماد / القاهرة / ١٩٣٣.
٦. أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ). مسند أحمد / دار صادر / بيروت / د. ث.
٧. الإربلّي / أبو الحسن / علي بن عيسى بن أبي الفتح / (ت ٦٩٣ هـ). كشف الغمّة في معرفة الأئمة. مطبعة النجف / النجف الأشرف / ١٣٨٥ هـ.
٨. الأشعري / سعد بن عبد الله (ت ٣٠١ هـ). المقالات والفرق / طبع طهران / ١٩٦٣م.
٩. الأصبهاني / أبو الفرج / علي بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ). الأغاني / تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الكتب المصرية / القاهرة / ١٩٦٨م.
١٠. الأصبهاني / نفسه. مقاتل الطالبيين / المطبعة الحيدرية / النجف

الأشرف / ١٩٥٦م.

١١. أمير علي الهندي / أستاذ في الحضارة الإسلامية. مختصر تأريخ العرب / الترجمة العربية / القاهرة / ١٩٣٨م.

١٢. باقر شريف القرشي / أستاذ في الحوزة العلمية في النجف الأشرف. حياة الإمام محمد الباقر عليه السلام. مطبعة النعمان / النجف الأشرف / ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

١٣. باقر شريف القرشي / نفسه. حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام. الطبعة الثانية / مطبعة الآداب / النجف الأشرف / ١٩٧٠م.

١٤. بحر العلوم / الزعيم الأكبر السيد محمد مهدي الطباطبائي النجفي (١٢١٢هـ). رجال السيد بحر العلوم / الفوائد الرجالية. تحقيق: محمد صادق بحر العلوم / حسين بحر العلوم / مطبعة الآداب / النجف الأشرف ١٣٨٥هـ.

١٥. البخاري / أبو عبد الله / محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ). الجامع الصحيح / المطبعة الأميرية الكبرى / بولاق / القاهرة / ١٣١٤هـ.

١٦. البرقي / أبو عبد الله / محمد بن خالد (ت ٢٨٠ هـ). كتاب المحاسن / دار الكتب الإسلامية / طهران / د. ت.

١٧. البلاذري / أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ). أنساب الأشراف / دار المعارف بمصر / القاهرة / ١٩٥٩م.

١٨. البيهقي / إبراهيم بن محمد / من أعلام القرن الثالث الهجري. المحاسن والمساوي / طبع مكتبة النهضة / القاهرة.

١٩. الترمذي / محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٧٩ هـ). سنن الترمذي / نشر المكتبة الإسلامية / القاهرة / د.ت.

٢٠. ابن تغري بردي / أبو المحاسن / جمال الدين / يوسف بن تغري بردي

(ت ٨٧٤ هـ). النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة / طبعة وزارة الثقافة والإرشاد المصرية / القاهرة.

٢١. ابن تيمية / أحمد بن عبد الحليم الحراني (ت ٧٢٨ هـ). منهاج السنة / القاهرة / ١٣٢١ هـ.

٢٢. جعفر آل بحر العلوم. تحفة العالم / المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف.

٢٣. الجواهري / الفقيه الأكبر الشيخ محمد حسن الجواهري النجفي (ت ١٢٦٦هـ)جواهر الكلام / طبع النجف الأشرف / ١٣٨٩ هـ.

٢٤. الجهشياري / محمد بن عبدوس.الوزراء والكتاب / مطبعة مصطفى البابي الحلبي / القاهرة / ١٣٥٧هـ.

٢٥. الحاكم النيسابوري / أبو عبد الله / محمد بن عبد الله (ت ٤٠٥ هـ). المستدرك على الصحيحين / طبع الهند / ١٣٣٤ هـ.

٢٦. ابن حجر / أبو الفضل / أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ).تهذيب التهذيب / دار صادر / بيروت / د. ت.

٢٧. ابن حجر / شهاب الدين / أحمد بن محمد الهيثمي المكي (ت ٩٧٣ هـ).الصواعق المحرقة / طبعة القاهرة / ١٣١٢ هـ.

٢٨. ابن أبي الحديد / أبو حامد / عز الدين / عبد الحميد بن هبة الله (ت ٦٥٦ هـ).شرح نهج البلاغة لأمير المؤمنين عليه السلام.تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / دار إحياء الكتب العربية / القاهرة / ١٩٥٩م.

٢٩. الحر العاملي / محمد بن الحسن (ت ١١٠٤ هـ).وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة.دار إحياء التراث / بيروت / د. ت.

٣٠. ابن حمدون / أبو المعالي / بهاء الدين / محمد بن الحسن البغدادي (ت ٥٦٢ هـ).تذكرة ابن حمدون / مطبعة النهضة / القاهرة / ١٣٤٥هـ.

٣١. الحميري / عبد الله بن جعفر / من علماء القرن الثالث الهجري.قرب الإسناد / المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف / ١٣٦٩هـ.
٣٢. الخطيب البغدادي / أبو بكر / أحمد بن علي بن ثابت (ت ٤٦٣ هـ). تأريخ بغداد / دار الكتاب العربي / بيروت / د.ت.
٣٣. ابن خلّكان / أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١ هـ).وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد / مطبعة السعادة / القاهرة / ١٩٤٩م.
٣٤. الخوئي / أبو القاسم الموسوي الخوئي (المرجع الديني الأعلى الراحل) (ت ١٤١٣ هـ).معجم رجال الحديث / إخراج: مرتضى الحكمي. مطبعة الآداب / النجف الأشرف / ١٣٩٠ هـ.
٣٥. خير الدين الزركلي (الببلغرافي المعاصر).الأعلام / الطبعة الثالثة / بيروت / ١٣٨٩ هـ.
٣٦. الذهبي / شمس الدين / محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ).تذكرة الحفّاظ / المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف / ١٣٨٣ هـ.
٣٧. الذهبي /نفسه.سير أعلام النبلاء / مؤسسة الرسالة / بيروت / ١٤٠٦ هـ.
٣٨. الذهبي / نفسه ميزان الاعتدال / دار المعرفة / بيروت / د.ت.
٣٩. الراوندي / أبو الحسن / سعيد بن هبة الله (ت ٥٧٣ هـ). الخرائج والجرائح / طبع المصطفوي / طهران.
٤٠. زكي مبارك (الدكتور). شرح زهر الآداب / طبع القاهرة.
٤١. سبط بن الجوزي / يوسف بن فرغلي البغدادي (ت ٦٥٤ هـ). تذكرة الخواص / المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف / ١٣٨٣ هـ.
٤٢. ابن سعد / أبو عبد الله / محمد بن سعد بن منيع البصري (ت ٢٣٠ هـ). الطبقات الكبرى / دار صادر / بيروت / ١٣٨٨هـ.

٤٣. السيوطي / أبو بكر / جلال الدين / عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ).تأريخ الخلفاء / مطبعة السعادة / القاهرة / ١٩٥٠م.

٤٤. الشابشتي / الديارات / طبع القاهرة.

٤٥. الشبراوي / عبد الله بن محمد القاهري / شيخ الأزهر (ت ١١٧٢ هـ). الإتحاف بحب الأشراف / المطبعة الأدبية / القاهرة / ١٣١٦هـ.

٤٦. الشبلنجي / مؤمن بن حسن الشافعي (من علماء القرن الثالث عشر الهجري).نور الأبصار في مناقب آل النبي المختار / مطبعة عاطف / القاهرة / ١٣٨٤ هـ.

٤٧. ابن شعبة / أبو محمد / الحسن بن علي الحراني الحلبي / من أعلام القرن الرابع تحف العقول عن آل الرسول / تحقيق محمد صادق بحر العلوم. المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف / ١٣٨٠ هـ.

٤٨. ابن شهر آشوب / أبو جعفر / رشيد الدين / محمد بن علي السروي (ت ٥٥٨ هـ).المناقب =مناقب آل أبي طالب.المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف / ١٣٧٥ هـ.

٤٩. الشهرستاني / أبو الفتح / محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ).الملل والنحل / مطبعة مصطفى البابي الحلبي / القاهرة / ١٤١٠هـ.

٥٠. شوقي ضيف / الدكتور / رئيس المجمع اللغوي في القاهرة.التطوّر والتجديد في الشعر الأموي / مطبعة لجنة النشر والتأليف / القاهرة / ١٩٥٢م.

٥١. ابن الصبّاغ / علي بن محمد المغربي المالكي (ت ٨٨٥ هـ).الفصول المهمّة في معرفة الأئمة / المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف / ١٣٨١هـ.

٥٢. الصدوق / محمد بن علي بن الحسين بن بابويه (ت ٣٨١ هـ).إكمال الدين وإتمام النعمة / دار الكتب الإسلامية / طهران / ١٣٩٥ هـ.

٥٣. الشيخ الصدوق نفسه.أمالي الصدوق / مؤسسة الأعلمي للمطبوعات / بيروت / ١٤٠٠هـ.
٥٤. الشيخ الصدوق نفسه:علل الشرائع / المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف / ١٣٨٥ هـ.
٥٥. الصدوق نفسه:عيون أخبار الرضا / طبعة قم / ١٣٧٧هـ.
٥٦. الصدوق نفسه: معاني الأخبار / نشر جماعة المدرسين / قم / ١٣٦١ هـ.ش.
٥٧. الصدوق نفسه: من لا يحضره الفقيه / تحقيق: السيد حسن الموسوي الخرسان مطبعة النجف / النجف الأشرف / ١٣٧٧ هـ.
٥٨. الصفار / محمد بن الحسن بن فروخ (ت ٢٩٠ هـ). بصائر الدرجات الكبرى / منشورات الأعلمي / بيروت / د. ت.
٥٩. ابن طاووس / رضي الدين / أبو القاسم / علي بن موسى بن جعفر الحسني (ت ٦٦٤ هـ). مهج الدعوات / طبعة طهران / ١٣٢٣هـ.
٦٠. الطبرسي / أحمد بن علي بن أبي طالب / ت ٥٨٨ هـ. الاحتجاج / دار النعمان / النجف الأشرف / ١٣٨٦ هـ.
٦١. الطبرسي نفسه: إعلام الورى بأعلام الهدى / المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف / ١٣٩٠هـ.
٦٢. الطبري / أبو جعفر / محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ). تأريخ الأمم والملوك / المطبعة الحسينية / القاهرة / ١٣٢٦ هـ + طبعة دار المعارف.
٦٣. ابن الطقطقى / فخر الدين / محمد بن نقيب النقباء علي الحسني (ت ٧٠٩هـ). الفخري في الآداب السلطانية / القاهرة / ١٩٣٨م.
٦٤. الطوسي / أبو جعفر / محمد بن الحسن (ت ٤٦٠ هـ). تهذيب الأحكام / تحقيق: السيد حسن الموسوي الخرسان. دار الكتب الإسلامية / النجف

الأشرف / ١٣٧٧ هـ.

٦٥. الشيخ الطوسي نفسه: رجال الطوسي / المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف / ١٣٨١ هـ.

٦٦. الشيخ الطوسي نفسه: الغيبة / تقديم الشيخ آغا بزرك الطهراني. مطبعة النعمان / النجف الأشرف.

٦٧. عباس محمد رضا القمي النجفي (ت ١٣٥٩ هـ). الكنى والألقاب / المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف / ١٣٧٦ هـ.

٦٨. عبد الباقي العمري / الشاعر المعروف. الديوان =الترياق الفاروقي / طبع النجف / ١٣٨٤ هـ.

٦٩. عبد الجبار الجومرد / الدكتور. هارون الرشيد / طبع بغداد / ١٩٥٦ م.

٧٠. ابن عبد ربه / أحمد بن محمد الأندلسي (ت ٣٢٧ هـ). العقد الفريد / تحقيق أحمد الزين وجماعته. مطبعة دار التأليف والنشر والترجمة / القاهرة / ١٩٦٧م.

٧١. ابن عنبة / جمال الدين / أبو العباس / أحمد بن علي الحسني الداودي (ت ٨٢٨ هـ). عمدة الطالب / المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف / ١٣٨٠ هـ.

٧٢. $Z لسترانج: بين الخلفاء والخلعاء / تعريب: رشيد يوسف فرنسيس.

٧٣. أبو الفداء / الأمير إسماعيل بن علي بن محمود (ت ٧٣٢ هـ). تأريخ أبي الفداء / القاهرة / ١٣٢٥ هـ.

٧٤. القندوزي / سليمان بن أبي إبراهيم الحنفي (ت ١٢٩٤ هـ). ينابيع المودّة / مطبعة أختر / استانبول / ١٣٠١هـ.

٧٥. القهبائي / عناية الله بن شرف الدين علي القهبائي (من علماء القرن العاشر).

٧٦. مجمع الرجال / طبعة طهران / ١٣٨٤ هـ. ابن كثير / أبو الفداء / إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ). البداية والنهاية / طبعة مكتبة المعارف / بيروت /١٩٦٦م.

٧٧. الكشّي / أبو عمرو / محمد بن عبد العزيز (من علماء القرن الرابع الهجري). رجال الكشّي / تحقيق السيد أحمد الحسيني. مطبعة الآداب / النجف الأشرف / ١٩٧٠م.

٧٨. الكليني / أبو جعفر / محمد بن يعقوب بن إسحاق الرازي البغدادي (ت ٣٢٩ هـ). أصول الكافي / دار الكتب الإسلامية / طهران / ١٣٨٣ هـ.

٧٩. الكليني نفسه: فروع الكافي / تحقيق: علي أكبر الغفاري ونجم الدين الآملي. المطبعة الإسلامية / طهران / ١٣٨٨ هـ.

٨٠. الكنجي الشافعي / أبو عبد الله / محمد بن يوسف بن محمد (ت ٦٥٨ هـ). كفاية الطالب / المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف / ١٣٩٠ هـ.

٨١. المتقي الهندي / علاء الدين / علي بن حسام الدين (ت ٩٧٥ هـ). كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال / مؤسسة الرسالة / بيروت.

٨٢. المجلسي / شيخ الإسلام / محمد باقر بن محمد تقي (ت ١١١١ هـ). بحار الأنوار / ج ٤٨ / تحقيق: محمد مهدي الموسوي الخرسان. المطبعة الإسلامية / طهران / ١٣٨٥ هـ.

٨٣. محسن الأمين الحسيني العاملي الشقرائي (ت ١٩٥٢ م). أعيان الشيعة / ج ٤ / القسم الثالث / مطبعة كرم / بيروت / ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م.

٨٤. محسن الأمين الحسيني نفسه:المجالس السنية / ج ٥ / الطبعة الثالثة / دار النعمان / النجف الأشرف / ١٣٨٤ هـ.

٨٥. محمد أمين السويدي (من علماء بغداد). سبائك الذهب / طبع بغداد / د.ت.

٨٦. محمد حسن آل ياسين (من علماء الكاظمية المقدّسة). الإمام موسى بن جعفر / المطبعة العربية / بيروت / ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩م.

٨٧. محمد حسن آل ياسين / نفسه: مسند الإمام موسى بن جعفر / بحث / مجلة البلاغ / الكاظمية / عدد٧٧ /السنة ٦ / ١٣٩٦هـ.

٨٨. محمد حسين علي الصغير / المؤلف. الإمام زين العابدين عليه السلام / القائد / الداعية / الإنسان. الطبعة الثانية / مؤسسة العارف للمطبوعات / بيروت / ٢٠٠٢م.

٨٩. محمد حسين علي الصغير / نفسه: الإمام محمد الباقر عليه السلام / مجدّد الحضارة الإسلامية. مؤسسة العارف للمطبوعات / بيروت / ٢٠٠٢م.

٩٠. محمد حسين علي الصغير / نفسه: الفكر الإمامي من النصّ حتى المرجعية. الطبعة الأولى / دار المؤرّخ العربي / بيروت / ٢٠٠٠م.

٩١. محمد حسين علي الصغير / نفسه: نظرات معاصرة في القرآن الكريم / دار المؤرّخ العربي / بيروت / ٢٠٠٠م.

٩٢. المرتضى/ علم الهدى/ علي بن الحسين الموسوي (ت٤٣٦هـ) أمالي المرتضى / غرر الفوائد ودرر القلائد / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. مطبعة عيسى البابي الحلبي / القاهرة / ١٩٥٤م.

٩٣. المسعودي / علي بن الحسين بن علي البغدادي (ت ٣٤٦ هـ). التنبيه والإشراف / دار الكتب المصرية / القاهرة / د.ت.

٩٤. المسعودي / نفسه. مروج الذهب / دار الأندلس / بيروت / ١٩٦٥م.

٩٥. مصطفى جواد (الدكتور). سيدات البلاط العباسي / طبعة بغداد.

٩٦. المفيد / الشيخ الأكبر / محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (ت ٤١٣هـ). الاختصاص / تعليق علي أكبر الغفاري / مكتبة الصدوق / طهران / ١٣٧٩هـ.

٩٧. الشيخ المفيد نفسه: الإرشاد / الطبعة الثانية / المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف / ١٣٩٢ هـ.
٩٨. الشيخ المفيد نفسه: الأمالي / منشورات جماعة المدرسين / قم + طبعة النجف / ١٣٦٧هـ.
٩٩. النجاشي / أحمد بن علي بن أحمد (ت ٤٥٠هـ). رجال النجاشي / نشر جماعة المدرسين / قم / ١٤٠٧ هـ.
١٠٠. ابن النديم / أبو الفرج / محمد بن إسحاق البغدادي (ت ٣٨٥ هـ). الفهرست / نشر الأستاذ فلوجل / لايبزك / ١٨٧١م ـ ١٨٧٢م + تحقيق: رضا تجدد / طهران / ١٩٧١م.
١٠١. النعماني / محمد بن إبراهيم بن جعفر (من علماء القرن الرابع). الغيبة / تحقيق: علي أكبر الغفاري / مكتبة الصدوق / طهران.
١٠٢. النوبختي / أبو محمد / الحسن بن موسى (من أعلام القرن الثالث). فرق الشيعة / تحقيق: محمد صادق بحر العلوم / المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف.
١٠٣. هاشم معروف الحسني (من علماء لبنان). سيرة الأئمة الاثني عشر / الطبعة الثانية / دار العلم / بيروت / ١٩٧٠م.
١٠٤. اليافعي / أبو محمد / عبد الله بن أسعد اليمني (ت ٧٦٨ هـ). مرآة الجنان / مؤسسة الأعلمي للمطبوعات / بيروت / ١٣٩٠ هـ.
١٠٥. ياقوت / شهاب الدين / ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (ت ٦٢٦ هـ). معجم البلدان / دار صادر ـ دار بيروت / بيروت / ١٩٥٥م.
١٠٦. اليعقوبي / أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت ٢٥٤ هـ). تأريخ اليعقوبي: تحقيق: محمد صادق بحر العلوم / المطبعة الحيدرية النجف الأشرف / ١٣٨٤ هـ.

١٠٧. يوسف خليف / الدكتور / رئيس قسم اللغة العربية وآدابها / كلية الآداب / جامعة القاهرة. حياة الشعر في الكوفة / دار الكاتب العربي / القاهرة / ١٩٦٨م.



المحتويات